IRSHAD

قلب وجهات النظر رأسا على عقب

المشكلة في الإسلام اليوم

دعوة الى الصحوة من أجل الأمانة و التغيير

المشكلة في الإسلام اليوم

دعوة الى الصحوة من أجل الأمانة و التغيير

إرشاد منجي

جميع حقوق الطبع محفوظة و يجوز استعمال هذا النص واقتباسه شريطة الإشارة بوضوح الى المصدر.

المقدمة
رسالة مفتوحة
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
مراجع اخرى للقراءة
شكر وتقدير

المشكلة في الإسلام اليوم
دعوة الى الصحوة من أجل الأمانة و التغيير

إرشاد منجي

جميع حقوق الطبع محفوظة و يجوز استعمال هذا النص واقتباسه
شريطة الإشارة بوضوح الى المصدر

الى جدتي ليلى ناصر التي تطرح أسئلة كبيرة عندما تُتاح لها الفرصة، و الى الكثير من المسلمين الأفراد الذين أقدموا على المخاطرة.

مقدمة

لنواجه حقيقة بسيطة: يُفتَرَض بي أن أكره إرشاد منجي. فإذا استمع المسلمون اليها سيكفون عن الاستماع الى الأئمة من أمثالي أنا الذي أمضيتُ سنوات في جامعة اسلامية تقليدية.

المؤلفة تهدد سلطتي الذكورية و تقول أشياء عن الإسلام أتمنى أنها ليست صحيحة. وهي لديها لسان سليط و حشد من الحقائق تؤكد بها تحليلها. انها لا تخاف من الموت، باستثناء الموت الذي يأتي بغلق العقل. و هي سحاقية، و ما تعلَّمتُه في المدرسة الدينية غرَسَ في أعماقي، حتى كاد يدخل في تركيب مادتي الوراثية، أن الله يكره المثليين و السحاقيات. فالمفروض بي حقا أن اكره هذه المرأة.

ولكن لدى الإحتكام الى الضمير و إعمال العقل أتوصل الى استنتاج مُحرِج: أن إرشاد تقول الحقيقة. و الله يأمرني بأن أُدافع عن الحقيقة ـ الأمر الذي يعني أن عليّ أن أتخذ جانبها.

و لكني لستُ بسبب ذلك أكتبُ هذه المقدمة. فأنا اكتبها لأني بحاجة الى التكفير عن تصرفي المرائي.

كثيرا ما يُثنى عليّ لشجاعتي في فضح الاسلام المتطرف و الارهاب. وأنا لا أستطيع التقليل من هذا الشرف لأن ما أفعله حقا يتطلب قدرا من الشجاعة. لذا ما كان الأمر ليستدعي تضحية هائلة من الرجولة بغية الدفاع عن إرشاد حين كانت بحاجة الى مَنْ يدافع عنها.

مؤخرا أُتيحت لي هذه الفرصة و لم أغتنمها. كنتُ عائدا لتوي من مؤتمر حيث أثرتُ ضجة بدعوة المسلمين الى تجاوز اللاسامية. وقد حزم بعض المسلمين أمرهم و قرروا أن يفعلوا ما هو صحيح: التقوا بي لتحديد ما قلتُه على وجه الدقة. و في مجرى النقاش أتى أحدهم على ذكر اسم إرشاد. وقد استهجنها الجماعة بوصفها مشاغبة سحاقية. و كنتُ أنا جالسا هناك كالفرخة المسلوخة، صامتا بلا حراك، لستُ راغبا في تناول قضية اخرى ـ أنا الرجل، "حامي حمى" المرأة، كما كُتب عليّ بتفويض الهي في وثيقة تعود الى القرن السابع قال لي معلمو المدرسة الدينية أنها صالحة في كل زمان، لم يكن بوسعي أن أنبس ببنت شفة.

عند ذاك أدركتُ أن نهاية يجب أن تُوضع لكل هذا الهذر. أنا مسلم أم لا؟ هل تهمني الحقيقة أم لا؟ لهذا السبب أعلنُ الآن، لا لاولئك المسلمين الذين التقوا بي فحسب و انما للمسلمين كافة أينما كانوا: أني أؤيد إرشاد منجي. انها تريد أن نفعل ما تريد كتبنا المقدسة منا أن نفعله: انهاء المواقف القبلية و فتح عيوننا و التصدي للظلم حتى لدى ترشيده على أيدي أئمتنا و شيوخنا و مُلالينا و فقهائنا الأجلاء، و غير ذلك من الألقاب التي يخلعها مُصادِرو الاسلام على أنفسهم.

نادرا ما جاهر مسلم، إن جاهر ذات يوم، بما يعرفه كثير منا و لكننا لا نجرؤ على تأكيده. إرشاد لا تلف ولا تدور و هي تفضح معاداة اليهود فضلا عن النزوع الى تعليق مسؤولية كل ما يعانيه الاسلام من علل على شماعة الاستعمار الغربي و في الوقت نفسه التغافل عن تاريخ الاسلام نفسه في ممارسة الامبريالية و الاستمرار في انتهاك حقوق الانسان باسم الله.

تبقى إرشاد في متن كتابها برمته مطيعة للارادة الالهية متجلية في الآية

القائلة: "يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله و لو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين..." (القرآن، ٤: ١٣٥).

و إرشاد إذ تطيع الله تُهزم المُلالي في لعبتهم ذاتها. فمن اصعب متطلبات الاجتهاد، ذلك التقليد الاسلامي في التعليل المستقل، أن يكون المرء عارفا بأحدث المفكرين في الاسلام جميعا. وإرشاد، من هذه الناحية، متقدمة على كثير من علماء الدين. وفي الحقيقة أن كتابها يصلح لأن يكون مادة تعليمية للتعريف بطروحات المثقفين المسلمين الحديثين. فأين في سواه يمكن العثور على مثل هذا التحليل الذكي لأفكار سعد الدين ابراهيم و محمود طه و خالد ابو الفضل و نصر ابو زيد و العديد غيرهم!

و الحق أن إرشاد كشفت نفسها للنقد باختيارها شكلا ديمقراطيا يتسم بالتحدي من اشكال التعبير ـ تقديم الكتاب على انه رسالة مفتوحة. وهذه المقاربة تجرح "أنا" المهجوسين بمسألة المكانة لأن المؤلفة ترفض أن تكتب لنا و لجمهورنا النخبوي حصرا. فان عمل إرشاد لا يقع في خانة النظريات الأكاديمية المبطنه بلغة متعالية تكاد تكون عصية على الفهم. و لا هو يمثل التسبيح الرومانسي المعهود بحمد الاسلام تسبيحا لا يفقهه إلا الأتباع، بل أن أمانة إرشاد و اسلوبها و وضوحها ترفع الكتاب الى مرتبة خاصة به وحده.

أنت القارئ قد لا تتفق مع كل ما تتوصل اليه إرشاد من خلاصات. وأنا قطعا لا أتفق مع كل خلاصاتها. ولكن هذا على وجه التحديد هو ما ترمي اليه، و انتظار أي شيء مغاير انما سيرتد على حرية الفكر ذاتها التي تسعى الى احيائها في الاسلام.

ها أنا فرغتُ من البوح بما في داخلي. وإذ اعترفتُ بتأييدي إرشاد منجي أشعرُ بأني تحررت ـ أو تقريبا تحررت. فأنا لدي نقطة خلاف واحدة: إرشاد كيف تجرؤين على سرقة رجولتي مني بتأليف كتاب كان عليّ أنا أن اكتبه؟

الدكتور خليل محمد
جامعة سان دييغو الرسمية

نبذة عن حياة الدكتور محمد

الدكتور خليل محمد بروفيسور في مادة الدين بجامعة سان دييغو الرسمية، ولاية كاليفورنيا، و من الأعضاء الأساسيين في مركز الدراسات الاسلامية و العربية بالجامعة. وهو أيضا إمام و واحد من العلماء المسلمين القلائل الذين يحظون بقبول السنة و الشيعة على السواء.

ولد الدكتور محمد في غويانا في أميركا الجنوبية. ودرس في المكسيك و كندا و العربية السعودية و موريتانيا و سوريا و اليمن، متلقيا تحصيله في معاهد اسلامية تقليدية و جامعات غربية.

بعد نيله شهاد البكلوريوس في الدين والسيكولوجيا (من المكسيك) حصل على منحة دراسية من الحكومة السعودية ليواصل دراسته في كلية الشريعة بجامعة محمد بن سعود في الرياض.

منذ عودته الى أميركا الشمالية حاز على الكثير من القاب الزمالة و الجوائز و نال شهادة الماجستير في الدين (تخصص باليهودية والاسلام، جامعة كونكورديا) ثم نال شهادة الدكتوراه (بالشريعة الاسلامية) من

جامعة ماكجل، كندا.

كان أول زميل في قسم الدراسات الاسلامية، جامعة براندیس، باسم كرافت هيات Kraft-Hiatt لحملة شهادات الدكتوراه.

الى جانب الخطابة في الجوامع و المعابد اليهودية و الكنائس يحاضر الدكتور محمد في جامعات في عموم أميركا الشمالية و العالم العربي.

الدكتور محمد متخصص بالشريعة الاسلامية و يمكن الاطلاع على آرائه و اجاباته عما يرد اليه من استفسارات على الموقع www.forpeoplewhothink.org

رسالة الى شقيقاتي و أشقائي في الإسلام

علي أن أكون صادقة معكم. فالإسلام يكادُ يفلت مني و أنا أتشبث به بالأظفار، متوجسة مما سيطلع به تاليا مَنْ نصَّبوا أنفسهم سفراء الله في الأرض.

حين أفكرُ في كل تلك الفتاوى التي يطلقها سدنتنا جزافا، أشعر بحرج بالغ. أو لستم كذلك؟ أسمع من صديق سعودي ان الشرطة الدينية في هذا البلد تعتقل النساء لارتدائهن اللباس الأحمر بمناسبة يوم الحب (١)، فأفكر: منذ متى كان الرحمن يُحرِّم الفرح ـ أو اللهو البريء؟* أقرأ عن رجم ضحايا الإغتصاب بتهمة "الزنا"، و أتساءل كيف يمكن لأي منا أن يصمت إزاء ذلك صمت القبور.

عندما يستحلفنا غير المسلمين أن نجاهر بالرأي أسمعكم تجأرون بالشكوى لأننا لسنا ملزمين بأن نجد تفسيرا لسلوك غيرنا من المسلمين. ولكن عندما يُساء فهمُنا لا ندرك ان السبب في ذلك هو على وجه التحديد قعودنا عن إعطاء الآخرين سببا للنظر الينا نظرة مغايرة. وعلاوة على ذلك، عندما أتحدث في العَلَن عن اخفاقاتنا فان المسلمين ذاتهم الذين يرون تنميطا في كل زاوية يصمّوني بالاستسلام. الاستسلام الى ماذا؟ الى الوضوح الأخلاقي؟ الى مكارم الأخلاق المتعارف عليها؟ الى الحضارة؟

أجَل، أنا صريحة. وما عليكم إلا ان تعتادوا على ذلك. وفي هذه الرسالة أطرحُ اسئلة لم يعد بامكاننا الهروب منها. علام نكون رهائن لما يجري

بين الفلسطينيين و الإسرائيليين؟ ما مشكلة تلك الصبغة العنيدة من معاداة السامية في الإسلام؟ من هو مستعمِر المسلمين الحقيقي ـ أميركا أم الجزيرة العربية؟ لماذا نفرِّط بمواهب النساء و هن يشكّلن نصف ما خلقه الله تماما؟ كيف يمكن ان نكون واثقين كل هذه الثقة بأن المثليين يستحقون الإقصاء ـ أو الموت ـ في حين ان القرآن يقول ان الله أحسن كل خَلْق؟ (٢) القرآن، بالطبع، يقول أكثر من ذلك ولكن ما عذرنا لقراءة القرآن قراءة نصية و هو على هذا القدر من المتناقضات و الإبهام؟

أهذه نوبة قلبية التي تنتابكم الآن؟ عجِّلوا بها لأنه إذا لم نجاهر بالرأي ضد الامبرياليين في داخل الإسلام فان هؤلاء سيستأثرون بالاضواء، و طريقهم يفضي الى نهاية مسدودة فيها مزيد من البغضاء و مزيد من العنف و مزيد من الفقر و مزيد من الاستبعاد. أهذه هي العدالة التي نروم للعالم الذي ائتمننا الله عليه؟ إذا لم تكن تلك هي العدالة فلماذا لا يقول المزيد منا ذلك؟

ما أسمعه منكم ان المسلمين مستهدفون بردة فعل شرسة. والحقيقة ان المسلمين في فرنسا ساقوا كاتبا الى المحكمة لأنه وصف الإسلام بكونه "أغبى الأديان" (٣). يبدو ان هذا الكاتب يحرِّض على الكراهية فنعمد الى تأكيد حقوقنا ـ التي غالبيتنا محرومون منها في البلدان الإسلامية. ولكن هل كان هذا الفرنسي على خطأ عندما كتب ان على الإسلام أن يكبر؟ و ماذا عن تحريض القرآن على كره اليهود؟ ألا ينبغي ان يكون المسلمون الذين يستحضرون القرآن لتبرير معاداة السامية هدفا للملاحقة القانونية؟ أم ان هذا سيكون بمثابة "ردة فعل" شرسة اخرى؟ ما الذي يجعلنا أصحاب حق و كل مَنْ سوانا عنصريين؟

في تأسينا الزاعق على أنفسنا و صمتنا العالي نتآمر نحن المسلمين ضد

أنفسنا. فنحن في أزمة و نجرُّ بقية العالم معنا. و إذا كانت ثمة ساعة لإصلاح اسلامي فقد أزفت هذه الآن. أفتوني بالله عليكم ماذا نحن صانعون؟

قد تتساءلون مَنْ أكون حتى اخاطبكم بهذا الإسلوب. أنا مسلمة رافضة. و هذا لا يعني أني ارفض أن اكون مسلمة. انه ببساطة يعني أني أرفض الانضمام الى جيش من البشر المبرمَجين باسم الله. و أنا استعير هذا التعبير من الرافضين الأصليين ـ اليهود السوفيات الذين رفعوا راية الدفاع عن الحرية الدينية و الحرية الشخصية. فقد رفض أسيادهم الشيوعيون السماح لهم بالهجرة الى اسرائيل. و كان جزاء محاولاتهم الرحيل عن الاتحاد السوفياتي أن كثيرا من الرافضين دفعوا الثمن أشغالا شاقة، و أحيانا دفعوا الثمن بأرواحهم. ولكن بمرور الزمن ساهم رفضهم الامتثال الى آليات السيطرة على العقل و تجريد الانسان من روحه في نهاية النظام التوتاليتاري.

و نحن علينا أن ننهي توتاليتارية الإسلام لا بسبب ١١ سبتمبر (ايلول) فحسب و انما بسببه على نحو أشد الحاحا، لا سيما إنهاء الانتهاكات الصارخة لحقوق الانسان بحق النساء و الأقليات الدينية. ستريدون أن تؤكدوا لي أن ما اصفه في هذه الرسالة المفتوحة اليكم لا يمثل الإسلام "الحقيقي". و بصراحة فان مثل هذا التمييز ما كان ليثير إعجاب النبي محمد الذي قال ان الدين هو سلوكنا نحن تجاه الآخرين ـ لا نظريا و إنما فعلا. و قياسا على ذلك فان سلوك المسلمين **هو** الإسلام. و كنس هذه الحقيقة تحت البساط يعني تحللنا من المسؤولية عن أبناء جلدتنا من البشر. أو لا ترون السبب في نضالي؟

المشكلة في الإسلام، على ما أرى، ان الأرواح صغيرة و الأكاذيب

كبيرة. و أن نوازع توتاليتارية تكمن في التيار السائد من الإسلام. و هذه لعمري تهمة خطيرة بحق، كما أعلم. فأرجوكم أن تسمعوني و سأُريكم ما أعني بقدر ما يمكنني من الهدوء.

*كل الدعاوى مشفوعة بمصادر تؤكدها في موقعي على الانترنت. انظر www.irshadmanji.com

هوامش المقدمة

١ـ الصديق الذي أُشير اليه هو علي أحمد، المدير التنفيذي للمعهد السعودي، و هو مؤسسة ذات توجه اصلاحي.
ما نقله اليّ تؤكده شهادة الدكتورة أمل القحطاني أمام الكونغرس الأميركي في ٤ يونيو (حزيران) ٢٠٠٢ التي فضحت فيها انتهاكات العربية السعودية لحقوق الانسان ضد المرأة. و قالت الدكتورة القحطاني في افادتها: "ان الذين احتفلوا بيوم الحب تعرضوا الى الاعتقال، و اصحاب المتاجر مُنعوا من بيع الورود الحمراء و النساء اللواتي ارتدين فساتين حمراء لاحقهن المطوعة (الشرطة الدينية) بالمضايقات و احيان بالتوقيف. و كانت الطالبات يُطرَدن من المدرسة إذا ضُبطن في حال خرق لمنع الاحتفال بيوم الحب. بكلمات اخرى ان الحب قد أُعلن خطيئة في العربية السعودية".
٢ ـ القرآن ، ٣٢: ٦ ـ ٧. و يجري تناول هذه الآية بمزيد من التفصيل في الفصل الأول.
٣ - Michel Houellebecq, *Lire, September 2001, p. 4*
ميشال اوليباك، من نسخة على الانترنت بتاريخ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١ ص ٤. انظر الموقع www.lire.fr.

الفصل الأول

كيف أصبحتُ مسلمة رافضة

هاجرتْ عائلتي الى الغرب شأنها شأن ملايين المسلمين خلال السنوات الأربعين الماضية. و في عام ١٩٧٢ وصلنا الى ريتشموند، وهي ضاحية من ضواحي الطبقة الوسطى في فانكوفر بمقاطعة بريتش كولومبيا. كنتُ في الرابعة من العمر. و في الفترة الواقعة بين ١٩٧١ و ١٩٧٣ كان الوف من مسلمي جنوب آسيا غادروا اوغندا هربا بعدما أعلن الدكتاتور العسكري الجنرال عيدي أمين دادا أن افريقيا للسود. و أمهل ذوي البشرة السمراء منا أسابيع لا أكثر للرحيل أو مواجهة الموت. و كان مسلمون قد أمضوا أعمارهم في شرق افريقيا بفضل البريطانيين الذين جاءوا بنا من جنوب آسيا للمساعدة في مد خطوط السكة الحديد في مستعمراتهم الأفريقية. و بعد أجيال قليلة ارتقى كثير من المسلمين الى مصاف التجار الموسورين. و كان والدي و أشقاؤه يديرون وكالة لبيع سيارات مرسيدس بنز قرب كمبالا مستثمرين الحراك الطبقي الذي اورثه البريطانيون لنا لكننا، من جهتنا، لم نمنحه للسكان الأصليين من السود الذين كانوا يشتغلون عندنا.

كان مسلمو شرق أفريقيا، في الغالب، يعاملون السود معاملة العبيد. وأذكرُ أن والدي كان يضرب خادمنا توماسي ضربا مبرحا حتى وَسْمِ اطرافه الفاحمة برضوض لامعة. و رغم أننا، أنا و شقيقتيَّ و أمي، كنا نحب توماسي فنحن أيضا كُنا نُعاقَب بالضرب إذا ما ضبطنا والدي نضمِّد اصاباته. كنتُ أعلم أن هذا يحدث في الكثير من بيوت المسلمين الأخرى، و أن هذه العبودية استمرت زمنا طويلا بعد رحيل عائلتي. و لهذا السبب رفضتُ في سن المراهقة فرصة القيام بزيارة اقارب لي في

شرق افريقيا. و حذرتُ والدتي قائلة: "إذا ذهبتُ معكِ تعرفين أنه سيتعين عليّ أن أسأل عماتَكِ و أعمامكِ السمان لماذا هم عمليا يستعبدون خدمهم".

كانت والدتي تريد ان تكون الزيارة توديعا للمسنين من ذوي القربى وليست حملة من اجل حقوق الانسان. و لتفادي إحراجها لم ارافقها في رحلتها خارج الوطن.

في غياب أمي أمعنتُ التفكير في ما يعني أن يكون المرء في "وطنه" فقررتُ أن الوطن حيث تكون كرامتي محفوظة وليس بالضرورة حيث نشأ أجدادي. و عندها أدركتُ لماذا إجتاحت القارة التي ولدتُ فيها حمى القومية الأفريقية ما بعد الحقبة الاستعمارية ممثلة بشعار "أفريقيا للسود!". فنحن المسلمين جعلنا الكرامة أمرا صعب المنال على مَنْ بشرتهم اكثر سمارا من بشرتنا. و قد عمدنا الى إستغلال السكان الأفارقة الأصليين أبشع استغلال. وأرجوكم أن لا تقولوا لي أننا تعلمنا القسوة الاستعمارية من البريطانيين لأن على هذا يترتب السؤال: لماذا لم نتعلم منهم أيضا أن نفسح في المجال للسود من ذوي المبادرات الفردية في عالم الأعمال مثلما فعل البريطانيون معنا؟ أنا لا أعتذر عما تلحقه فكرة امتلاك عبد بإسم توماسي من إساءة. و اني لواثقة من أن غالبيتكم ايضا يناهضون العبودية. ولكن الإسلام لم يكن هو الذي ربَّى فيَّ الإيمان بكرامة الفرد بل البيئة الديمقراطية التي هاجرنا اليها أنا و عائلتي: ريتشموند حيث يمكن الأخذ حتى بيد طفلة مسلمة صغيرة ـ و لا أعني طلب يدها للزواج. دعوني أوضح.

بعد عامين على استقرار عائلتي اكتشف والدي توافر خدمات مجانية للعناية بالاطفال أثناء غياب الوالدين، في كنيسة روز اوف شارون

المعمدانية Rose of Sharon Baptist Church (ما أن تقول كلمة "مجانا" للمهاجر حتى تتراجع الإنتماءات الدينية الى موقع ثانوي امام الصفقة المتاحة في اليد). و كل اسبوع عندما كانت والدتي تغادر المنزل لبيع منتجات "ايفون" بالطواف على البيوت كان والدي الذي لا يكن حبا كبيرا للأطفال، يترك صغاره في الكنيسة. و هناك كانت السيدة الجنوب آسيوية المشرفة على دراسة الكتاب المقدس تبدي من الصبر معي و مع شقيقتي الأكبر سنا ما تبديه مع ابنها الذي من دمها و لحمها.

و هي التي غرست فيّ القناعة بأن اسئلتي كانت جديرة بأن تُسأل. وبديهي ان الأسئلة التي كنتُ اطرحها طفلةً في السابعة من العمر ما كان لها إلا ان تكون أسلئة بسيطة. من أين أتى المسيح؟ متى عاش؟ ماذا كان يشتغل؟ ممَّ تزوج؟ هذه الأسئلة لم تضع أحدا في مأزق، ولكن مقصدي ان فعل السؤال ـ ثم السؤال ـ كان دائما يلقى ابتسامة أخَّاذة.

لعل هذا هو الحافز وراء فوزي ، في الثامنة من العمر ، بجائزة "أفضل المسيحيين الواعدين لهذا العام". وكانت جائزتي: طبعة مصورة بألوان زاهية لمائة قصة وقصة من الكتاب المقدس. أنظرُ الى الماضي الآن وأحمدُ الله أن المطاف انتهى بي في عالم لا يتعين أن يكون القرآن كتابي الأول والأوحد فيه ، كأنه الغذاء الروحي الوحيد الذي تقدمه الحياة الى المؤمنين. زد على ذلك ان طبعة الـ ١٠١ قصة من الكتاب المقدس سحرتني بصورها. كيف ستبدو ١٠١ قصة من القرآن؟ في حينه لم أرَ شيئا من هذا القبيل. واليوم ليس هناك شح في كتب الأطفال التي تتناول الإسلام ، بما فيها كتاب "حرف الألف مفتاح لكلمة الله"(١) من تأليف يوسف إسلام (المعروف سابقا باسم كات ستيفينز Cat Stevens). فالمجتمعات الحرة تتيح اعادة اختراع الذات وتَطوُّر الديانات.

بعد فترة وجيزة على فوزي بلقب "أفضل المسيحيين الواعدين" ، اقتلعني والدي من الكنيسة. فان مدرسة دينية اسلامية جديدة ستُفتَح قريبا. وهذه المتشاطرة الصغيرة لا تستطيع الانتظار. وقياسا على تجربتي في مدرسة ايام الأحد ستكون المدرسة الإسلامية مسلّية ، أو هكذا افترضتُ ببراءة.

في غضون ذلك كان عالمي الجديد ينمو مع نموي. فقد افتُتح مجمع ضخم من الأسواق التجارية سيكون له دور محوري في تربيتي كمسلمة. انه مجمع لانزداون سنتر Lansdowne Centre وسرعان ما كانت الأسماء المتألقة على اليافطات الخارجية لمؤسسي ريتشموند من الاسكتلنديين ـ أمثال بريغهاوس Brighouse وماكنير McNair وبرنت Burnett وستيفنسن Stevenson تتزاحم من أجل لفت الانتباه مع كلمات باللغات الهندية والبنجابية والاوردية والصينية بشقيها الماندارن والكانتونية ، والكورية واليابانية. كانت هذه اللغات تغطي داخل مركز ابردين Aberdeen Centre الذي شُيد بعد سنوات واعتُبر "أكبر مجمع أسواق آسيوي مغلق في أميركا الشمالية"(٢).

قبل ذلك بزمن طويل كنتُ توصلتُ الى أن مكانا مثل ريتشموند يمكن أن يحتضن عمليا كل من يبدي روح مبادرة. ففي الصف العاشر رشحتُ لرئاسة الاتحاد الطلابي في مدرسة جي. أن. برنت الثانوية J. N. Burnett Junior Secondary School. وقبل ذلك بعام كنتُ قد فشلتُ في محاولتي لأكون ممثلة طلاب الصف حيث أدلى بالصوت الحاسم ضدي مشاغب قذر لا يريد أن تكون "نكرة من باكستان" Pakiمسؤولة صفّه. بعد عام لا أكثر قرر غالبية الطلاب في المدرسة برمتها ان تكون هذه "النكرة من باكستان" قائدتهم المنتخَبَة حسب الأصول. في ريتشموند لم يكن على العنصرية أن تطوِّق طموحاتي اكثر

مما كان على العرق نفسه أن يحدد هويتي.

بعد أشهر قليلة على انتخابي رئيسة للمنظمة الطلابية كان نائب مدير مدرستي ماراً بالخزانة التي احفظ فيها متعلقاتي فتوقف مذهولا عندما لمح ملصقا للثوار الايرانيين وضعتُه داخل الخزانة. كان الملصق الذي أرسله عمٌّ لي في فرنسا يصوِّر نساء ملحفات بالشادور الأسود وهن يحطمن جناحي طائرة رُسم على الجناح الأيسر منها شعار المطرقة والمنجل السوفياتي وعلى الجناح الأيمن خطوط العلم الأميركي ونجومه.

حذرني نائب المدير قائلا "أن هذا ليس لائقا. أنزليه".

أشرتُ الى الخزانة المجاورة التي كان علم أميركي يتدلى منها وسألتُ "إذا كان بمقدور هذه الفتاة ان تعبر عن رأيها علنا لماذا ليس بمقدوري أنا أن افعل ذلك؟"

أجاب نائب المدير: "لأنك تحطّين من قيمنا الديمقراطية. وبوصفِكِ رئيسة الطلاب كافة عليكِ أن تكوني أكثر حكمة من أن تفعلي ذلك".

أعترف بأني لم أدرك ان نظام آية الله الخميني كان يَقْطُرُ توتاليتارية. لم أكن على إطلاع كافٍ. فانا إذ أغوتني الدعاية من جهة والاعتزاز بالحياة في مجتمع حر من الجهة الأخرى ، أردتُ أن أُنادي بتنوع الآراء لكي لا تحجب ألوان العلم الأميركي ما هناك من ألوان أخرى. تلكم كانت مُحاجَّتي. "أأنا الذي يحطُّ من الديمقراطية؟ كيف يكون دعمكم للديمقراطية بأن تقولوا لي ان ليس في امكاني التعبير عن موقفي ولكن "سواي يمكن لهم" ، مشيرة الى الخزانة الملفوفة بالعلم"؟

كنا نحدق في وجه أحدنا الآخر. قال نائب المدير ، "إنكِ تقدِّمين مثلا سيئا". ثم شدَّ جذعه ومضى في سبيله.

لابد من الاعتراف له بفضل السماح لتنوع الآراء بالبقاء والاستمرار في مدرسة برنت الثانوية. ومما يزيد الاعجاب به انه من معتنقي المسيحية الانجيلية. وهو لم يخفِ معتقداته الشخصية لكنه ما كان ليفرضها على الطلاب ـ ليس حين كانت رئيسة المجلس الطلابي تبدو من مؤازري ثيوقراطية الخميني ، ولا حتى عندما تحرك الطلاب مطالبين بأزياء مدرسية تكشف من السيقان أكثر مما كان في نظره معقولا. وبعد نقاش ساخن معنا وبعض المماطلات المتعمدة استراتيجيا رضخ لمطلب الزي القصير حانقا لكنه حافظ على احترامه لإرادة الجماهير. كم من المتزمتين المسلمين تعرفون سيتخذون موقفا متسامحا مع التعبير عن وجهات نظر تكدِّر نفوسهم؟ بالطبع كان على نائب مدير مدرستي أن يتراجع عن موقفه

ملتزما بنظام المدارس الحكومية ولكن مثل هذا النظام لا يمكن أن ينهض إلا نتيجة إجماع على أن البشر على اختلاف معتقداتهم وأصولهم وتطلعاتهم ومواقعهم ينبغي ان يتباروا مع بعضهم بعضا. فكم من البلدان المسلمة تطيق مثل هذا التنافس؟

يا إلهي كم أحببتُ هذا المجتمع. أحببتُ فيه أنه كان يبدو في بحث دائم عن اجابات نهائية لا علم لأحد بها بعد ـ إن كانت هناك إجابات كهذه. أحببتُ فيه أن لمساهمات الأفراد أهميتها في عالم لا يني يتجدد.

ولكن في البيت كانت قبضة والدي الجاهزة دوما تتكفل بطاعة اسرته لقواعد منزلية اعتباطية. **لا تضحك عند تناول الشعاء. عندما اسرق**

مدخراتك تخرس أنت. عندما أركل عجيزتك تذكَّر أن الركلة ستكون أقسى في المرة القادمة. عندما أنهال على أمك بالضرب لا تطلب الشرطة. وإذا جاءوا سأقنعهم بالعودة أدراجهم وانتم تعلمون ان هذا ما سيفعلون. وما أن يغادروا سأقلع أذنك. وإذا هددت بإخطار الخدمات الاجتماعية سأبتر الأذن الأخرى.

المرة التي طاردني فيها والدي بسكين حول الدار أفلحتُ في القفز من نافذة غرفتي والمبيت على السطح. لم تكن لدى أمي فكرة عن حالي لأن نوبة عملها لدى شركة طيران لم تكن تنتهي إلا في الساعات الأولى من الصباح. سيِّان ، فأنا لستُ متأكدة من أني كنتُ سأزحف نازلة نتيجة وعد لي منها بالأمان. كنتُ أحب السطح للسبب نفسه الذي دفعني الى حب مدرستي وكنيسة روز شارون المعمدانية ، وبعد سنوات ، مجمَّع اسواق ابردين سنتر. فهي نوافذي التي كنتُ أطل منهاُ على عالم من الاحتمالات المفتوحة. في عالم مسلمي شرق أفريقيا الذي تحدرتُ منه هل كان مباحا لي أن أحلم بتعليم رسمي؟ بالحصول على منحة دراسية؟ بالمشاركة في منافسات سياسية ، ناهيكم عن تولي منصب من جرائها؟ بناء على الصور الفوتوغرافية المحبَّبة بالابيض والأسود التي أظهر فيها وأنا في سن الثالثة

ألعب متقمصةً دور العروس ، رأسها مبرقع ، ويداها معقودتان، وعيناها خفيضتان وساقاها متدليتان من الأريكة ، لا أملكُ سوى التهكن بأن تراتبية لا هوادة فيها كانت ستكون مآلي لو بقيتُ داخل أسوار اوغندا المسلمة. ما رأيكم في مثل هذا الفهم العميق لما هو بديهي؟

السؤال الأكبر هو لماذا كانت الأوتوقراطية خيار المدرسة الدينية الإسلامية في ريتشموند ، التي فتحها مهاجرون في بلاد الحقوق

والحريات هذه؟ فمن سن التاسعة حتى سن الرابعة عشرة أمضيتُ كل يوم سبت في تلك المدرسة. كانت الحصص تُنظَّم في الدور العلوي لجامع حديث البناء أشبه ببيت ضخم من بيوت الضواحي منه بالعمارة الشرق اوسطية. ولكن في الداخل كان الإسلام المتزمت هو السائد في كل ركن. كان الرجال والنساء يدخلون الجامع من بابين مختلفين ويتخذون أماكنهم على الجانب المحدَّد لكل جنس من جدار أصم يشطر المبنى الى نصفين يُحجَر فيهما كلا الجنسين خلال التعبد. وشُيد في هذا الجدار باب يربط جانبي الرجال والنساء. كانت لهذا منافع عملية بعد أداء الشعائر عندما يطالب الرجال بمزيد من الطعام الذي يُعد في المطبخ الجماعي وذلك بمد صحونهم من خلال الباب ثم الطرق على الجدار والانتظار لحظات لا أكثر قبل ان تمتد ذراع امرأة مقدِّمة الصحون عامرة من جديد بالأكل. في الجامع لم يتعين ذات يوم على الرجال أن يروا النساء ، ولم يتعين ذات يوم على النساء أن يكنَّ مرئيات. وإذا كان هذا لا يعني الحكم علينا بحياة بائسة فثمة شيء كبير لا افقهه.

كانت المدرسة الدينية الإسلامية في الدور العلوي بديكورها الكئيب من البُسط ذات اللون البني الكابي والمصابيح الفلورية المشعة والحواجز المتنقلة التي تفصل البنات عن البنين. وحيثما كان الصف يلتئم بتلاميذه وتلميذاته في فضاء تلك الغرفة الفسيح كان حاجز يُنقل معهم. الأسوأ من ذلك كان الحاجز بين العقل والروح. وفي دروس يوم السبت التي كنتُ أحضرها تعلمتُ أن مَنْ كان روحانيا

لا يفكر وإذا فكر فهو ليس روحانيا. وقد اصطدمت هذه المعادلة التبسيطية بما في داخلي من فضول منعش كانت ريتشموند تداريه. سمُّوه صِدام الحضارات الذي كان يعتمل في نفسي.

الحل لم يكن الإقرار ببساطة بأن هناك عالما علمانيا وآخر غير علماني ، وان لكل منهما طُرُقَه في التعبير عن كينونته. فعملا بهذا المنطق كان على كنيسة روز اوف شارون المعمدانية ، اللاعلمانية قطعا ، أن تقمع ما لدي من اسئلة ولكن بدلا من ذلك كان فضولي مدعاة لإطرائي. وفي مدرسة برنت الثانوية ، وهي مدرسة علمانية ، كانت اسئلتي تصعِّد دم نائب مدير مدرستي الى درجة الغليان ولكن أحدا لم يعمد الى إسكاتي. ففي المكانين على السواء كانت السيادة لكرامة الفرد. تلك لم تكن هي الحال في المدرسة الدينية الإسلامية. فقد دخلتُ مبنى المدرسة وأنا ارتدي شادورا أبيض من البوليستر وغادرتُ بعد ساعات وشعري مكبوس وروحي مسحوقة كأن مانع الحمل الرجالي العملاق الذي غطيتُ به رأسي حصَّنني على الوجه المطلوب ضد أي نشاط فكري "غير مأمون".

قبل أن أنشرُ مزيدا من الغسيل دعوني أخصُّ بشيء من الإنصاف معلمي في المدرسة الدينية الذي سنطلق عليه اسم "السيد خاكي". فقد كان مسلما مؤمنا بحق. وكان هذا الأخ النحيل ذو اللحية المشذبة بدقة (تعبيرا عن الطهارة) والسيارة من طراز "هوندا ميني كومبامت" (إشارة الى التواضع) يتبرع بخدماته في نهاية كل كل اسبوع (دليلا على الصَدَقة) لتسليح اطفال المهاجرين المسلمين بتربية دينية من دونها سيقعون ضحيةً لإباحية القيم في بلد متعدد الثقافات. وما هذه بالمهمة السهلة لأن المدرسة الدينية كانت تجتذب تلاميذ من كل الفئات العمرية: يافعون شديدو الوعي بذاتهم ، يصارعون حبَ الشباب ، ونماذج مقهقهة ، تحتمي بدورة المياه ، ومراهقون نبتت عليهم شوارب ـ وهؤلاء هم البنات فقط. كلا فإني امزح....بشكل ما.

غالبيتنا كانت تنظر الى المدرسة لا بوصفها مكانا لطلب العلم بقدر ما كانت بركة لاصطياد مَنْ سيكونوا اصحابنا لاحقا. ولأن البنات ذوات اللسان الطويل لن يُكتب لهن الزواج فان صديقاتي نادرا ما كنَّ يجادلن السيد خاكي. فماذا كانت مشكلتي؟ ألم أكن أريد الزواج ذات يوم؟

لا تستفزوني. كانت مشكلتي الآتي: إذ كنتُ مفتونة بذلك العالم متعدد الألوان خارج المدرسة الدينية فقد أصريتُ على التعلم لا التمذهب.

بدأت المتاعب مع "اعرف اسلامَك" *Know Your Islam* ، وهو كتاب ابتدائي كنتُ احشوه في حقيبتي المدرسية كل اسبوع. وبعد قراءته كنتُ بحاجة الى أن أعرف المزيد عن إسلامـ"ي". لماذا يتعين على الفتيات أن يلتفتن الى أساسيات مثل الصلاة خمس مرات في اليوم ، في عمر أبكر من الأولاد؟. لأن البنات ، كما أخبرني السيد خاكي ، ينضجن في وقت أسرع. وهن يبلغن "السن الإلزامي" للممارسة في التاسعة بالمقارنة مع سن الثالثة عشرة للأولاد.

سألتُ ، "إذاً ، لماذا لا نُكافأ نحن البنات على نضجنا هذا بالسماح لنا بإمامة الصلاة؟"
"لا يمكن للبنات أن يَئمَّن الصلاة"
"ماذا تعني؟"
"ليس مسموحا للبنات".
"لمَ لا؟"
"الله يقول ذلك".
"ما هي أسبابه؟"
"اقرأي القرآن".

حاولتُ القرآءة رغم الإحساس بالافتعال لأني لا أعرف العربية. هل اراكم تهزون رؤوسكم؟ غالبية المسلمين ليس لديهم أدنى فكرة عما نقول عندما نتلو القرآن بالعربية. وليس السبب أننا أغبياء بل لأن العربية واحدة من أكثر لغات العالم موسيقية ، والدروس الأسبوعية في المدرسة الدينية لا تتيح لنا استيعاب خفاياها. فان كلمة "حرام" مثلا يمكن أن تُشير الى شيء محرَّم أو "الحَرَم" بمعنى الشيء المقدس حسب التشديد على حرف الراء. المحرَّم في مواجهة الحرَم: ان الحديث لا يجري هنا عن تحولات دقيقة في المعنى. اضيفوا الى التحديات المتأصلة في هذه اللغة حقائق الحياة. وهي في حالتي أب عنيف يمارس الدين من باب المظاهر في الغالب وأم تفعل ما بوسعها لأن تكون تقية فيما هي تسعى الى إعالة الأسرة بالعمل في نوبات. ولكم أن تقدروا لماذا تخلفتْ دراسة العربية عن أن تكون من أولويات العائلة. وبصراحة فان رد السيد خاكي المبتذل على اسئلتي ـ اقرأي القرآن ـ كان مهلهلا مثله مثل شعري المستور بالشادور.

بمرور الزمن تمخض هذا الرد بأن أقرأ القرآن عن مزيد من الاسئلة: لماذا عليّ أن اواصل اكذوبة قراءة القرآن إذا لم تكن هذه القرآءة ذات معنى عملي ولا تلامس أي وتر عاطفي؟ لماذا يجب ان نرتاب ظنا بأن كل ترجمة انجليزية للقرآن "تُفسد" النص الأصلي؟ قصدي أنه إذا كان القرآن كتابا مفتوحا كما يقول لنا الصفائيون فلماذا لا تُترجَم تعاليمه بسهولة الى ألف لسان آخر؟ وأخيرا ، لماذا تلاحق الوصمة الذين لم يُفطموا منا على العربية رغم الحقيقة الماثلة في أن العرب يشكلون ١٣ في المائة فقط من مسلمي العالم؟ ويعني هذا أن ٨٧ في المائة منا ليسوا عربا. "أعرف إسلامَك" ، كما يقولون بكل خفة. إسلام مَنْ؟ أهذه ديانة أم باطنية؟

حسنا ، لنتوقف برهة.

لنأخذ سؤالي الأصلي الى السيد خاكي: لماذ لا يمكن للفتيات أن يئمَّن الصلاة؟ لقد حاولتُ استطلاع مكتبة المدرسة الدينية معتقدة بأن إجابة القرآن ستكون مكرَّرة في كتاب آخر يعينني على اكتساب ذرة من الفهم. ولكن اتضح ان ارتياد المكتبة رحلة محفوفة بالأهوال. إذ كانت المكتبة سلسلة من الرفوف تقع في نهاية السلَّم على الجانب المخصص للرجال من الجامع ـ الجانب المحظور على السيدات من دون موافقة مسبقة. ولأني كنتُ في الحادية عشرة وفي "السن الإلزامي" ، لم يكن بمقدوري التخالط مع ذكور بالغين فكان علي أن أُقنع صبيا قاصرا ـ في الثانية عشرة أو اصغر ـ للصعود نيابة عني واستحصال موافقة تجيز لي تصفح الكتب في أي وقت. وعلى افتراض حصولي على الضوء الأخضر فقد كان على جميع الرجال ان يغادروا المكان قبل أن أتمكن من صعود الدرج وتقليب مجموعة الكراسات الرخيصة المرصوفة على الرفوف. كان وقتي ، بالطبع ، محدَّدا بصرامة لأن الرجال ينتظرون العودة الى فضائهم. أفلحتُ في استعارة بعض الكراسات كل مرة ولكن مضامينها كانت أقرب الى الطلاسم ، ولا أدري في أي مدرسة تعلَّم مؤلفوها. عامان من المراوغة داخل الجامع اثبتا عدم جدواهما. وفي سن الثالثة عشرة أدركتُ ان عليّ الإلتفاف على السيد خاكي والمدرسة الدينية للتوصل الى إجابة عن سؤالي.

أصبحتُ من القوارض المقيمة في مجمع الأسواق التجارية. مهمتي؟ اقتفاء نسخة من القرآن باللغة الانجليزية. وكان مجمع لانزداون بمستوى المهمة ، فبارك الله سوق المعتقدات في مدينتي. لعل حرية المعلومات كانت ستخيف السيد خاكي ولكن هذه الحرية على وجه التحديد هي التي اتاحت لواحدة من تلاميذه أن تعثر على معنى أكبر في دينها ـ معنى

ما كانت المدرسة الدينية لتقدمه.

ماذا تعلمتُ عن السبب في عدم تمكن الفتيات من أن يئمَّن الصلاة؟ لا استطيع أن اقول لكم الآن ، لأنه حتى إذا قدم الملالي ومعلمو المدرسة الدينية إجابات تبسيطية فان القرآن لا يقدم مثل هذه الاجابات. ما أستطيع ان اقوله لكم هو أني ما بين الانتخابات والبروفات المسرحية والوظائف التي عملتُ فيها ساعات محدودة وتمارين الكرة الطائرة ـ حتى دخولي الجامعة وأثناء دراستي الجامعية وبعد التخرج من الجامعة ـ درستُ كتاب الله وفي ذهني "مسألة المرأة" على رأس كل الأفكار. وأنا ما زلتُ أقرأ. ولكن الكشف عما خلصتُ اليه في هذه المرحلة سيكون قفزة الى حياتي بعد سن البلوغ. وعليَّ ، اولا ، ان أتناول شيئا آخر.

اليهود. انه السؤال الآخر الذي كان يقلقني خلال سنواتي في المدرسة الدينية لأن اليهود كانوا هدفا ثابتا للذم. كان السيد خاكي يعلّمنا والجدُّ باد على محيّاه أن اليهود يعبدون المال ولا يعبدون الله ، وان وثنيتهم ستلوث ايماني إذا خالطتهم. فتساءلتُ أي كوكب هذا الذي يسكنه السيد خاكي؟ أكان يتعمد العمى عما يحيط بنا؟ فان ريتشموند ، وهي ضاحية تحت مستوى البحر ، كان احتمال غرقها في محيط من نفوذ الآسيويين التجاري أكبر من انهيارها تحت أي جبل من المال الذي يمكن ان يكدِّسه اليهود. وإذا كان في ريتشموند معبد يهودي واحد وقتذاك فأنا لم أكن على علم به.

ولكن من جهة اخرى ربما كنتُ عميلة من عملاء سطوتهم الشبحية لأني أفلحتُ بكل تأكيد في تعطيل دروس التاريخ التي كان السيد خاكي يعطيها بعاطفة متقدة من خلال طرحي أسئلة عن اليهود. وأذكر سؤالي لماذا كان النبي محمد سيأمر جيشه بإبادة قبيلة يهودية عن بكرة أبيها في حين

المفروض ان القرآن نزل عليه رسالةً من أجل السلام. السيد خاكي لم يعد قادرا على التحمل فرمقني بنظرة ازدراء ولوَّح بيده علامة انزعاج ثم أوقف درس التاريخ للانتقال الى دراسة القرآن. ما كان هذا ليحدث لولا الحاحي بالسؤال.

بعد عام على شراء نسختي الانجليزية من القرآن وصلنا أنا والسيد خاكي الى طريق مسدود. إذ ما من شيء قرأته حتى ذلك الوقت أقنعني بوجود مؤامرة يهودية. أعترف بأن عاما فترة بالكاد تكفي لهضم القرآن ، وفي سن الرابعة عشرة لا يزال ثمة الكثير من النضج العقلي الذي يتعين بلوغه. ولم يكن بوسعي تماما صرف محاضرات السيد خاكي في معاداة السامية. فمن أنا حتى أحكم بأن الهراء ينز من كل مساماته قبل ان تتوافر عندي كل الأدلة؟ لذا تحديتَه أن يقدم برهانا على المؤامرة اليهودية. ولكن ما قدمه كان انذارا نهائيا: اما أن اصدِّق أو أُغادر المكان ، وإذا غادرتُ فهي مغادرة بلا رجعة.

أحقا ذلك؟ أهذه هي النهاية؟
هذه هي النهاية.

نهضتُ والدم يغلي في عروقي والعرق يتصبب من رقبتي تحت الشادور الذي يسبب الحكة لخشونة قماشته المصنوعة من مادة البولستر. وحين اجتزتُ الخط الفاصل عند الحاجز كان بمقدوري ان أكشف عن رأسي ليراه جميع الصبيان ولكني لم أرد المجازفة بالتعرض الى مهانة الطرد على يد السيد خاكي الذي كان حتى أكثر مني تأثرا بالفضيحة. كل ما استطعتُ التفكير في عمله هو فتح باب المدرسة الدينية الحديد ، الثقيل ، والصراخ ، "بحق اليسوع المسيح!". مغادرة مشهودة على ما كنتُ آمل. ولم أدرك كم كانت مشهودة إلا لاحقا. فقد كان المسيح يهوديا!

أتتساءلون لماذا ، بعد طردي من المدرسة الدينية ، لم ألعن الدين كله وأمضي الى الاحتفاء بروحي الشمال اميركية "المعتوقة"؟ من ضمن الأسباب أن حُكم الهوية

فَعَلَ مفعوله. وأنتم تعرفون ما أقصده. فان غالبيتنا نحن المسلمين لسنا مسلمين لأننا نفكر في الأمر بل لأننا نولد هكذا. والسؤال هو "مَنْ نكون!"

نهاية أيامي في المدرسة الدينية أحرجتْ والدتي ولكنها عاشت معي زمنا أطول من ان يؤدي بها الى الاعتقاد أن بامكانها أن تأمرني بالخنوع طلبا للمغفرة من السيد خاكي. كان ذلك غير وارد بالمرة. ولا هي أكرهتني على الذهاب الى الجامع معها. ولكن لمدة عامين من الزمن كنتُ في الحقيقة اتردد على الجامع. فلقد كان المكان الوحيد الذي ظل مفتوحا لي على خريطة إسلامي الهش. أحببتُ الله ولم أكن بصدد تحميل الجامع وزر خطايا المدرسة الدينية ـ حتى توصلتُ شيئا فشيء الى الادراك بأن المدرسة الدينية التي أمقتها هي امتداد للجامع. ولعل التردد على الجامع أتاح لي تحديد هويتي كمسلمة ولكنه اجبرني ايضا على التضحية بذلك الجزء الذي لا يقل قدسية من هويتي: الانسان المفكر.

دعوني أروي لكم حكاية أخرى. فان من اركان الإسلام الخمسة ، الزكاة. لذا ساد الجو ذات مساء همس من الاستحسان عندما أعلن المكبر على الجانب المخصص للنساء من الجامع ، هاتفا بصوت الملا على الجانب المخصص للرجال ، عن تنظيم حملة لجمع التبرعات من أجل اخوتنا المسلمين وأخواتنا المسلمات في الخارج. وكان علينا إعداد الشيكات في غضون أيام قليلة. وخلال تلك الفترة سألتُ عضوا في فريق السيدات المساعدات أين ستذهب هذه التبرعات. فذكرت لي منظمة إسلامية ذات

اسم كلاسيكي ثقيل. سألتُها لأي غرض سوف تُستخدَم الأموال فأجابت لإطعام اخوتنا واخواتنا المسلمين. وإذ تذكرتُ تقارير تلفزيونية عن اتهامات بالاحتيال وُجهت الى منظمات خيرية مسيحية سألتُ كيف نعرف ان التبرعات ستؤول الى الجهة التي نقصدها. فردت بنزق ، "انها ستذهب الى المسلمين وهذا كل ما تحتاجين الى معرفته".

هل تصدِّقون؟ أنا لم أُصدِّق. خلافي لم يكن مع الزكاة وانما مع اكتناز المعلومات. لماذا أشعرُ بالاطمئنان لمجرد أن اشخاصا يسمُّون أنفسهم مسلمين سيتلقون تبرعاتي؟ هل أن كل مسلم يعمل من أجل المعروف بحكم كونه مسلما؟ يا له من ايمان. أين هي الجريمة في استفساراتي؟ أم أن الاستفسارات نفسها هي الجريمة؟ والدتي المحاصرة لم تبدُ في صدمة تماما عندما شرحتُ بأني لم استطع الإسهام في تبرع العائلة لأنه مَنْ ذا الذي يكترث في الواقع أي ديانة يعتنقها الجائع ، فضلا عن احتراسي من تمرير مشروع الحملة علينا. قلتُ ان صَدَقاتي ستذهب بدلا من ذلك الى منظمة خيرية غير دينية سأتحرى عن مصداقيتها.

كلما شعرتُ بأن الجامع أقرب الى المدرسة الدينية تناقص ترددي عليه. وبدأتُ في تفكيك مركزية ديانتي منميَّة علاقة شخصية مع الله عوضا عن الافتراض بوجد واسطة بيني وبينه من خلال الجماعة. وبهذه الروح رحتُ أصلي بتوحد راكعة بمفردي (٣). كل يوم على امتداد سنوات كنتُ استيقظ في ساعة مبكرة واقصد مرتجفة غرفة حمام بلا تدفئة ـ والدتي اللاجئة كانت تؤمن بوجود فواتير منخفضة بقدر ايمانها بوجود قوة عليا. وبعد الوضوء كنتُ افرش سجادتي المخملية وأصوّبها باتجاه مكة وأضع التربة العربية التي ستلامسها جبهتي وأقضي الدقائق العشر التالية في الصلاة. انها تمرين في بناء الانضباط لا سيما وان المرء يغتسل مرتين اخريين في اليوم ويؤدي الصلاة اربع مرات أُخر.

ولكن الممارسة كلها في غسل اجزاء موصوفة من الجسم وتلاوة آيات بعينها والجثو بزاوية لا تحتمل المساومة ، كل ذلك في أوقات محدَّدة من اليوم ، يمكن أن تنحدر الى خضوع لا يقره العقل ـ والى استسلام مكرَّس بقوة العادة. وإذا لم تروا هذا النزوع لدى الآباء أو الأجداد فانكم يا أصدقائي تنتمون الى صنف نادر من المسلمين. أدركتُ أن ما بدأ دليلا الى مخافة الله أصبح ترديدا رتيبا حملني على الاستعاضة عن "روتين" الصلاة عندي بشيء أقرب الى الوعي الذاتي:

أحاديث صريحة غير مصطنعة مع خالقي طوال اليوم. قد يبدو هذا خارجا عن المألوف ولكني استطيع على الأقل أن اقول ان تلك الكلمات كانت كلماتي أنا.

ما كان التخلي عن الإسلام جملة وتفصيلا والتبرؤ من هويتي المسلمة ليشكل تلك الطفرة الكبيرة وقتذاك. أتعرفون ما الذي منعني من الأقدم عليها؟ الوفاء للإنصاف. فلقد آمنتُ دائما بإنصاف الإسلام لأن الاستحقاق ينبغي ان تكون له أهميته ، بحسب مشاعري الغربية. وأنا كنتُ بحاجة الى اكتشاف شخصية الإسلام بدلا من مظهره. ومن باب المقارنة: عندما كنتُ في الثالثة عشرة أو نحو ذلك حضتني والدتي على أن أكون لطيفة مع قريبة لي خبيثة. علَّلت والدتي ذلك قائلة ، أنها جزء من العائلة ، انها من دمنا". وكان ردي ان قرابة الدم لا تعني شيئا عندي. وكان السؤال المناسب هو ما إذا كنتُ سأختار صداقتها في المدرسة لو لم نكن مرتبطتين بصلة قربى. ولكن هيهات مع شخصية كشخصيتها. وبذل مجهود من اجل "محبة" قريبتي سيكون تمثيلية سيئة الإخراج وأنا لدي اشياء أفضل افعلها في وقتي. ورغم ما ابدته والدتي من تفهم فانها لم توافق. إذ كانت الغلبة عندها للعائلة. أما عندي فلم يكن النَسَب معادلا للاستحاق ، بل الشخصية.

طبقتُ المعيار نفسه على الدين. وللبت في ما إذا كنتُ سأُمارس شعائر الإسلام كان علي أن اكتشف حسناته ـ أو عدمها. وكان علي ان اكتشف ذلك لنفسي مستعيضة عن الجامع وتقواه المبَرمَجة ببحثي أنا عن شخصية الإسلام. لعل القرآن حقا يجرد اليهود من انسانيتهم ويحكم على النساء بالخضوع. أو لعل السيد خاكي كان معلّما سيئا. لعل الله يقضي بأن يكون الجميع ناطقين بالعربية. أو لعل ذلك حكم من صنع الانسان لإبقاء غالبية المسلمين تابعين لمن في الأعالي. لعل الخروج عن النص الروحي اهانة للعلي القدير. أو لعلنا نسبح بحمد الله على قواه الخلاقة عندما نستخدم قوانا نحن. ولكن بدون استقصاء البديل فان الانسحاب كان سيبدو هروبا.

النبأ الطيب هو معرفتي بأني عشتُ في رقعة من العالم أتاحت لي امكانية الاستكشاف. وبفضل الحريات المتوافرة لي في الغرب ـ ان افكر وأبحث واتكلم واتبادل واناقش واتحدى وأكون موضع تحدٍ ، وأن اعيد التفكير ـ كنتُ مهيأة للحكم على ديني في ضوءٍ ما كنتُ لأتصوره في العالم الإسلامي المتخلف مجَسدا في المدرسة الدينية. لا ضرورة للاختيار بين الغرب والإسلام بل على العكس ، فان الغرب جعل من الممكن لي أن اختار الإسلام ، مهما كان هذا الاختيار أوليا. وكان بيد الإسلام أن يحتفظ بي في كنفه.

لم أكن مهووسة بالدين ولكن بين الفينة والأخرى كان سؤال يخطر وكنتُ ابحث عن إجابات في المكان الوحيد الذي كنتُ اعتقد بانه يمكن أن يقدم بعضا منها: المكتبة العامة في حقبة ما قبل الانترنت إبان الثمانينات ومطالع التسعينات. كان غالبية ما قرأتُ عن الإسلام ينضح بنبرة الكتب المدرسية. الكثير من المراجع والقليل من المخاطرة. ثم جاء ١٤ فبراير (شباط) ليصدر الخميني في ذلك اليوم فتواه ضد سلمان رشدي صاحب

رواية "الآيات الشيطانية". فان هذه المزحة السمجة في يوم الحب ، كما قال رشدي لاحقا في وصف الفتوى ، طالبت الغربيين بأكثر من أن يحاذروا جماعيا حين يتعلق الأمر بالثيوقراطية. كثيرون في الغرب اتخذوا موقفا ضد حكم الموت الذي قضت به الفتوى ، وسأكون مخاتلةً إن أنا أنكرتُ ذلك. ولكن التعليقات التي تابعتُها في المكتبة العامة بدت قانعةً بمجرد شرح غضب المسلمين ، مبتعدة عن التساؤل ما إذا كان القرآن عفيفا ومقدسا كما أراد ان يوحي لنا به مَنْ خرجوا لإحراق دُمى تمثل الكاتب. ماذا جرى للغرب الذي وقعتُ في غرامه بما يكنه من احترام للأديان على ما فيه من لخبطة فكرية؟ هل أُصيب التعدد الثقافي بالجنون؟

بمعنى حاسم ، هذا ما أظن. وأقول ذلك لأن زيارتي للمكتبة تزامنت مع حقبة ادوارد سعيد ، المثقف العربي الأميركي الذي استخدم في عام ١٩٧٩ كلمة "الاستشراق"(٤) لوصف نزعة الغرب المفتَرَضة الى استعمار المسلمين بأبلَستهم في هيئة مسوخ غريبة من الشرق. وهذه نظرية لها ثقلها بكل تأكيد ولكن أليس تولي الغرب "الامبريالي" نشر كتاب سعيد وتوزيعه وتروجيه شهادة تسطّر مجلدات لصالحه؟

في غضون عقد من الزمن كان سعيد آخر صرعة بين الشباب من الأكاديميين الذين تحولوا ناشطين في أميركا الشمالية واوروبا. وخنقت عبادتهم له ما هناك من أفكار اخرى عن الإسلام. وعندما طلع سلمان رشدي علينا بآياته الشيطانية ، وقف مريدو سعيد على أهبة الاستعداد لشجب كل ما يسيء الى مسلمي التيار السائد على أنه "استشراقي" (اقرأ: عنصري). ومن خبرتي فان المكتبة العامة لم تنج من هذا الزمهرير.

بدأتُ استعيد إيماني بالغرب وبالإسلام على السواء في منتصف التسعينات. وأحمد الله على الانترنت في ذلك. فان هذا الشبكة إذ جعلت الرقابة الذاتية نافلة ـ كان من المحتم أن يقول غيرُك ما لن تقوله أنت ـ أضحت المكان الذي تألق فيه أخيرا مغامرو الفكر ، وأكدوا مجددا ما يجعل الغرب حاضنة أفكار لا تعرف الكلل وإن كانت قاصرة: حب الغرب للاستطلاع ، بما في ذلك استطلاع انحيازاته ذاتها. وفيما كان الناقدون يتحرَّون الإسلام ، أكتشفتُ أنا جوانب مذهلة من ديني.

كم منا يعرف الى أي حد كان الإسلام "هدية من اليهود" (٥). فان وحدة خلق الله وعدالة الله المتأصلة ، والغامضة في أكثر الأحيان ، وكون حياتنا الدنيا وُجدت لغاية ، ولا نهائية الآخرة ـ هذه وغيرها من المبادئ الكبرى للديانة التوحيدية

جاءت الى المسلمين من اليهودية. وقد دوخني هذا الاكتشاف لكونه يفيد بأن لا داعي للمسلمين أن يكونوا غارقين في معاداة السامية ، بل أن لدينا سببا للامتنان الى اليهود بدلا من كرههم.

كما أني لم أُقدِّر ، قبل أن اثقف نفسي ، أن المسلمين يعبدون الإله نفسه تماما الذي يعبده اليهود والمسيحيون (٦). والقرآن يؤكد هذه الحقيقة. ولكن كان عليّ ، صدقا ، أن أقرأ كتابا حديث العهد من تأليف المفكرة الدينية البريطانية كارين ارمسترونغ Karen Armstrong قبل أن تخترق هذه الحقيقة ذهني الذي قولبَتْه المدرسة الدينية (ماذا اقول لكم؟ فان التحرر من البَرمَجة أمر متعدد الإشراقات). تؤكد ارمسترونغ أن النبي محمد لم يدَّع الإتيان بإله جديد للعالم أجمع بل أن رسالته الشخصية كانت إدخال العرب الى أسرة ابراهيم "الرشيدة" ، وابراهيم كان أول نبي نزل عليه الوحي بأن لا إله إلا الله. وأنا خلال سنوات نموي ما سمعتُ

قط اسم ابراهيم يُذكر في درس من دروس التاريخ. وتلك ثغرة صارخة إذا ما علمنا أن ذريته من بعده أنشأت الأمة اليهودية. وإذ كان اليهود أول المؤمنين بإله واحد فهم الذين مهدوا الطريق لظهور المسيحيين ثم المسلمين. وهكذا فان المسلمين ، كما ترون ، لم يخترعوا الواحد الأحد بل أعادوا تسميته ليكون الله ، الكلمة العربية للإله ـ إله اليهود والمسيحيين (٧).

أين في منهج المدرسة الدينية يرد هذا الإقرار؟ كأن شيئا لم يكن قبل الإسلام. ومع ذلك ، إذا كانت كل الخبرة السابقة على الإسلام لا تساوي شيئا فان الأمر نفسه يصح على حشد من مبادئنا كمسلمين. ولو عرف المزيد منا أن الإسلام هو نتاج تواريخ متداخلة لا طريقة حياة أصلية بالكامل ـ إذا ادركنا أننا هجائن روحية ـ ألن يكون المزيد منا على استعداد لقبول "الآخر"؟ بدأتُ اتساءل لماذا نرفض بهذا العناد الإعتراف بوجود مؤثرات خارجية إلا عندما نحمِّل الغرب

مسؤولية جراح كولونيالية شتى. وكان هذا ، بدوره ، يطرح سؤالا أساسيا: هل الإسلام أضيق افقا من بقية أديان العالم؟

ثمة موضوع وظيفته الإفساد والتخريب. إذ ابتداء من سنوات الجامعة فلاحقا ، كلما اتفق أشخاص على اجراء مناظرة حول الجانب اللامتسامح من الإسلام ، كانوا يحذرونني من الخلط بين الدين والثقافة. وقالت امرأة بنبرة استاذية خلال مأدبة عشاء "أن رجم النساء وثيق الصلة بالعادات القَبَلية ولا يمت بأي صلة الى الإسلام". ظلتْ لديّ شكوكي. إذ لو كان الإسلام مرنا لأمكنه التكيف مع ما هو صالح وليس فقط ما هو طالح ، أليس كذلك؟ فلماذا لم يكن في جامعي أي وجه شبه بديمقراطية ريتشموند ـ الديمقراطية ذاتها التي أتاحت للمسلمين أن يشيدوا جامعا هناك؟

لم تكن المسلمة العصرية في داخلي وحدها التي تصطرع مع هذه القضايا. ذلك أن عملي صحافية تلفزيونية ومعلقة كان يضعني في الخطوط الأمامية لتلقي أسئلة الجمهور عن الإسلام. وإذ شاهدوا وجهي على الشاشة الصغيرة في غرفهم فان الناس الاعتياديين لا يشعرون بالتردد في الاقتراب مني في المتاجر والمطاعم وقطارات الانفاق للتعبير عن هاجس أساسي: إذا قررتِ أن تكوني مسلمة تحارب اللحى وتتحدى الشادور ، كان الله في عونك ونجَّاك. ولكن ما دمتِ تختارين التمسك بالاسلام كيف تفسرين كل هذا التعصب تحت رايته؟ بتعبير أدق ، أنهم كانوا يسألون: "هل يُسمح لك بأن تكوني مسلمة ونسوية؟" "ما المطلوب لتحويل مسلم مؤمن الى انتحاري؟" "لماذا لا يرفع مزيد من المسلمين أصواتهم؟" و "كيف أني لم اسمع قط نكتة عن قس أو حاخام أو مُلا؟" ومنذ أن صُفِعتْ بالسؤال المحيِّر الأخير رحتُ أنبش بجد ، وأحسب اني اكتسبتُ بصيرة من جراء ذلك. اسمحوا لي أن أخرج قليلا عن الموضوع.

من تعاليم الإسلام ذات الشعبية ، النهي عن "الإفراط في الضحك" (٨). وما هذه بمزحة. ففي كتيب بعنوان "مشاكل وحلول" *Problems and Solutions* يأتي الشيخ محمد صالح المنجِّد على نص هذا الحكم. وعلى حين انه "ليس من المتوقع أن يكون المسلم عبوسا" لكن الإكثار من الضحك يثبت أننا نحن المسلمين وقعنا فريسة للسحر والفكاهة ، الأمر الذي يُضعف شخصيتنا وينال من ايماننا. وأذكر تحذيرَ عم لي بمحبة ولكن بحزم عشية رأس السنة الجديدة من الضحك عاليا لأن الهلاك سيأتي بعده لا محالة. وهنا يُصيبني عمي والشيخ بالإرباك والتشوش: إذا كان السحر الأسود للضحك مستقبحا الى هذا الحد فلماذا لا يُستجهن التأثير الغنائي المخدِّر للغة العربية لدى التجويد بها عاليا؟ (٩)

بإزاء اللمحة التي القيتُها على هذا الجانب الأخطل من الإسلام لأن أحدهم أعرب عن الأمل بسماع نكتة عن قس وحاخام وملا ، علي أن اقول أني اعشق فضول الجمهور. فعلى امتداد سنوات ، عمل هذا الفضول على تغذية فضولي أنا. وكلما زادت الفرص التي اغتنمتها لأكون في دائرة الضوء رافعة صوتي حول هذه المشكلة الاجتماعية أو ذلك الاتجاه العالمي ، زادت حاجتي الى الآخرين لشحذ ذهني حول سبب تجشمي عناء الارتباط بدين يحتل موقع الصدارة في كل هذا الاحتقان الدولي والعذاب الفردي. من حق الناس أن يسألوا. وان سؤالين بصفة خاصة هزَّا عالمي ـ كلاهما الى الأحسن ولكن ليس من دون ألم في الحالتين.

السؤال الأول هو: "كيف يمكن التوفيق بين المثلية والإسلام؟" فأنا سحاقية بصراحة. وأختار "الافصاح" عن توجهي الجنسي لأني بعدما نشأتُ في بيت تعيس برعاية أب يحتقر الفرح ، لستُ الآن بصدد تخريب الحب المتبادل الذي يمنحني البهجة في سن البلوغ. التقيتُ اولى صديقاتي في العشرينات من عمري ، وبعد أسابيع أخبرتُ أمي بالعلاقة. استجابتْ كعهدي بها أما حنونا. وبالتالي فان مسألة ما إذا كان بمقدوري أن أكون مسلمة وسحاقية في الوقت نفسه بالكاد

كدَّرتني. **فذاك** دين و**هذه** سعادة. وكنتُ أعرف أيهما أحتاج أكثر. واصلتُ حياتي أدرس الإسلام بصورة متقطعة ، وأتعلم الفن الجميل لإقامة علاقات مع النساء (موضوع كتاب آخر بحد ذاته) ، وأنتج برامج للتلفزيون ، وأعيش على العموم الحياة متعددة الاتجاهات لشابة في العشرين ونيف في أميركا الشمالية.

وعندما جعلني عملي في التلفزيون شخصة عامة أكثر شهرة ، تطور أملي في التوفيق بين مثليتي والإسلام الى واحد من انشغالاتي. وكان

المشاهدون يريدون مني أن أُبرر حالي الاستثنائية في الجمع بين هويتين. وقد دُفعتُ الى نوبة حادة من المراجعة بل راودتني حتى امكانية التخلي أخيرا عن الإسلام من أجل الحب. إسمعوا ، أي حافز أفضل من هذا الحافز للتضحية بأي شيء؟ ولكني كلما أصل الى حافة إقصاء نفسي كنتُ أتراجع ، لا بدافع الخوف وانما من باب الإنصاف ـ إنصاف نفسي. وكان سؤال واحد يتطلب مزيدا من التفكير: إذا كان الله العليم القدير لا يريد أن يجعلني سحاقية فلماذا خلقني سحاقية؟ هل خلق أحدا آخر بدلا مني؟

التحديات العدائية لـ"تبرير نفسي" اصبحت حدثا يكاد يكون يوميا بعد عام ١٩٩٨. ففي ذلك العام بدأتُ استضيف برنامج "تلفزيون شاذ" *Queer Television* ، وهو مسلسل تلفزيوني يُبث على الانترنت ايضا عن ثقافَتَي المثليين والسحاقيات. وكان البرنامج يتعلق ببشر مثلنا بعيدا عن الإباحية والخلاعة ومع ذلك فان مسلمين أتقياء انضموا الى أصوليين مسيحيين في الاحتجاج ضد ظهوري على شاشات تلفزيوناتهم. وفي الواقع أني ما كنتُ أتوقع أقل من ذلك ، ولكن هل كنتُ من السذاجة كي أتوقع أكثر قليلا من ذلك ـ مناظرة بدلا من مجرد الإدانة.

صدقوني ، حاولتُ أن أفتح حوارا. وبوصفي من محبي التنوع ، بما في ذلك تنوع زوايا النظر فاني لم استهن ذات يوم برسائل خصومي بل في الحقيقة كنتُ

ابثها بانتظام في البرنامج. ومن الأمثلة على ذلك الرسالة التالية: "أكتبُ لابلاغكِ أن الله الواحد الأحد الحقيقي ، إله الكتاب المقدس ، يجعل من الواضح الى حد الألم أن اللواطيين كافة (المقصود هم "المثليون" أو أشباههم من المنحرفين) قد تخلوا عن انسانيتهم من أجل شهواتهم الدنيئة

، الفاسقة ، الشريرة. وبذلك اضحوا مخلوقات بغيضة لم تعد انسانية ، وينبغي اعدامهم على الفور بحسب سِفري اللاويين والتثنية..."

المسلمون الكثار الذين اتصلوا ببرنامج *Queer Television*وراسلوه بالبريد الالكتروني اتفقوا مع هؤلاء المسيحيين. (باستثناء الجزء المتعلق بالله الواحد الأحد الحقيقي وتجييره لحساب الكتاب المقدس حصرا). ولكن ما من مسلم واحد واجه التحدي المضاد الذي طرحته عليهم دعوتي المتكررة الى الحوار: كيف يمكن للقرآن ان يستنكر في آن واحد المثلية ويعلن أن الله يخلق كل شيء على أحسن تقويم (١٠). كيف يفسر مَنْ ينتقدونني حقيقة أن الله ، حسب الكتاب الذي يلتزمون به التزاما صارما ، خلق عن سابق إصرار ما في العالم من تعددية أخَّاذة؟ (١١) ان السؤال الذي يضع المثلية في مواجهة الإسلام كان امتحانا لإيماني دون ريب. ولكن إمعان التفكير فيه جعلني أدركُ ان الحوار المتعافى أمر ممكن لو أبدينا من الاهتمام بما قد يكون موقف الله أكثر من اهتمامنا بموقفنا نحن.

والآن بالنسبة للسؤال الثاني الذي وعدتُكم بالحديث اليكم عنه. فقد طُرح عليّ قبل أشهر قليلة من ١١ سبتمبر (ايلول) ، وأدى الى أكبر اختبار لإيماني.

في ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٠ وصل ظِرف من داخل المكتب الى منضدتي في استوديوهات "تلفزيون شاذ". كان الظرف من مديري ، موسيس زنايمر Moses Znaimer . وإذ كنتُ في عجلة لانجاز أكبر عدد ممكن من حلقات البرنامج بحلول عطلة عيد الميلاد ، شعرتُ فورا بأني مستنزَفَة وبحاجة الى ما يلهيني.
ففتحتُ الظرف وأخرجتُ قصاصة جريدة مادتها الرئيسية تقرير موجز من وكالة الصحافة الفرنسية:

١٨٠ جلدة لفتاة مارست الجنس بالإكراه(١٢)
ـ تسافي (نيجيريا). ذكرت عائلة فتاة حامل في السابعة عشرة من العمر حكمت عليها محكمة إسلامية بـ ١٨٠ جلدة لممارستها الجنس خارج رباط الزوجية ، أنها ستضع مولودها في غضون أيام.
وقالت بارية ابراهيم مغازو امام المحكمة في سبتمبر (ايلول) أنها أُجبرت على ممارسة الجنس مع ثلاثة رجال من اصحاب والدها. واستدعت الفتاة سبعة شهود. وقالت أسرة الفتاة أن من المنتَظر ان تلد في غضون يومين ومن المتوقع ان تنال عقابها بعد ٤٠ يوما على الأقل. (و ص ف)

وبحبر أحمر قانٍ رسم موسيس دائرة حول كلمة "اسلامية" وشدد مرتين على الرقم ١٨٠ وكتب تعليقا على الهامش باسلوب تلمودي قال فيه:

إرشاد
في يوم من الأيام
ستقولين لي
كيف توفّقين
بين هذا النوع
من الجنون
وتشويه أعضاء الأنثى
التناسلية
مع عقيدتك
الإسلامية.
م

يا ويلي. ألا يكفي ان مشاهدي برنامج *Queer Television* كانوا يحضونني على الاختيار بين توجهي الجنسي وتوجهي الروحاني؟ هل كان لزاما على مديري أن يثقل كاهلي اخلاقيا كذلك؟ وخاصة في وقت حافل بالمواعيد المضنية التي عليّ الالتزام بها.

نحيتُ الظرف جانبا وواصلتُ العمل لحساب هذا الرجل. ولكن خلال الساعات التالية اهتز ضميري بما طرحه موسيس من تحدٍ. وأحسبُ أن الشيء نفسه كان سيحدث لكم. فان قصة هذه الشابة التي راحت ضحية جريمة اغتصاب لا بد أن تلاحق كل انسان شريف لأنه أيا تكن تفاصيل قضيتها فان حقيقة واحدة مما ورد ما كان ليمكن تبريرها بأي حال من الأحوال: أن هذه المرأة التي انتُهكت كرامتها حرصت على جمع سبعة شهود ، نعم سبعة! ومع ذلك واجهت حكما بأن تنال ١٨٠ جلدة! كيف بحق الجحيم يُنتظر مني أن أُوفق بين مثل هذا الظلم الصارخ وعقيدتي الإسلامية؟

كنتُ اعتزم مواجهة السؤال من دون لف ودوران ، لا بموقف دفاعي ولا بالنظريات بل بأمانة مطلقة. وقبل أن يختض كثير من العالم بما حدث في ١١ سبتمبر (ايلول) بأقل من عام ، تهيأتُ لولوج الفصل التالي من حياتي كمسلمة رافضة.

هوامش الفصل الأول

١ ـ على غرار كتاب "مائة قصة وقصة من الكتاب المقدس" *Bible Stories 101* هناك الآن كتاب "أحسن القصص القرآنية" *The Best Quranic Stories* من تأليف كمال سيد. اذهب الى الموقع www.fadabooks.com وانقر على Books for Children .

٢ ـ البرت ورسن Albert Warson في موضوع حول :لقاء الشرق والغرب في سوق تجارية جديدة" اشار فيه الى اعادة بناء المركز الآسيوي في بريتش كولومبيا بالكامل لاجتذاب مزيد من الزبائن. صحيفة غلوب اند ميل
Globe and Mail ، 10 سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠٢.
٣ ـ ثمة تورية هنا لتشابه كلمة "يركع" التي هي bow بالانجليزية وكلمة "بولنغ" التي تفيد اسم اللعبة bowling وذلك في اشارة الى الكتاب الشهير الذي نشره العالم السوسيولوجي من جامعة هارفارد ، روبرت بتنام Robert Putnam بعنوان
Bowling Alone من اصدار Simon & Schuster ، نيويورك ، ٢٠٠٠ ، حول انحسار روح الجماعة في أميركا.

٤ ـ انظر (Edward said, *Orientalism* (New York: Vintage Books, 1979
٥ ـ هذا التعبير البليغ مستقى من
Thomas Cahill, *The Gifts of the Jews: How a Tribe of Desert Nomads Changed the Way Everyone Thinks and Feels* (New York: Nan (Talese/Anchor books, 1998
٦ ـ القرآن يؤكد ذلك ، انظر الآية ٢٩: ٤٦ وكذلك الآية ٢: ١٣٦.
٧ - Karen Armstrong, *A History of God: The 4,000-Year Quest of .Judaism, Christianity and Islam* (New York: A. A. Knopf, 1994), p. 141
انظر ايضا القرآن ، ٢٩: ٦١ ـ ٦٣.
٨ ـ عنوان الكتيب الأصلي هو "شكاوى وحلول". ويمكن الحصول عليه من الموقع www.islam-qa.com . ويذهب هذ الموقع الى ان الشيخ المنجِّد "محاضر ومؤلف اسلامي معروف" "يهدف الى تقديم اجابات ذكية ومسنودة بالحجة عن أي اسئلة حول الاسلام...والمساعدة في حل مشاكل اجتماعية عامة وشخصية".

٩ ـ لا تنسوا أن كلمة قرآن مشتقة من القراءة وتأتي ايضا بمعنى التلاوة The Recitation التي تفيد القراءة بصوت عال.
١٠ ـ القرآن: ٣٢: ٦-٧ وتقول الآيتان: ذلك عالِم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٦) الذي أحسن كل شيء خلْقه وبدأ خلق الانسان من طين". انظر ايضا الآية ٣٨: ٢٦ التي تقول: "وما خلقنا السماء والأرض وما ينهما باطلا ذلك ظنُ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار". وثمة آيات مماثلة منها ٣:١٩١ و ٣: ٤٨ التي تقول: "قالت ربي أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون".
١١ ـ من أشد خصومي ضراوة وحيدة فاليانت ، نائبة رئيس المؤتمر الاسلامي الكندي. وهي حين تُسأل عني تنفي هويتي الاسلامية لأن لا جود لشيء اسمه "مثلي" في الاسلام. ولكنها في ندوة تلفزيونية اعترفت بأن "مَنْ نكون وماذا نكون" انما هو انعكاس لله الخالق وان من الأسرار العصية أن يفهم المرء خلق الله في كليته.(Faith Journal, Christian Television Station، 23 نوفمبر/ تشرين الثاني ، ٢٠٠٢). ازاء هذا الاعتراف كيف يمكن لها ان تكون واثقة بأني مخلوق مشوه؟ وحيدة ، ماذا حدث للأسرار العصية في خلق الله؟
١٢ ـ صحيفة غلوب اند ميل Globe and Mail ، 7 ديسمبر (كانون الأول) ، ٢٠٠٠.

الفصل الثاني

سبعون حورية

منذ أن اصبحتُ ضحية من ضحايا المدرسة الدينية وأنا اصطرع مع السؤال الذي يعلو على كل سؤال سواه: هل أُودِّع الإسلام؟ للإجابة عن هذه السؤال كان عليّ أن أُعالج مسألة إن كان ثمة شيء رئيسي ، شيء جوهري على نحو متأصل في الإسلام يجعله أكثر جمودا اليوم من نظيريه الروحيين ، المسيحية واليهودية.

ما أصابني بالغم ليس مجرد قصة الفتاة النيجيرية التي كانت ضحية اغتصاب. خذوا بلدا مسلما ، أي بلد مسلم ، وستقطّع نياط قلوبكم أشد المهانات وحشية. ففي باكستان تُقتَل في المتوسط امرأتان يوميا في "جرائم شرف" غالبا ما تُرتَكب بإسم الله على لسان السفاحين (١). وفي مالي وموريتانيا يقوم نصابون مسلمون بإغواء صبيان صغار لإيقاعهم في اسار العبودية (٢). وفي السودان يُمارس الرق على أيدي ميليشيات اسلامية(٣). وفي اليمن والاردن قُتل رميا بالرصاص من مسافة قريبة موظفون مسيحيون يعملون في منظمات انسانية. وفي بنغلاديش سُجن فنانون لدفاعهم عن حقوق الأقليات الدينية أو طُردوا من البلاد أصلا (٤). وهذا كله موثّق.

آه ، أجل ، فأنا اخلط مرة اخرى بين الثقافة والدين. ولكن أحقا أني افعل ذلك!. فحتى في تورنتو التي تختلف ثقافتها اختلافا ظاهرا عن ثقافة بنغلاديش ينتعش إسلام قاس وفظ. أبقوا معي لأقول لكم كيف أعرفُ ذلك.

بعد تسلمي ظرف موسيس بوقت قصير أنتجتُ حلقة من برنامج "تلفزيون شاذ" *Queer Television* كان محورها واقع المسلمين المثليين والمسلمات السحاقيات. وكان نجوم أحداث الحلقة مثلي غادر باكستان للإقامة في لندن ، وسحاقية هربت من وطنها ايران الى فانكوفر.

الشرطة الدينية في وطن مريم السحاقية الصقت بها وصمة "المفسدين في الأرض". وقد عرضتُ في البرنامج شريط فيديو مهربا من ايران لإثبات ما كان سيحدث لها لو انها بقيت وتعرضت الى الإعتقال. عرض الشريط امرأتين مكفَّنتين وهما على قيد الحياة، يجري انزالهما في قبرين حُفرا حديثا. تجمَّع حشد من الرجال والأولاد حولهما وشرعوا يرجمون رأسي المرأتين بأحجار بحجم قبضة اليد (٥). كانت غالبية الأحجار تصيب هدفها وترتد لتكشف عن دفق قرمزي اللون من وراء قماش الكفن. أوضحتْ مريم أن القانون ينص على أن كل راجم يُفترَض به أن يضع نسخة من القرآن تحت ابطه للتخفيف من قوة الرمية. وكان هذا القانون لا يُراعى دائما. وإذ كانت مريم لم تزل خائفة على حياتها فانها روت قصتها في الظل دون أن يظهر وجهها.

عدنان، المثلي المسلم، وافق على الظهور أمام الكاميرا. كان يؤمن بأن القرآن يحرِّم المثلية ولكنه عقد مصالحة بينه وبين هذا الحكم. إذ لم يكن في نية عدنان تقديم صديقه الى المسلمين كافة وانما فقط الى والدته في باكستان. والتزكية الدينية في الوقت الذي يكون توافرها خيرا على خير فانها ليست لازمة ـ ليس على أية حال في لندن المتحررة حيث كان وصاحبه يعيشان. انتهت الحلقة بتعليق من مستشار لدى المركز الثقافي الاسلامي في لندن على ضرورة التحلي بالتواضع عند الحكم على المثليين والسحاقيات. وقال ان الاسلام وإن كان لا يطيق المثلية، على ما يبدو، فان "كل شيء جائز"، مع الله جلّ جلاله(٦).

أتعرفون ما حدث بعد بث البرنامج؟ من بين كل الشكاوى التي تلقيتها من المسلمين القاطنين في منطقة تورنتو كانت الشكوى الأكثر تواردا أن هؤلاء "الخنازير" و"الكلاب" المثليين الذين عرضتُهم في برنامجي كانوا ـ حضِّروا أنفسكم لما هو آت ـ يهودا بلا أدنى شك. دعكم من شريط الفيديو المريع عن ممارسة الرجم في ايران، أو استعداد عدنان لقبول حكم لاهوتي ضد توجهه الجنسي، أو دعوة المستشار الديني الى تواضع الجميع أمام لله، فهذه كلها لم تترك أثرا في المستائين من المسلمين الذين كتبوا واتصلوا هاتفيا. الشيء الوحيد الذي رسخ في الأذهان هو ان المثليين والسحاقيات لا يمكن بأي حال أن يكونوا من "طينتنا". فالمثليون نتوءات ناشزة على نحو صارخ في نظر "هم". وهذا كله بين ظهراني حاضرة من حواضر القرن الحادي والعشرين.

شعرتُ بالغثيان. فاياً تكن الثقافة التي يعيش المسلمون في كنفها ، ريفية أو رقمية، وبصرف النظر عن الجيل ، أكان ممثلا بجامع للمهاجرين من عقد السبعينات أو بمدينة مربوطة اعلاميا لمواكبة الألفية الجديدة، فقد برز الإسلام قبَليًّا الى حد اليأس. لم نكن ذات يوم بهذه الحاجة الماسة الى الإصلاح.

ولكن ما معنى ذلك ـ قلتم "إصلاح"؟ الحقيقة لم تكن لديّ إلا فكرة في منتهى الضبابية. ما كنتُ أعرفه أن المؤمنين في الديانات التي خضعت تاريخيا للاصلاح لا يتصرفون قطعا بعقلية القطيع كما يتصرف المسلمون. فالقادة المسيحيون يدركون التنوع الفكري في صفوفهم. وفي حين ان لكل منهم أن ينفي صلاحية التأويلات الاخرى ـ والكثير منهم ينفونها ـ فلا أحد منهم ينكر وجود جملة كاملة من التأويلات. اما اليهود فهم متقدمون بمسافة بعيدة عن الباقين. والحق ان اليهود يشيعون الاختلافات القائمة بإحاطة نصوصهم المقدسة بالتعليقات ودمج

المناظرات بالتلمود نفسه. وعلى النقيض من ذلك فان غالبية المسلمين يتعاملون مع القرآن على أنه وثيقة تُحاكى ولا تؤوَّل، خانقا قدرتنا على التفكير المستقل.

حتى في الغرب يجري بصورة اعتيادية تعليم المسلمين بأن القرآن هو البيان النهائي لمشيئة الله حالا محل الكتاب المقدس والتوراة. وبوصفه البيان النهائي فهو "النص الكامل" ـ الذي يقف فوق الشبهة أو التحليل أو حتى التأويل بل ينبغي الإيمان به فحسب. والحق أن اول كلمة سمعها النبي محمد من الملاك جبرائيل الذي كان يتحدث بإسم ربه ، كانت "إقرأ!" وتُترجم أحيانا الى الانجليزية بكلمة Recite! التي تفيد معنى التلاوة. وفي كلا الحالتين فان تلفظ الكلمات لغرض ترديدها هو أقصى ما ذهب اليه الغالبية منا. وأي شيء أكثر سيكون... حسنا ، أنه سيكون تأويلا.

ويصح الشيء نفسه على مصدر آخر من مصادر اللاهوت الإسلامي هو "الحديث". والحديث عبارة عن تقارير "ذات مرجعية" تسجل أقوال النبي محمد وأفعاله طيلة حياته. وأي سؤال لا يقدم القرآن إجابة جاهزة عنه ـ لاحظوا كلمة جاهزة ـ تقدمها الأحاديث النبوية على ما يُفتَرَض. وعلى مر القرون اضطلع فقهاء أجلاء بجمع هذه الأحاديث وتصنيفها لاستهلاكنا نحن. وكل ما علينا ان نفعله هو أن نحيلها عليهم (أو بالاحرى على الفقهاء الذين ينتقيهم لنا أئمتنا). أوه ، وماذا بشأن القضية البسيطة المتمثلة في ان النبي محمد كان بشرا على نحو متميز وعرضة لارتكاب أخطاء غير مقصودة في احكامه؟ سكوت! فبما أن الأحاديث تعكس حياة خاتم الأنبياء الذين ارسلهم الله الى البشر فان التشكيك فيها شر مستطير.

هل ترون الى أين يمضي بنا في الواقع قطار الخير السريع هذا؟ الى

وجهة اسمُها "موت العقل". فعندما يحدث خرق برعاية الإسلام ، لا عرف غالبية المسلمين كيف يُجادلون أو يُعيدون التقويم أو ُصلحون. ويُقال لنا أن هذا من حسن الحظ لأن الخرق لا يمكن أن يقع طالما بقينا أوفياء للنص الكامل. آه! يا له من منطق هروبي! أن قولبة الذهن مثل هذه القولبة الدائرية تكفي لتحويل ألمع العقول الى رؤوس فارغة ، بل ورؤوس خطرة بسبب خوائها.

لكل عقيدة ، بالطبع ، مريدون مقلدون. والفارق الوحيد ان الترديد الببغاوي في الإسلام هو **الاتجاه السائد**. بروس فايلر Bruce Feiler كاتب أميركي وقع على هذا الفارق خلال البحث الذي كان يجريه لتأليف كتابه الموسوم *Abraham: A Journey into the Heart of Three Faiths* (ابراهيم: رحلة في قلب ثلاث ديانات). ففي القدس التقى فايلر بإمام المسجد الأقصى الشيخ يوسف ابو سنينة. وأكد الإمام كمال الإسلام المفتَرَض. وبلغة انجليزية مصقولة في لندن قال لفايلر "أن عليك ان تهتدي بخاتم الأنبياء" الذين أرسلهم الله (٧) ، وإلا فان "الموت مصيرك" بنار الله مثلما اقدم هتلر على "شي اليهود أحياء" بموافقة إلهية. شعر فايلر بالاشمئزاز بعد انتهاء المقابلة وروى الحادث فيما بعد لصحافي متخصص بالدين. وقال الصحافي ، "الحقيقة المنكودة أن [الشيخ سنينة] يمثل التيار السائد في الإسلام حاليا. قد تجد يهودا لديهم رسالة مماثلة في القومية اليهودية ولكن بأعداد صغيرة. قد تجد مسيحيين يبشرون بيوم الدينونة ولكن عددهم يبقى محدودا. اما إمامُك فهو يمثل الغالبية العظمى من المسلمين ، في هذا المكان على أقل تقدير"(٨).

سنينة يجسد ذهنية الكثير من المسلمين ، لا في القدس فحسب وانما في المهاجر ايضا. دعوني استشهد بتقرير صادر عام ٢٠٠٢ عن "أكاديمية تعلم الإسلام" Academy for Learning Islam الكائنة في مدينتي ،

ريتشموند. فالأكاديمية تزعم ان هناك الكثير مما هو مشترك بين اصحاب المذهبين الرئيسيين في الاسلام ، السنة والشيعة. كيف ذلك؟ لأن "كلاهما يؤمنان بالحقيقة المطلقة للقرآن المجيد وبكماله. وكلاهما يعتبران محمدا خاتم الأنبياء المرسلين من الله ويكافحان من اجل تقليد أحاديثه وأعماله"(٩). وعندما يصبح التقليد هو الاتجاه السائد فان غالبيتنا سنعجز عن استقصاء ما لدينا من أحكام مسبَقة ـ أو الإقرار بأن لدينا أحكاما كهذه. فنحن نؤمن بما يُفتَرَض بنا أن نؤمن به ، وكان الله يحب المؤمنين.

رسائل الاستنكار التي اتلقاها بوصفي مقدِّمة برنامج "تلفزيون شاذ" *Queer Television* توضح ما أقصده. فكلما كنتُ أبث تعليقات معادية للمثليين من مسيحيين يستشهدون بالكتاب المقدس ، كان من المحتم أن يعقبهم مسيحيون آخرون بتأويلات متسامحة ، مضادة. هذا لم يحدث قط عندما كان مسلمون يتهجمون عليّ. إذ لم يكن هناك شك ، على ما يبدو ، في أن المتهجمين ينطقون بإسم الإسلام ، كل الإسلام. ولا يعني هذا ان المسلمين كافة ، دون استثناء ، يعترضون على المثليين. فان "الفاتحة" (من الافتتاح الذي يفيد معنى الصدارة في الطليعة) هو أسم مجموعة من المثليين المسلمين لديها فروع في مدن كبرى في عموم أميركا الشمالية وأوروبا. وفي تورنتو على الأقل يحقق حفل عشائها السنوي حضور بعض الآباء والأمهات المسلمين. ولكن حتى إذا كان الكثير من المسلمين لا يشاطرون اسلام الاتجاه السائد أحكامه المتحاملة فاننا لسنا بالعدد الكافي لفتح حوارات مع الاتجاه السائد. وإلا كيف نفسر السبب في انه ما من مسلم واحد كتب الى برنامج "تلفزيون شاذ" أو اتصل به ليسوق تأويلا بديلا ـ رحيما ـ للقرآن؟

على هذه الخلفية شعرتُ أني مستعدة لا لمواجهة التحدي الذي طرحه

موسيس فحسب بل والتوسع فيه ايضا. وللشروع في التوثق مما إذا كان الإسلام جامدا على نحو لا رجاء فيه كان عليّ أن اتعامل مع مسألة "الآخر" في الإسلام ـ النساء ، أجل ، ولكن ايضا اليهود ، والمسيحيين ، والعبيد ، وكل من تجسد معاناتُه الوحشية المتفشية في العالم الإسلامي اليوم. ماذا يقول القرآن عن هذه المخلوقات التي صنعها الله؟ هل يؤيد بلا تحفظ ، أو حتى من باب الاحتمال ، جلد امرأة مغتَصبَة رغم كثرة الشهود على الجريمة المرتكبة بحقها؟ وما دمنا نخوض في الموضوع فهل حقا أن القرآن يحظر على المرأة أن تؤم الصلاة؟

خلال الأشهر التالية على ذلك أعدتُ قراءة كتاب الإسلام المقدس بأعين مفتوحة وروح اقتحامية أكثر من أي وقت سابق في حياتي.

بادئ ذي بدء كانت هناك مسألة المرأة. ايهما خلق الله أولا ـ آدم أو حواء؟ القرآن يلتزم صمتا مطبقا عن هذه التمايز. فان الله نفخ الروح في "نفس واحدة(١٠) وخلق منها زوجها. فأيهما النفس وأيهما الزوج؟ سؤال خارج عن الصدد(١١).

زد على ذلك أنه ليس ثمة ذكر لضلع آدم الذي خُلقَت منه حواء ، بحسب الكتاب المقدس. كما لا يوحي القرآن بأن حواء أغرت آدم بقطف الثمرة المحرَّمة وتذوقها. خلاصة الأمر أنه ليس ثمة هنا ما ينطوي على حجة لصالح تفوق الذّكر ، بل العكس في حقيقة الأمر. فالقرآن يحذر المسلمين مشددا عليهم أن يتذكروا أنهم ليسوا بمنزلة الرب وبالتالي على الرجال والنساء ان يكونوا منصفين في المطالبة بحقوقهم من بعضهم بعضا. وتكليلا لهذا المقطع ثمة ما يبدو أنه صورة من صور البلاغة في الاعتزاز بالمرأة: "واتقوا الله الذي تساءلون والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا"(١٢).

الغريب انه في السورة نفسها ـ بعد اسطر قليلة لا أكثر ـ ينقلب القرآن في موقفه بالاتجاه المعاكس تماما. ويقول "الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحاتُ قانتاتُ حافظاتُ للغيب ...والتي تخافون نشوزهم فعِظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن..."(١٣)

لنكن واضحين: لكي تستحق المرأة الضرب لا يتعين عليها ان تعصي احدا بل يكفي ان يخاف الرجل نشازها أو عصيانها. فان هواجس الرجل تصبح مشكلة المرأة. لطيف. أعلم أني أُغالي في التبسيط ولكن التبسيط يسري معربدا في تشريع قوانين ما أنزل الله بها من سلطان. سأعطيكم مثالا ملموسا. ان مقطعا واحدا من القرآن ـ يقول فيه ان الرجال قوَّامون على النساء "بما أنفقوا من أموالهم" لإعالتهن ـ ترك أثره في "اعلان القاهرة" ، الميثاق المزعوم لحقوق الانسان الذي اقرته الدول الإسلامية في عام ١٩٩٠. نعم ، أن فقرة من الميثاق تؤكد ان "المرأة مساوية للرجل في الكرامة الانسانية"(١٤) ولكن الفقرة التالية تنيط بالرجل رعاية الأسرة. وهي لا تعبر عن "تفضيل" الرجل في موقع رب العائلة بل تعلن جهارا ان على "الرجل عبء الانفاق على الأسرة ومسؤولية رعايتها". وبما ان القرآن يقول ان الرجال قوَّامون على النساء بما ينفقون لإعالتهن فان بإمكانكم أن تستنتجوا الباقي.

في ضوء قضية المرأة التي اغتُصبت في نيجيريا ، صعقني مقطع آخر من القرآن يقول فيه "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله.."(١٥) ها؟ انحكوا نساءكم أنَّى شئتم ، ثم قدموا لأنفسكم؟ هل النساء شريكات أم قطعة أرض تُستملك؟ انهن شريكات ، كما يصر جمال بدوي ، العالم الشهير في دراسة القرآن. وهو يؤكد لي

ان هذه الآية "المستنيرة جنسيا" تعتبر دفاعا عن المداعبات الجنسية التي تسبق المضاجعة تمهيدا لها(١٦). والمرأة مثلها مثل الحقل بحاجة الى عناية تقوم على الحب والحنان لتحويل الحيوانات المنوية الى كائنات بشرية. فـ "ان بذور الزارع لا قيمة لها من دون تربة خصبة تنمو فيها" ، كما يقول بدوي مقتنعا كل الاقتناع ، كما تدل سيماؤه ، بتفسيره التقدمي. بيد انه لم يتناول إلا عبارة "فأتوا حرثكم". ولكن ماذا عن "أنىَّ شئتم". إلا تمنح هذه الكلمات المحدِّدة سلطة لا مبرر لها الى الرجل؟ ويبقى السؤال: أي نموذج يدعو الله الى الاقتداء به ـ آدم وحواء بوصفهما رجلا وامرأة متساويين أو المرأة بوصفها حقلا يُحرث (العفو ، تُلاطَف) حسب الرغبة.

الحقيقة هي أني كنتُ أعرف اياً من التفسيرين ابتغي ولكني لم أعلم علم اليقين (وما زلت لا أعلم) أياً منها يريد الله. وبهذا الحجم من التناقضات المتلاطمة لا أحد يعلم. فمَنْ يريد ان يجلد المرأة بأتفه التُهم يستطيع أن يجد ما يلزم من الإسناد في القرآن. وكذلك مَنْ لا يريد للفتيات أن يئمَّن الصلاة. ومن الجهة الثانية فان الباحث عن المساواة يمكن هو الآخر أن يجد سلواه.

في محاولتي الإجابة عن كيفية التوفيق بين عقيدتي الإسلامية والجلد الهمجي لضحية اغتصاب خلصتُ الى أني لا استطيع التوفيق بينهما بثقة مطلقة. وما كان بوسعي أن أقول متحذلقة ، كما سمعتُ العديد من النسويات المسلمات يفعلن ، أن القرآن ذاته يكفل العدالة. وما كان في مقدوري أن اقول بفروسية ان اولئك الفقهاء النيجيريين المخبولين الذين يطبقون الشريعة لاطوا في ديانتي المساواتية بكل شفافية. والقرآن ليس مساواتيا على نحو شفاف بالنسبة للمرأة. وهو ليس شفافا إلا في غموضه وإبهامه. ومع اعتذاراتي الى نعوم تشومسكي فان المسلمين هم الذين

يصدرون صكوك الغفران بإسم الله. والقرارات التي نتخذها على أساس القرآن لا تُملى علينا من السماء بل نتخذها نحن بملء ارادتنا الانسانية.

يبدو هذا بديهيا للمسيحي أو اليهودي من المنتمين الى الاتجاه السائد ولكنه ليس بديهيا للمسلم الذي تربى على الإيمان ـ مثلما تربت غالبيتنا ـ بأن القرآن يضع كل شيء أمامنا في "سراط مستقيم" وان واجبنا الوحيد ، بل وحقنا ، أن نتبعه. وهذه اكذوبة كبيرة. أو لا تسمعون؟ اكذوبة كبرى ملتحية الوجه.

ان القرآن بدلا من أن يكون كاملا ، انما يخوض حربا لا هوادة فيها مع نفسه حتى أن المسلمين الذين "يعيشون بموجب الكتاب" لا خيار عندهم سوى انتقاء ما ينبغي التشديد عليه وما يتعين تمييعه. ولعل هذا هو الجزء السهل ـ فان أياً منا يستطيع أن يبرر مواقفنا المنحازة بتسليط الضوء على آية معينة وإغفال أخرى. وهذا ، بالمناسبة ، ما يفعله الليبراليون بقدر المتزمتين مخففين من وطأة ضوضاء القرآن السلبية على الأقل مثلما يحذف خصومنا نصوصه الايجابية. فنحن جميعا لدينا أجنداتنا ، التي بعضها أكثر مساواة من البعض الآخر.

ولكن ما دمنا عالقين في هذا الشوط الأخير من لعبة اثبات ان عقيدتـ"نا" الجامدة متفوقة على عقيدتـ"هم" الجامدة ، فان التحدي الأكبر يغيب عن انظارنا ، أي وضع كمال القرآن موضع تساؤل لكي تخفَّ حمى السباق على التوصل الى استنتاج صائب عما "حقا" يقوله القرآن ، ويصبح ، بمرور الوقت ، تمرينا في المعرفة بدلا من النصية. وفي هذه المرحلة فان الإصلاح لا يعني القول لعامة المسلمين ما ينبغي أن لا يفكروا فيه وانما اعطاء البليون مؤمن ممن نذروا أنفسم للإسلام إذنا بالتفكير.

وللمضي أبعد بهذه الفكرة كان عليّ أن أرى ما إذا كان هناك نمط يسري خيطه في متناقضات القرآن الصارخة. وبتعبير بسيط هل ان كتاب الإسلام المقدس يتسم بالابهام أو التناقض حول قضايا اخرى ايضا تتعلق بحقوق الانسان مثل الرق؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يتوافر المجال لإقدام مسلمي القرن الحادي والعشرين على خيارات تنمتي الى القرن الحادي والعشرين؟ فكرتُ في السودان ثم قرأتُ عن حجم تجارة الرقيق فيه. ففي الخرطوم يخوض نظام حكم اسلامي أشبه بنظام طالبان جهادا أعلنه بنفسه على المسيحيين والوثنيين وغير المسلمين ، وذلك بحسب تشارلز جايكوبس Charles Jacobs رئيس المجموعة الأميركية المناهضة للعبودية ومدير الحملة السودانية. ويلحظ جايكوبس ان "هجمة الخرطوم أحيت تجارة العبيد السود التي اوقفها (تقريبا) المستعمرون البريطانيون قبل قرن من الزمان...[و] بعد نحر الرجال تتعرض النساء والفتيات والصبيان الى عمليات اغتصاب جماعية ـ أو يُذبحون لمقاومتهم. ويُقاد الناجون المرعوبون شمالا حيث يوزَّعون على أسياد عرب لتصبح النساء جواري والفتيات خادمات في البيوت والأولاد رعاة"(١٧).

فكرتُ مرة أخرى في شمال نيجيريا وهو مكان آخر فيه حكومات اسلامية تشجع استعباد المسيحيين. حسنا ، أقرُ بأن الحرب الأهلية في نيجيريا أوثق صلة بالسياسة من الدين. ولكن هذه السياسة المتخلفة كلها ما كانت لتُمارَس دون مساعدة ما من القرآن. وكان سؤالي هو ما حجم هذه المساعدة. عدتُ الى المصدر واكتشفتُ هذا المقطع: "...والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا...(١٨)

واو! كان عليّ أن اتوقف لتحليل هذه الآية. إقرؤها بعناية وستجدوا أن القرآن لا يوجهنا الى عتق جميع العبيد بل فقط اولئك الذين يقرر أسيادهم أن لديهم امكانية الارتقاء بمكانتهم. أين هذا من مناشدة مشاعرنا الذاتية

وموقفنا الأخلاقي وحريتنا في الاختيار؟ بكلمات أخرى يستطيع المسلمون اليوم أن يخلّفوا القرن السابع وراءهم من خلال المراوغة ، بموافقة القرآن ـ إذا شئنا. فالقرآن يمنح المشرِّعين النيجيريين خيار تحديث آفة الرق ، أو بكلمات أخرى القضاء عليها. فكما المرأة كذلك الرقيق: القرارات التي يتخذها المسلمون هي قراراتنا وحدنا ، ولا يمكن أن توضع على عتبة الله.

هل من الجائز أن الإسلام لا يتسامح مع المسلمين الأفراد الذين يفسرون القرآن لأنفسهم فحسب بل وأن مثل هذا العمل والاستطلاع ربما كان حتى الطريقة **الوحيدة** لأن "تعرف إسلامك"؟

إذ شعرتُ بنفحة من النشاط انتقلتُ الى ملف ضخم آخر من ملفات حقوق الانسان: معاملة الذميين. فبسبب التقاليد اليهودية ـ المسيحية التي يتحدر منها الإسلام فان لدى القرآن الكثير مما يقوله عن اليهود والمسيحيين. وهو يكيل المديح على إبراهيم ، أب الديانات التوحيدية الثلاث. ويُطري عيسى بوصفه "المسيح" أكثر من مرة(١٩). ويأتي على ذكر مريم أم عيسى اليسوع إيجابا عدة مرات. يضاف الى ذلك أن القرآن يذكّرنا بكون اليهود ينتمون الى أمة "مُفَضَّلة" هي بنو اسرائيل(٢٠)! مفَضَّلون؟ اليهود؟ دققتُ في بعض الترجمات الانجليزية للتوثق. إزاء هذه العواطف الحارة تجاه أجدادنا الروحيين يكون من المنطقي ان يشير القرآن على اليهود والمسيحيين بأن يطمئنوا، أن "لاخوف عليهم ولا هم يحزنون"(٢١) ما داموا مؤمنين بالله واليوم الآخر، كما تنص عليه كتبهم المقدسة.

من جهة اخر يعتبر القرآن بصراحة أن لا دين إلا الإسلام(٢٢). غريب. أم يا تُرى أهو حقا غريب؟ فثمة فكرة في غاية الأهمية هنا ـ لا شيء

يفوقها أهمية في اوقاتنا المشتتة ـ وهي تتعلق بسبب ظهور الإسلام أصلا. كل ما ينبغي ان يؤمن به المسلمون نزل على اليهود قبلنا بآلاف السنين. وقد حدث ذلك عندما سار بعض اليهود في طريق الضلال عن الحقيقة المنزَّلة ، بتحولهم الى عبادة الأصنام ، مثل العجل الذهبي ، فاستثاروا عليهم غضب الله. (أدري ، أدري: أي خالق هذا الذي يغار من مولود بقرة؟ أحسبُ أنه خالق يسعى الى الصلح بين قبائل في احتراب دائم مع بعضها بعضا من خلال المحور الجوهري المتمثل في ديانة مشتركة). نعود الى البقرة. فان انبعاث الوثنية اقتضى ارسال واحد آخر من أبناء ابراهيم لتذكير عالم الساميين بحقيقة ربه. فكان مجيء اليهود. وكذلك نزول الكتاب المقدس الذي يجمع كتب موسى العبرانية (تُعرَف عند المسيحيين بإسم العهد القديم). ولكن في النهاية بدأ بعض المسيحيين يدَّعون أن المسيح هو الله فضلا عن كونه إبن الله وليس رسولا آدميا اصطفاه الله الواحد الأحد. لقد كانت الوثنية تهدد برفع رأسها (أو ؤوسها) من جديد.

لذا في حوالي سنة ٦١٠ ميلادية عاد الله الى قائمة المرشحين للنبوة واختار محمدا ، وهو حفيد آخر من أحفاد ابراهيم ، لتطهير كلامه المنزَّل من الفساد الذي اعاثه فيه اليهود والمسيحيون. واينما فتحتُ القرآن لم أكن قط بعيدة عن رسالة كثيرا ما تتكرر بأن ما سبقه من كتب مقدسة جدير بالتبجيل.

مرحبا بكم الى الفكرة ذات الأهمية البالغة التي لمَّحتُ اليها قبل لحظات: أن الجهل القَبَلي لا يمكن أن يكون حقيقة. وعندما أعدتُ قراءة القرآن للتبصر في "الآخر" وجدتُ أن اليهود ليسوا كلهم الذين يُقال للمسلمين أن يجتنبوهم بل فقط اولئك الذين يسخرون من الإسلام بوصفه دينا كاذبا على نحو متأصل. وينبغي على المسلمين أن لا ينكروا صحة الديانة

اليهودية وإلا فانهم يسيئون الى دينهم ذاته.
ولكن إذا كانت اليهودية والإسلام ديانة واحدة فما هي الحكمة في جعلهما كيانين منفصلين؟ وعلى الغرار نفسه ما الحكمة من الإبقاء على المسيحية؟ أو الهندوسية؟ أو البوذية؟ أو السيخية؟ ، ولكم أن تملأوا الفراغات التي تلي ذلك. لماذا لا نتخلى عن احساسنا الدفين بالتفوق وننظر الى بعضنا بعضا على أننا من صنع خالق واحد؟ القرآن لا تهرب من هذا السؤال الأكثر تنكيدا من الأسئلة الأخرى كلها. فهو يقول أن الله جعل لكل قوم شرعة(٢٣) لحفزهم على التسابق من أجل عمل الخير معترفا أن عمل الخير لن يكون ممكنا إذا اشتبكنا في خلافات على مَنْ هو "الأحق" في تنفيذ مشيئة الله. أنا وأنتم لا علم لنا ، وعلينا أن نتخطى هذه المعضلة. والقرآن يؤكد لنا أن الله سيتكفل بتسوية خلافاتنا المذهبية حين اليه نعود. في هذه الأثناء فان التسابق على عمل الخير انما هو دعوة تحولت من الشطارة في عالم المال والأعمال الى الإبداع الفني في تناول الطينة المقدسة ذاتها والدأب على تحسين جمال ما صُنع منها. ويتلازم مع هذه الممارسة الدافع الآخر لقرار الله ان يخلقنا أقواما ومللا شتى: لكي نشعر بوجود حافز يغرينا بالتعارف على بعضنا بعضا. فالأمر كما لو أن الخالق يريد لنا أن نستخدم الاختلاف كاسحة جليد بدلا من استخدامه ذريعة للانكفاء الى زوايا متقابلة.

أقر بأن هذا ما بودي أن يكون المعنى من الألف الى الياء. ولكن كل شيء مطروح للتأويل لأن القرآن يشير على المسلمين بأن لا يتخذوا من اليهود والمسيحيين اصدقاء لهم كيلا لا نصبح "منهم". وهو يتحدث عنـ"هم" بوصفهم من "القوم الظالمين" الذين لا يهديهم الله. وثمة كلام عن انزال أذى شديد وضرب رقاب وفرض الجزية على أهل الكتاب أتاوة لقاهريهم المسلمين(٢٤). كلام مخيف بحق ، وهذه المقاطع تضفي صدقية على اولئك المسلمين الذين يديرون ظهورهم الى الوئام بين

الأديان. وعند هؤلاء يجوز للذميين أن يوجدوا ولكن قطعا ليس على اساس من التكافؤ مع المسلمين ، وقطعا ليس على مستوى واحد معهم لأن الإسلام ليس مجرد دين آخر يضاف الى بقية الأديان بل يعلو عليها جميعا بحكم كونه دين الحق ورسوله خاتم الأنبياء في خدمة الواحد الأحد. أنه لخيار ان يُقرأ القرآن على هذا النحو ، أو ليس كذلك؟ ولكننا لسنا واعين بهذا الخيار.

لعل احدكم يحتج قائلا: "تمهلي ، فأنا لا أختار هذا التأويل بالمرة. وأنا لاُريد أن اضرب جاري لاحتفاله بعيد هانوكا فلا تحسبيني على كارهي اليهود. إني انسان حسن الطوية ، بحق السماء". نعم ، انك على الأرجح حسن الطوية. فلتسأل نفسك من باب هذه الطيبة: هل اخترتُ أن اتحدى الاعتقاد الشائع بين مسلمي الاتجاه السائد بأن الإسلام متفوق على المسيحية واليهودية؟ اننا غارقون في نرجسيتنا الروحية حتى أن غالبية المسلمين لا يفكرون مرتين ، أو حتى مرة ، في الضرر الذي يمكن أن يلحقه هذا الموقف بالعالم. نحن نتقبله فطريا مطلين بين حين وآخر من تحت الرمال حيث دفنَّا رؤوسنا لنلحظ وجود "المتطرفين" ، وأحيانا لا لحظ وجودهم حتى وقتذاك.

هل أُبالغ؟ قولوا لي بعد قراءة هذه القصة. قبل اسابيع قليلة من ١١ سبتمبر (ايلول) انضممتُ الى فريق من المسلمين على شاشة التلفزيون الوطني في ندوة حول "صور العالم الإسلامي"(٢٥). وإذ إعتَبَر زملائي المشاركون في الندوة ان هذه الدعوة الموجهة بصيغة مؤدبة هي تعبير ملطَّف عن اتاحة الفرصة "لإبداء شكوانا من الغرب" ، راحوا يوجهون سهام الاستنكار المعهودة الى ثقافة البوب (الشعبية) في اميركا الشمالية: هوليود تصورنا جميعا متعصبين ، والمتعصبون دائما يبدون ذوي بشرة داكنة ، وغير ذلك من المفردات النمطية المستقاة من

قاموس الضحية. وإذ شعرتُ بالملل من الجدال بهذه الاسطوانة المشروخة ، اقترحتُ زاوية نظر مغايرة هي أننا المسلمين لا نعطي الآخرين حافزا يُذكر ليغيِّروا رأيهم فينا القائل بأننا ذوو تفكير أحادي جامد. وتساءلتُ ، أين كان المسلمون في تورنتو أو فانكوفر أو مونتريال عندما طوح طالبان تماثيل بوذا التي يعود تاريخها الى ما قبل الإسلام ، من حيث كانت تطل على وادي باميان في افغانستان؟ ان القرآن يقول "لا إكراه في الدين"(٢٦). ولم يكن بوسعنا ان نتوقع من حركة طالبان أن تغنِّي هذه المعزوفة ولكن لماذا لم يختر مسلمو الغرب غناءها بدلا من البقاء صامتين في الغالب؟ لماذا كانت الاحتجاجات الجماهيرية الاسلامية غائبة في شوارعنا؟

ورحتُ أنتظر.

الرد الوحيد جاء من مسلمة اخرى ـ وهي فوق ذلك نسوية ناشطة. قالت دون أن تفكر في ما تقول ، "منجي ، أو لا تعرفين ما يحدث للمسلمين في فلسطين؟" العفو ، ماذا قلتِ؟ أعيدوني الى أرض الواقع أو انقلوا عجيزتي الى مكان آخر من المنظومة الشمسية حيث نستطيع التمييز بين العدالة والتبرير. بيد أني أقر لها بالآتي: من الواضح أن هناك علاقة ما بين صعود التوتاليتارية الاسلامية وتعقيدات السياسة في الشرق الأوسط. ولكن كيف لهذه العلاقة المركبة أن تبرر صمت المسلمين في الغرب على نظام طالبان الذي يدعي التفوق العرقي على سُنَّة الله وينسف تماثيل بوذا ويظلم المرأة ويمنع الطائرات الورقية ويستطيب الإعدام؟.

ان هذا ليس تبريرا. وردُّ "اختي" كان تهربا. ورغم كل تفكيرها النقدي تجاه الغرب فانها إرتَدَتْ إسلامها الذي لا يفكر ، كالبرقع الحاجب من قمة الرأس الى أخمص القدمين. وإذا كان هذا أفضل ما لدى امرأة اعلنت نفسها

ناشطة نسوية فإن فرائصي ترتعد من تصور الى أين نحن سائرون.
الجميع يركز على تاريخ ١١ سبتمبر (أيلول). أنا أريد ان اركز على الأيام التالية من بعده. ماذا أكدنا نحن المسلمين لوسائل الاعلام والسياسيين ولأنفسنا عن الإسلام؟ قلنا واجمين أن ديننا تعرض الى "الاختطاف"(٢٧). نعم يا أميركا ، تعرض الى الاختطاف. واننا معك في خندق واحد يا ألمانيا. نحن ايضا نحب حريتنا يا استراليا. اننا في هذا الموقف معا يا بريطانيا. فنحن ، وانتم معنا ، تعرضنا الى الاختطاف.

لم أحتمل هذه الاستعارات المجازية. فهي تعني ان الإسلام نفسه كان طائرة تحلق نحو مهبط ما لحقوق الانسان ، وانه لولا ١١ سبتمبر (ايلول) لوصل المسافرون على طائرة الخطوط الجوية القرآنستانية الى وجهتهم الرائعة بلا أي مطبات ، وكان الله يحب المحسنين. الإسلام تعرض الى الاختطاف! وكأن ديننا كان عابر سبيل بريئا في عنف المسلمين. اختطاف. كلمة مشحونة عاطفيا تعفي مسلمي الاتجاه السائد من مسؤولية النقد الذاتي. أولا وقبل كل شيء ، أن النقد الذاتي يعني الإقرار بالجانب الفظيع من القرآن ، وكيف أنه يرفد الارهاب.

بعد ١١ سبتمبر (ايلول) كنتُ اسمع باستمرار هذه اللازمة من المسلمين: أن القرآن يجعل من الواضح تماما متى يكون الجهاد ممكنا ومتى لا يكون ممكنا ، وان الارهابيين خرقوا هذه الضوابط بلا أدنى ريب. وعلى حد قول واحد من مثل هؤلاء الشيوخ فان الله "يقول بمفردات لا تقبل اللبس أن من قتل نفسا بريئة كأنما قتل البشرية كلها"(٢٨). وأنا أقول ، أن هذا تزيين رغائبي. أتعرفون مفردات السورة والآية المذكورتين على انها "لا تقبل اللبس"؟ انها في الحقيقة تتيح مجالا للمناورة. واليكم نص الآية: "من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه مَنْ قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا"(٢٩).

المحزن أن المسلمين المتطرفين يستطيعون استغلال الاستثناء الوارد في "بغير نفس أو فساد في الأرض" لإذكاء جهادهم.

اسامة بن لادن ، على سبيل المثال ، أعلن الجهاد ضد الولايات المتحدة كلها في اواخر التسعينات. والقرآن ساعده في ذلك. عودوا الى عبارة "بغير نفس أو فساد في الأرض". ألم تسبب العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة ، ولكنها فرضتها امتثالا لمطالبة الولايات المتحدة ، ضد العراق هلاك نصف مليون طفل وما زال العدد آخذ في الارتفاع؟ هذا ما يعتقده بن لادن. هل تُعد الآثار التي تتركها جزم الجنود الأميركيين على الأرض السعودية "فسادا في الأرض"؟ بلا أدنى شك عند بن لادن. أما المدنيون الأميركيون فهل يمكن أن يكونوا أبرياء من القتل أو الفساد والضرائب التي يدفعونها تساعد اسرائيل على شراء دبابات لتسوية بيوت الفلسطينيين مع الأرض؟ هذه مسألة بديهية عند بن لادن. وكما صرح لشبكة "سي ان ان" في عام ١٩٩٧ فان حكومة الولايات المتحدة "ارتكبت افعالا ظالمة وفظيعة واجرامية للغاية سواء مباشرة أو عبر دعمها للاحتلال الاسرائيلي" في فلسطين. "وبسبب خضوعها لليهود فان غطرسة الولايات المتحدة بلغت حدا احتلوا معه الجزيرة العربية ، أقدس مقدسات المسلمين. لهذا ولأعمال عدوانية وظالمة اخرى فقد أعلنا الجهاد ضد الولايات المتحدة"(٣٠).

أنا وأنتم يمكن أن نتفق على أن اسامة بن لادن ، من الناحية الأخلاقية ، ينتمي الى انسان النيندرتال لتبنيه هذا الشكل من أشكال الجهاد. ولكن هل يمكن لنا أن نتفق على أنه ومرتزقته كانوا مدعومين بنصوص مقدسة أيضا؟ كل ما أطلب هو الصدق.

ما هذا؟ هل عليّ أن افهم السياق الذي نزلت فيه آيات العنف في القرآن؟

تأكدوا أني قرأتُ الفقه الذي يفسر هذه الآيات "في سياقها" ، وأعتقد أن هناك لعبة متقنَة تجري لممارسة التهرب والمناورة. أنها ليست من إخراج مؤامرة مدبَّرة وانما نتاج افتراض عميق الجذور بأن القرآن كامل لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه ، وبالتالي لا بد من وجود اسباب وجيهة تماما للكراهية التي كثيرا ما يُبشر بها.

خذوا محاجَّة بارزة واحدة تدافع عن الإسلام "الحق" بوصفه دين سلام(٣١). تذهب هذه المحاجَّة الى ان الله كان يشير على محمد في السراء والضراء ولذا فان آيات الشر في القرآن لا تعكس سوى اوقات الشدة التي واجهها محمد في السنوات الخمس والعشرين أو نحو ذلك التي امضاها في نشر الإسلام. فقد بدأ محمد التبشير برسالته في مكة حيث تعلق العبيد والأرامل واليتامى والفقراء الكادحون برسالته غير التقليدية التي تدعو الى الرحمة. والله يعلم أن هؤلاء المنبوذين كانوا بأمس الحاجة الى جرعة من الشفقة في العاصمة التجارية للجزيرة العربية بتقسيماتها الطبقية على اساس اقتصادي وتحللها الأخلاقي. إذاً ـ في البداية نزلت آيات القرآن مشدِّدة على الرحمة.

ولكن سرعان ما شعرت طبقة التجار المكية بالخطر الداهم الذي يهددها ـ فأخذت تتوعد بدورها. شدَّ محمد وأتباعه الرحال وهاجروا الى المدينة لحماية أنفسهم. وهنا ، من حيث الأساس ، تتحول رسالة القرآن الرحمانية الى رسالة قصاص وعقاب. في المدينة رحب قسم من السكان بالمسلمين المهاجرين فيما كان للبعض الآخر موقف مغاير قطعا. ومن بين الذين لم يرحبوا بهم أكبر القبائل اليهودية في المدينة ، التي تواطأت مع المشركين في مكة على اغتيال محمد وإبادة الذين اشهروا إسلامهم. وقد فشلوا في مخططهم لأن الله أوعز الى محمد بتوجيه ضربة استباقية. وتذهب المحاجَّة الى أن هذا هو مصدر القسوة في القرآن. ولكن ، كما

تمضي المحاجَّة ، ان المسلمين لم يبدأوا بروح القصاص هذه بل لجأوا اليها من أجل الحفاظ على أنفسهم ، ولبعض الوقت فقط. ورسالة الإسلام "الحق" الأولى هي الرسالة التي دشن محمد دينه بها. وهي رسالة عدل ومساواة ووحدة ـ وسلام.

يا لها من سلوى عاطفية. وفي حين كنتُ أتمنى أن اصدِّق هذا الطرح فإني كلما أمعنتُ في القراءة والتفكير تناقص فهمي لمعناه. وابتداء ليس واضحا أي الآيات نزلت على محمد في هذا الوقت أو ذاك(٣٢). إذ يبدو القرآن مرتبا حسب حجم الآيات ـ من الأطول الى الأقصر ـ لا حسب التسلسل الزمني لنزولها. كيف يمكن لأحد أن يعزل الآيات "الأبكر" ناهيكم عن أن يقرأ فيها الرسالة "الحق" التي ينطق بها الإسلام؟ علينا أن نعترف بحقيقة ان رسالة القرآن مبثوثة في كل ركن من أركان عالمنا التعيس. الرحمة والاحتقار يتعايشان جنبا الى جنب. أنظروا الى موقفه من المرأة. فان آيات مفعمة بالأمل واخرى مشبعة بالكراهية لا تبعد إلا اسطرا عن بعضها بعضا ، والشيء نفسه يصح على التنوع الديني. وليس هناك اتجاه واحد يمكن تشخيصه في هذا النص الذي يُزعم أنه كامل ، لا مراء فيه ولا لبس. ان كمال القرآن هو في نهاية المطاف كمال مشكوك فيه.

ياه ، هل تجاوزتُ الحد؟ ان تجاوزي أنا الحد يتوارى خجلا بالمقارنة مع تجاوز ارهابيي "القاعدة". فهؤلاء ، بخلافي أنا ، يخرجون سعيا الى القتل. وإذا كنا صادقين بشأن محاربة الاستبداد الخانق الذي يمثلونه فلا يمكن ان نخشى من السؤال: وإذا لم يكن القرآن كاملا؟ وإذا لم يكن برمته كلام الله؟ وإذا كان ملغوما بالاحكام البشرية المنحازة؟

لنتعامل برهة مع هذا الاحتمال. كتب محمد عطا ، قائد الانتحاريين الذين

نفذوا هجمات ١١ سبتمبر (ايلول) وصية قاتلة باسم عصابته. وقال في الوصية: "يكفينا أن [آيات القرآن] هي كلمات خالق الأرض والأجرام السماوية..." ليس مرة واحدة وانما ثلاث مرات اشار عطا الى انه يجد عزاءه في "كل ما وعد الله به الشهداء" ، وبخاصة:" اعلموا ان حدائق الجنة تنتظركم بكل جمالها ، وأن نساء الجنة ينتظرن مناديات "تعال الى هنا يا صديق الله""(٣٣).

اسمحوا لي أن افك لكم مفاتيح هذه اللغة المألوفة في افلام الدرجة الثانية: أن عطا والشباب كانوا يتوقعون أن يدخلوا بحرية مطلقة على عشرات العذراوات في الجنة. وهم ليسوا وحدهم في ذلك. فقبل شهر من ١١ سبتمبر (ايلول) قال مسؤول عن كسب انصار لحركة حماس الفلسطينية التي تحولت من المقاومة الى الارهاب في تصريح لمحطة "سي بي اس" التلفزيونية انه يلوِّح بمرأى ٧٠ حورية أمام المرشحين لتنفيذ عمليات انتحارية(٣٤). يبدو الأمر وكأنه رخصة أبدية للقذف عند بلوغ الذروة الجنسية مقابل الاستعداد للتفجير(٣٥) ، وقد زُعم منذ زمن بعيد أن القرآن يعد بمجازاة المسلمين الذين يستشهدون.

ولكن لدينا سببا للاعتقاد ان هناك متاعب في الجنة ، فان خطأ بشريا وجد طريقه الى القرآن. إذ تفيد الأبحاث الجديدة ان ما يمكن للشهداء توقعه مقابل تضحياتهم ليس حوريات وانما زبيبات! ذلك أن الكلمة التي قرأها فقهاء القرآن طيلة قرون على انها كلمة "حور" قد تُفهم فهما أدق بمعنى "الزبيب الأبيض" (لا تضحكوا ، ليس بافراط على أية حال. فالزبيب في الجزيرة العربية خلال القرن السابع كان من الطيبات الثمينة بما فيه الكفاية لأن يُعتبر طبقا من أطباق الجنة). ولكن أن يكون الزبيب هو المقصود بدلا من الحور؟ حاشى لله. كيف يمكن للقرآن أن يرتكب مثل هذه الغلطة؟

المؤرخ الذي يسوق هذه الحجة ، كريستوف لوكسمبرغ Christoph Luxemberg ، خبير متخصص بلغات الشرق الأوسط. وهو ينسب وصف القرآن للجنة الى عمل مسيحي كُتب قبل ثلاثة قرون على ظهور الاسلام في شكل من اشكال اللغة الارامية التي كان على الأرجح لغة المسيح(٣٦). وإذا كان القرآن متأثرا بالثقافة اليهودية ـ المسيحية ـ الأمر الذي ينسجم انسجاما تاما مع دعواه بأنه يعكس ما سبقه من كتب منزَّلة ـ فان الارامية كانت ستُترجَم بيد بشرية الى العربية ، أو **ثُساء** ترجمتها في حال كلمة "الحور" والله أعلم كم من الكلمات الأخرى.

ماذا لو كانت عبارات وجُمل كاملة قد جرى تصورها تصورا مغلوطا؟ فان النبي محمد الذي كان تاجرا أميا ، اعتمد على كتّاب لتسجيل ما كان ينزل عليه من كلام الله. وأحيانا كان النبي نفسه يبذل محاولات مضنية لفك أسرار ما كان يسمعه(٣٧). وهكذا ، على ما يُذكر ، نالت مجموعة من "الآيات الشيطانية" ـ مقاطع تؤلّه الأوثان ـ قبول محمد وسُجلت على أنها نصوص حقيقية في متن القرآن. وقد عمد النبي لاحقا الى إسقاط هذه الآيات متهما الشيطان وأحابيله بالمسؤولية عنها. ولكن الحقيقة الماثلة في أن الفلاسفة المسلمين تناقلوا سرد هذا القصة على مر القرون ، تؤكد شكوكا غابرة القدم في كمال القرآن(٣٨). والآن أكثر من أي وقت مضى نحتاج الى احياء هذه الشكوك.

ماذا كان سيحدث لو تربى محمد عطا على اسئلة تبحث في الروح عن اجابات بدلا من تربيته على يقينيات بسيطة؟ وعلى أقل تقدير ، ماذا لو عرف هذا الطالب الجامعي أن من الممكن المَراء في اصول كلمات مختارة ـ كلمات محورية عن الآخرة؟ وانها قد لا تكون بالمرة "كلمات خالق الأرض والأجرام السماوية"؟ وأن جزاء تدمير الذات ، ناهيكم عن

القتل الجماعي ، سيكون مكافأة مشكوكا فيها؟ وأن وعد الجنة هو رجم في الغيب وليس وعدا مضمونا؟ ربما كان حينذاك سيغير رأيه ويتراجع. ربما. فالاحتمال يستحق النظر فيه باهتمام.

ان فعل وضع القرآن موضع تساؤل هو ذاته جزء أساسي من حل لغز الاصلاح لأنه يشير الى الغناء خارج السرب. وهو يعني عدم قبولكم بأن الاجابات معطاة ، أو أنها ستُعطى لكم.

في الأشهر التي تلت ١١ سبتمبر (ايلول) ظل سؤال يضايقني أكثر من أي اسلئة اخرى: بما أن القرآن يفسح في المجال لممارسة الارادة الحرة ، لماذا يبدو عباقرة الاسلام المتسلطون عازمين دوما على السقوط في ضيق الأفق؟ لماذا لا يختار المزيد منهم طريق الانفتاح؟ كان عليّ أن أذهب أبعد من القرآن. كان عليّ أن اجد حاضنة المواقف البافلوفية المتحاملة عند المسلمين.

وللقيام بذلك كان علي هتك مزيد من الأستار عن الأكاذيب التي نطلقها.

هوامش الفصل الثاني

١ ـ الدكتور رفعت حسن مستشهدا بمنظمة العفو الدولية في
Neva Welton and Linda Wolf, eds., *Global Uprising: Confronting the Tyrannies of the 21st Century*: *Stories of a New Generation of Activists* (Gabriola Island, British Columbia: New Society Publishers, 2001), p. 214.

٢ ـ منظمة العفو الدولية Amnesty International ومنظمة مراقبة حقوق الانسان Human Rights Watch ومنظمة "بيت الحرية" Freedom House ومقالات محدَّدة بينها

Is Youssouf Male a Slave? By Michael Finkel, *New York Times Magazine*, 18 نوفمبر (تشرين الثاني) ، ٢٠٠١.

٣- " Why Israel and not Sudan, is singled out? *Boston Globe*, October 5, 2002، 5 أكتوبر (تشرين الأول) ، ٢٠٠٢ .

٤- Ruth Baldwin, The Talibanization of Bangladesh, *The Nation* (نسخة الانترنت ، ١٨ مايو (أيار) ، ٢٠٠٢). انظر الموقع www.thenation.com

٥- للاطلاع على الأدلة المثيرة للقلق انقر هنا

٦- Charles le Gai Eaton, QueerTelevision, Citytv, April 8, 2001، 8 ابريل (نيسان) ، ٢٠٠١.

٧- Bruce Feiler, *Abraham: A Journey into the Heart of Three Faiths* (New York: William Morrow, 2002), p. 180.

٨- بروس فايلر Bruce Feiler مستشهدا بصحافي محلي ، المصدر السابق ، ص ١٨١.

٩- تقرير: اغسطس (آب) - ديسمبر (كانون الأول) ، ٢٠٠٢ ، أكاديمية تعلُّم الاسلام Academy for Learning Islam ، ريتشموند ، بريتش كولومبيا. أُعِدَّ التقرير لمناسبة اقامة معرض "روح الاسلام" في متحف الانثروبولوجيا ، جامعة بريتش كولومبيا ، فانكوفر.

١٠- "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء..." (٤: ١). انظر ايضا الآية ٤: ٥٧ التي تقول : "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سنُدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا لهم فيها أزواج مطهَّرة وندخلهم ظلا ظليلا". لاحظوا أن كلمة "ازواج" ترد هنا ايضا بحياد يفيد معنى الجنسين معا دون تحديد أي منهما.

١١ـ وعليه فانه عندما يهتف المحتجون المعادون للمثليين ان "الله خلق آدم وحواء ولم يخلق آدم وحوّاس" ، ينبغي ان نتذكر أن القرآن قد لا يتفق مع هذا الموقف...
١٢ـ "...واتقوا الله الذي تَساءلون والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا" (القرآن ، ٤ : ١)
١٣ ـ "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من اموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله والتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن". (القرآن ، ٤: ٣٤).
١٤ ـ الفقرتان ٦ (أ) و ٦ (ب) من اعلان القاهرة. أنظر ايضا
Ann Elizabeth Mayer, *Islam and Human Rights: Traditionand Politics* (Boulder: Westview Press, 1999)
١٥ ـ "نِساؤكم حرث ولكم فأتوا حرثكم أنىَّ شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملتقوه وبَشِّر المؤمنين". (القرآن ، ٢: ٢٢٣).
١٦ ـ ندوة تلفزيونية لبرنامج هوت تايب Hot Type في التلفزيون الكندي "سي بي سي" سُجلت في ٥ مارس (آذار) ، ٢٠٠٣.
١٧ ـ تشارلز جايكوبس Charles Jacobs، "*Why Israel and not Sudan, is singled out* " ، صحيفة بوسطن غلوب *Boston Globe* ، 5 اكتوبر (تشرين الأول) ، ٢٠٠٢.

١٨ ـ القرآن ، ٢٤: ٣٣. ويمكن العثور على اشارة اخرى تبرر الرق في ٤: ٢٥.
١٩ـ "إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين" (القرآن ، ٣: ٤٥) والآية التي تقول: "وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم

به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا" (القرآن ، ٤: ١٥٧).
٢٠ ـ "يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمتُ عليكم واني فضَّلتكم على العالمين" (القرآن ، ٢: ٤٧) ومرة اخرى في ٢: ١٢٢.
٢١ ـ "ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (القرآن ، ٢: ٦٢) ومرة اخرى في ٥: ٦٩.
٢٢ ـ "ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أُوتو الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب" (٣: ١٩)
٢٣ ـ "وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدِّقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شَرعَة ومنها جاءوا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (القرآن ، ٥: ٤٨).
٢٤ ـ "يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياءَ بعضُهُم اولياءُ بعض ومن يتولَّوهم فانه منهم والله لا يهدي القوم الظالمين" وكذلك في الآيات ٦١: ٥ و ٦١: ٦ و ٦١: ٧ و ٤٧: ٤ و ٣٩: ٧١ ـ ٧٣ و ٩: ٢٩.
وهناك آية مخيفة في سورة النساء تقول: "إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما" (٤: ٥٦).
٢٥ ـ برنامج باسم "غرفة الدردشة" The Chat Room ، محطة "سي تي في" ، بُث على الهواء في ١٩ يونيو (حزيران) ، ٢٠٠١.
٢٦ ـ "لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشدُ من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" (٢: ٢٥٦).

٢٧ ـ كان لهذه الاستعارة المجازية من المصداقية في صحافة التيار السائد حتى انها استمرت في الاستعمال بعد عام على ١١ سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠١. انظر على سبيل المثال شيما خان Sheema Khan,
The Language of Islam has been hijacked, *The Globe and Mail, 17 December, 2002* ، صحيفة ذي غلوب اند ميل ، ١٧ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٢.
٢٨ ـ مقتدر خان Muqtedar Khan في "مذكرة الى المسلمين الأميركيين" Memo to American Muslims من موقع www.islamfortoday.com
أعتذرُ عن الاستشهاد بخان كمثال على التزيين ـ اعتذر لأن عمله يميل الى ان يكون مدروسا وأمينا. وفي هذه الحالة يبين ما يمارسه خان من عملية تبييض وتنزيه انه حتى أكثر المسلمين صراحة يواجهون مشكلة في الاعتراف بدعم القرآن للعنف.
٢٩ـ "من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه مَنْ قتلَ نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون" (القرآن ، ٥: ٣٢).
٣٠ ـ People in the News: Osama bin Lden, CNN ، مقابلة مع اسامة بن لادن بثتها شبكة "سي ان ان" في اطار هذا البرنامج بمناسبات عدة منذ ١١ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠١.
٣١ ـ المحاجَّة التي أُشير اليها هي محاجَّة عبد اللهي النديم
Abdullahi An Nadim في The Islamic Counter-Reformation, *New Perspectives Quarterly* شتاء ٢٠٠٢. للاطلاع عليها انظر الموقع www.digitalnpq.org
٣٢ ـ علماء كثيريون يؤيدون هذا الطرح منهم محمود أيوب من جامعة تمبل Temple University انظر الفصل الممتاز الذي كتبه بعنوان

التقليد الاسلامي The Islamic Tradition, in Willard G. Oxtoby, ed.,*World religions: Western Traditions* (Don Mills, Ontario: oxford University Press, 2002)
يكتب البروفيسور ايوب: "ان الترتيب الأصلي لسور القرآن الذي وضعه جامعوه كان حسب الطول وان هذا الترتيب جعل من المتعذر تحديد التسلسل الزمني لآيات القرآن بصورة مؤكدة" (ص ٣٥٧).
٣٣ ـ وصية محمد عطا كما وردت في
Barry Rubin and Judish Kolp Rubin, *Anti-American Terrorism: A Documentary Reader* (Oxford, New York: Oxford University Press, 2002), pp. 233-238.
٣٤ ـ ابن ورّاق Ibn Warraq في صحيفة ذي غارديان ، ١٢ سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠٢ Virgins? What Virgins? *The Guardian*
٣٥ ـ قال لي ضباط مخابرات في تورنتو يعملون مع خبراء بمكافحة الارهاب في انحاء العالم ان الانتحاريين كثيرا ما يرتدون أكثر من لباس داخلي واحد أو يحشون المنطقة الحساسة من جسمهم بالجرائد لحماية اعضائهم التناسلية من قوة الانفجار.
٣٦ ـ وقت كتابة هذه السطور كان كتاب كريستوف لوكسمبرغ
Christoph Luxemberg, *The Syro-Aramic Reading of the Koran*
متوفرا باللغة الألمانية فقط ولذلك اعتمدتُ على اساتذة مختلفين من اساتذة اللغة الألمانية. كما عدتُ الى دراسات ومقالات بينها عمل الكساندر ستل
Alexander Stille, Radical New Views of Islam and the Origins of the Koran, *New York Times*
في صحيفة نيويورك تايمز ، ٢ مارس (آذار) ، ٢٠٠٢.

بالمناسبة قدم موقع www.badattitude.com قصة الزبيب

والحوريات على الانترنت بعنوان مثير هو "أنباء طيبة للشهداء النباتيين!". أحيانا لا يملك المرء إلا أن يضحك.
٣٧ ـ انظر على سبيل المثال وصف كارن ارمسترونغ Karen Armstrong في عملها
A History of God, pp. 139 and 148
٣٨ ـ كما اختلف الفقهاء حول عدد العذراوات الموعود بهن. إذا كان علم الرياضيات نفسه لا يمكن أن يكون دقيقا بوضوح فكيف يمكن لشيء أكثر ذاتيا ـ مثل معاني الكلمات ـ أن يُعتبر في حكم المطلق؟

في الجزء القادم: "متى توقفنا عن التفكير!"

الفصل الثالث

متى توقفنا عن التفكير

بحلول نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠١ ، كان قد أُتيح لنا جميعا نحو شهرين لاستيعاب الصور المتصلة. وكانت نُبذ من حياة الذين قُتلوا في مركز التجارة العالمي تُعرَض بلا نهاية على شاشات تلفزيوناتنا ، إحياء لذكرى ما لا يمكن زعزعته بقدر ما هي إحياء لذكرى ما لا يمكن التفكير فيه. ولكن الذهول العام أخذ يتبدد ، كما يجب ، واكتسبت المقابلات التي محورها "كيف أمكن لهذا أن يحدث" ، نبرة أشد حدة. وكان سؤال واحد لم يعد يحتمل التأجيل: ما علاقة الاسلام بهذا الهجوم؟

وبلا تردد ، اصدرت المنظمات الاسلامية في شمال اميركا سيلا متواصلا من البلاغات الصحافية التصالحية. وأخذت أسماء قادتها تظهر في صفحات الرأي. ويوما بعد آخر راح الناشطون في مجال "العلاقات العرقية" يناشدون الاميركيين وحلفاءهم أن لا يصبُّوا احباطاتهم على رؤوس المسلمين لأن غالبيتنا الساحقة "أناس أخيار". وأرسل لي اصدقاء في اوروبا أمثلة على خزعبلات مماثلة يجري تناقلها في وسائل اعلامهم. (١)

وكان متحدثون مسلمون ، عمليا ، يبدون استغرابهم قائلين: أنتِ يا هيئة الارسال البريطانية (بي بي سي) ، لقد وافقنا على أن نكون على موجاتكِ الهوائية ، وها نحن نعترف بأن شيئا ما ليس على ما يُرام في الاسلام. فماذا تريدون أكثر؟ وإسمعي يارويترز ، نحن هناك حيث نشجب المتشددين. هيا ، استشهدوا بأقوالنا! وأنت يا محطة فوكس ، نحن نتحاور مع اصحابك المحافظين ولا نتهرب منهم فلا تتهمينا بالتملص

للنفاذ بجلدنا.

أنا ، إذاً ، سأتهم أنفسنا بالمراوغة لتبرئة ساحتنا. فرغم كل استنكاراتنا للمرض الذي تعاني منه هوامش الاسلام ، تفادى المسلمون بمثابرة معالجة العلة التي تشل الدين كله ـ بقاء الاسلام السائد فوق النقد .

بعد شهرين على ١١ سبتمبر (ايلول) فعلتُ ما كنتُ أعلم بأني قادرة عليه. كتبتُ سلسلة مقالات تدعو الى مراجعة الذات (٢). فالمسلمون الذين يعيشون في الغرب يتمتعون بترف طرح اسئلة قاسية دون خوف من انتقام السلطة. والبرجان التوأمان اللذان لم يستحقا الانهيار أُحيلا الى انقاض ، بيد أن البرجين التوأمين اللذين كانا يستحقان الانهيار ، استمرا في رفع شكل ملموس لكنه لم يخضع للتمحيص من الاسلام. البرج الأول: خداع. والبرج الثاني: غرور.

وأوضحتُ أن الخداع يتمثل في أننا بدلا من الإقرار بوجود مشكلة خطيرة في جوهر هذا الدين ، مضينا ، انعكاسيا ، نسبغ رومانسية على الاسلام. وان ضغط الآخرين من أقراننا لايصال الرسالة ـ والرسالة هي **اننا لسنا جميعا ارهابيين** ـ أغرانا باجتناب الجهاد الأكثر حسما من كل أنماط الجهاد الأخرى: النقد الذاتي. كفانا هذا الاستسلام الطفولي لضغط الآخرين من أقراننا. كفانا ، ايضا ، التمادي في الغرور بأن الغربيين مدينون لنا باحترام انساني أساسي ولكننا لا ندين بشيء للقيم الغربية التي تتيح لنا هذه الفرصة للاحترام. وأشرتُ في احد مقالاتي الى ان جماعة مسلمة تتخذ من مدينة تورنتو مقرا لها دعت السياسيين في اعقاب ١١ سبتمبر (ايلول) الى الوقوف ضد التعصب المعادي للمسلمين. ومن بين الذين فعلوا ذلك سياسي مثلي على نحو سافر. وكتبتُ أني آمل بأن يتمكن هذه السياسي من أن يتوقع غضبا مماثلا من لدن المسلمين عندما يتعرض

في المرة القادمة نادٍ للمثليين أو مكتبة من مكتباتهم الى التفجير بالقنابل الحارقة .

ولخَّصتُ التحدي الذي طرحته على المسلمين الآخرين في الآتي: هل سنبقى طفوليين روحيا تكبلنا التوقعات بأن نخرسّ ونمتثل ، أم سنبلغ مرحلة النضج لنكون مواطنين مكتملي النمو مدافعين عن تعددية التأويلات والأفكار ذاتها التي تمكننا من ممارسة الاسلام في هذا الركن من العالم .

وانهالت الردود. كان غير المسلمين يتطلعون الى مزيد من الصراحة ، وكذلك قلة من المسلمين معهم. ولكن غالبية المسلمين كانوا على الضد من ذلك. البعض عدّني ناشزة صدمتني تجربة المدرسة الدينية ، وربما كان في تقويمهم شيء من الصحة بشأن وضعي الشخصي. ولكن طالما أنهم أصروا على الحديث عن صدمة ، لماذا لم اسمعهم ينبسون ببنت شفهة عن الصدمة الأكبر التي أحدثتها قلة من المسلمين المؤمنين في ١١ سبتمبر (ايلول)؟ ماذا كان لديهم يقولونه عن دور ديننا في ذلك الدمار؟ لا شيء. آخرون اتهموني بالتخبط في الهجوم لأن اسلام الاتجاه السائد قد رفضني. والحق أني رُفِضت ، ولكني لستُ أشعر بالخزي من ذلك. فما الذي يجعلني أطمح بالانتماء الى تيار سائد ، ضامر فكريا ومعوَّق أخلاقيا؟(٣)

لكني لم أنقاش كلَ رسالة تلقيتها. وان واحدا بصفة خاصة من اصحاب هذه الرسائل أسكتني وحملني على التفكير. فان هذا المسلم إذ أُصيب بالجزع من "الصورة الفظيعة" التي رسمتُها عن الاسلام ، علَّمني شيئا بناء. سأل صاحب الرسالة هل أعرف شيئا عن الإجتهاد؟ الإجتهاد وليس الجهاد (بل انه حتى ساعدني على تلفظ الكلمة: إجْتِهاد). وقال لي ان

الإجتهاد هو التقليد الاسلامي في التعليل والتوصل الى أحكام مستقلة ، الأمر الذي زعم أنه يتيح لكل مسلم ، ذكرا أو انثى ، طبيعيا أو شاذا ، شيخا أو شابا ، امكانية تحديث ممارسته أو ممارستها الدينية في ضوء الظروف المستجدة.

إجْتِهاد. أهو تقليد في الاسلام؟ أهو ما يتعلق باستقلال الفكر؟اللعنة عليّ (ربما بالمعنى الحرفي لكلمة اللعنه)

وإذ أمعنتُ التفكير في هذه القضية تذكرتُ وقوعي على كلمة "إجتهاد" في قراءات بعد فترة المدرسة الدينية. ولكنها ظهرت بلا ضجة ، مطروحةً على أنها نزعة شرعية منطفئة أكثر من كونها مفهوما ثوريا. يضاف الى ذلك ان الانطباع الذي كان عندي هو ان المرجعيات الدينية وحدها التي بإمكانها أن تتعاطى تفسير القرآن بصورة مشروعة. وقد دفعني علمي بفكرة الإجتهاد الى التساؤل: من هم هؤلاء المرجعيات في فقه الدين؟ قصدي ، هل يعترف القرآن بمرجعية دينية رسمية؟ لا. هل أن التقلبات الجامحة في مزاج القرآن تجعل أي تفسير لنصه انتقائيا وذاتيا؟ إي والله. فهل من الجائز أن يكون الحق في ممارسة التفكير المستقل ، أو تقليد الإجتهاد ، متاحا في الواقع لنا جميعا؟ وان "آيات الله" الذين يطالبون بإتباع فتاواهم هم الهرطيقيون الحقيقيون من خلال استئثارهم بهذا الحق؟

كالعادة ، بدأت أقرأ وأنقب وأتحادث مع الفقهاء. مَنْ جعل الإجتهاد تقليدا؟ أين مورس وفي أي مجتمع؟ نبشتُ حتى توصلت الى الصورة الآتية: أن روح التحري كانت عصب الحياة في عصر الاسلام الذهبي بين حوالي ٧٥٠ و ١٢٥٠ ميلادية. وفي العراق ، قلب الامبراطورية الاسلامية ، كان المسيحيون يعملون جنبا الى جنب مع المسلمين لترجمة الفلسفة

الاغريقية واحيائها. وفي اسبانيا ، الطرف الغربي لمشارف الاسلام ، قام المسلمون بتطوير ما يسميه مؤرخ من جامعة يال "ثقافة تسامح" مع اليهود(٤). وقد منحتنا هذه الملل متكاتفة ما كان المقدمة التي مهدت طريق العولمة ـ ترابط التكنولوجيا والمال والبشر. إذ كان المسلمون يتعاطون التجارة بنشاط مع غير المسلمين ليكونوا رواد نظام يمكن في اطاره تحرير شيك في المغرب وصرفه في سوريا. وأثمرت التجارة في اتجاهين حركة مزدهرة في الأفكار ايضا. دعوني أسلط الضوء على بعض مساهمات الاسلام في الثقافة الغربية(٥): آلة الغيتار الموسيقية ، علاج السعال ، الجامعة ، الجبر وتعبير !Ole الذي يعود في جذره الى ابداء الاعجاب من خلال لفظة "الله!" (ألقوا باللائمة عن اختراع آلة "الخُشخيشة" الموسيقية على أحد آخر).

مضى التجديد وروح الإجتهاد متساوقين. وفي مدينة قرطبة جنوبي اسبانيا على سبيل المثال ، قامت امرأة جذابة جنسيا تُدعى ولاّدة بتنظيم صالونات أدبية لتفسير الأحلام والشعر والقرآن(٦). وكان رواد هذه الصالونات يناقشون ما حرَّمه القرآن على الرجل والمرأة. ولكن ما هو الرجل وما هي المرأة؟ كانوا يناقشون في هذه المسائل ايضا. كان ذلك زمنا بوسع المرء ان يناقش فيه دلالات القرآن للخنثيين ، الذين يولدون بأعضاء الجنسين معا.

في هذه الأثناء ، في بغداد كان مركز الامبراطورية يمور بالنشاط. فيها كان مقر خليفة الاسلام. وأكان ذلك بالانتخاب أو القتل أو بالاثنين معا فان الخلفاء تعاقبوا على الحكم بعد النبي محمد بوصفهم قادة أمة المسلمين المتنامية ومرشديها الروحيين. وفي بغداد فتح الخليفة المأمون ، الذي تولى الخلافة في القرن التاسع ، ما عُرف باسم "دار الحكمة" ـ "أول معهد للتعليم العالي في العالم الاسلامي والغربي" ، بحسب محمود أيوب

من جامعة تمبل Temple University(7). ولكن قرطبة المنافِسة ما كانت لتتخلف وراء الركب بوصفها بوتقة أفكار فأصبحت موطن ٧٠ مكتبة. ويعني هذا الرقم مكتبة مقابل كل حورية يعتقد الشهداء المسلمون أنها موعودة لهم. مكتبات يومذاك ، وحوريات اليوم ـ يا له من تناقض في الأولويات ، أليس كذلك.

كيف أدى أي من هذا الى تنمية انفتاح على اليهود والمسيحيين؟ للإجابة مستويات متعددة ولكن من حيث الجوهر فان التسامح كان خير وسيلة لبناء الامبراطورية الاسلامية وصيانتها. فبادئ ذي بدء عمل غالبية الفاتحين المسلمين وفق القاعدة الأساسية القائلة ان ليس بالامكان فرض الاسلام بالاكراه على أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين. وأثبتت هذه القاعدة أنها كانت الأفضلية الاستراتيجية التي تمتع بها الاسلام الامبريالي على المسيحية الامبريالية. ولنكن واقعيين فان الصليبيين الكاثوليك ما كانوا ليسمحوا لليهود والمسيحيين الهرطيقيين بممارسة شعائر دينهم. أما المسلمون فقد سمحوا لهم ضامنين بذلك أنهم عمليا لن يلقوا مقاومة تُذكر من الأقليات الدينية خلال فتوحاتهم. وهكذا ، على سبيل المثال ، ابتهج اليهود عندما قام المسلمون بغزو القدس في عام ٦٣٨ ميلادي وانتزعوا مدينة داود من البيزنطينيين الذين دنسوا الأماكن اليهودية المقدسة باستخدامها مزابل يرمون فيها قاذوراتهم. وقد بادر المسلمون الظافرون الى تنظيف المكان ودعوة العائلات اليهودية الى العودة.

لاحقا ارتقى اليهود بالتعاون الى مستوى أعلى وأخذوا يشاركون في العمل العسكري مع المسلمين. وإذ كان يهود اسبانيا يعانون في ظل الأسياد المتعصبين لمذهبهم الكاثوليكي ، راحوا يتوسلون بمسلمي المغرب أن يحرروهم بالاستيلاء على شبه جزيرة ايبيريا. ونشأ تحالف

غريب: جعل المسلمون من اليهود عيونا لهم ضد أي زحف مباغت عليهم يقوم به جيش البابا. وبالمعلومات التي جمعوها من اليهود سبى المسلمون اسبانيا في سنة ٧١١ ميلادية. (في الطريق اليها عبَرَ قائدهم طارق بن زياد كتلة من الصخر اسهما الحالي بالانجليزية Gibraltar مشتق من اسمها العربي "جبل طارق"(٨). وكانت هذه فاتحة كثير من الكلمات ذات الأصل العربي على غرار كلمة Ole! الاسبانية المشتقة من لفظة "الله!" تعبيرا عن الإعجاب).

الجزء الصعب من بناء امبراطورية هو ليس تكديس ما يُقهر من أقاليم تحت سيطرتها بل النجاح في تنظيم الحياة داخل اراضيها مترامية الاطراف. وكانت هذه مهمة مزدوجة واجهت العرب الذين ، بحسب ناقد في مجال الثقافات ، كانوا "محاربين لا اداريين"(٩). ولكن هؤلاء المحاربين كان لديهم ما يكفي من العقل لأن يدركوا حاجتهم الى خطة يطبقونها في اليوم التالي على فتح هذا الاقليم أو ذاك. لذا كان الحكام المسلمون يعيِّنون الأكثر ذكاء من بين رعيتهم لإدارة العمليات المتعاظمة التي ترتبط بشؤون الامبراطورية. كانوا بحاجة الى نواب على دارية بالأعباء والمصاعب الناجمة عن ادارة جماعات بشرية مُقتَلَعة. وهم كانوا بحاجة الى مَنْ كانوا مواطنين عالميين في حقبتهم. وهنا جاء دور اليهود الذين لعبوه على أحسن وجه. فمن اسبانيا الى العراق عمل اليهود ديبلوماسيين كبارا ومساعدين عسكريين وأطباء قضائيين ومصرفيين ، متولين في الواقع مهمات من شتى الأصناف.

ولا بد لي من التساؤل ما إذا كان اليهود قد أسهموا في جعل بغداد خيارا طبيعيا لأن تكون عاصمة الامبراطورية الاسلامية. فهنا أقام الشتات اليهودي ، بعد سقوط آخر ممالك بني اسرائيل في عام ٧٠ ميلادي ، مركزا ذا شهرة عالمية لدراسة التلمود. وعندما وصل المسلمون الى

بغداد كان لدى هذه الحاضرة البابلية القديمة اصلا نخبة يهودية متعلمة بامكان الخليفة أن يستمد منها خبراء يعملون مستشارين له. وهذا بدوره مهد الطريق لأن ينقل حاخامات بغداد تعاليمهم علنا الى اليهود في انحاء العالم حيث كان ٩٠ في المائة منهم يعيشون في ظل حكام مسلمين. (في القرنين التاسع والعاشر كان اليهود يشكلون نصف السكان في مناطق من اسبانيا) (١٠). وبفضل سهولة تدفق الأفكار في ذلك الزمن ، كما يقول أحد الباحثين ، "اصبح التلمود وتفسيره للتوراة ، المرجعية المركزية في حياة اليهود".

لا يسع المرء إلا ان يهيم بحب التكاتف: فيما كان الاسلام يعيش عصره الذهبي منفتحا على مؤثرات الحياة الفكرية اليهودية ، كان اليهود أيضا يخطون خطواتهم المجيدة مستلهمين الثقافة العربية الاسلامية. وتدفقت القصائد العبرانية سيالة من قلم شمويل هاناجد ، الحاخام ، هاوي الشعر ، الذي خدم رئيسا للوزراء في بلاط ملكيَن مسلمَين من ملوك الاندلس. وخذوا ما تشاءون من الوقت لهضم هذه الحقيقة.

لا شيء من هذا يعني ان الحضارة الاسلامية كانت كلها ربيعا من الوئام والانسجام لليهود والمسلمين. لا والله. فابتداء من القرن الحادي عشر عملت الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم في الاندلس على تقويض التسامح بطاغوتها. ولكن حتى وقتذاك لم يكن موت التقارب الثقافي آنيا. فان معتنقي الديانات الابراهيمية الثلاث كلهم هربوا للنجاة بحياتهم وتوطنوا مجددا وواصلوا التزاوج بين بعضهم البعض دامجين كل شيء في بوتقة واحدة ، من اللغات مرورا بحكايات الجن الى الفلسفات.

سأروي لكم حياة مَنْ تعبِّر عن الديناميكة التي أتحدث عنها: انها حياة

موسى بن ميمون ، الذي كان فيلسوفا وحاخاما وطبيبا وعالما اخلاقيا يهوديا كبيرا. نشر ابن ميمون غالبية أعماله باللغة العربية حصرا. (اول رئيس وزراء اسرائيلي ، ديفيد بن غوريون ، تعلم العربية خلال فترات الغداء ليتمكن حقا من تقدير ابن ميمون) (١١). ولكن ابن ميمون لم يرتكب خيانة روحية. فالى جانب كونه أول من قام بتدوين القوانين الشرعية لليهودي الاعتيادي (توراة مشْنا التي كتبها بالعبرية) كان هذا الطبيب الوقور ايضا مؤلف العمل اليهودي الكلاسيكي "دلالات الحائرين". وإذ ادرك ابن ميمون أن نوبة مفاجئة من الفكر التجديدي يمكن أن تسبب تشوشا أخلاقيا ، أراد أن يحتفظ اليهود بمبادئ توراتية سليمة دون أن يقعوا في تبليد أنفسهم بأنفسهم. وهذا المقطع من كتاب "دلالات الحائرين" يبين أمانته الفكرية: "ان من طبيعة الانسان أن يحب ما هو مألوف له ونشأ فيه وأن يخاف من كل شيء غريب. وتعدد الاديان وما يترتب عليها من لاتسامح متبادل ناجم عن حقيقة ان البشر يبقون أوفياء للتربية التي تلقوها" (١٢).

ما يجعل حياة ابن ميمون الفكرية أكثر مدعاة للاعجاب انه عاش في الفترة العصيبة التي أعقبت استيلاء امراء الطوائف على قرطبة ، مسقط رأسه. وفي حوالي عام ١١٥٠ ميلادي هرب ابن ميمون وعائلته الى شمال افريقيا ثم الى ما هو اليوم اسرائيل قبل أن يلقي رحاله أخيرا في مصر. وهناك أصبح طبيبا لكبار القواد العسكريين عند صلاح الدين ، البطل العسكري المسلم الذي اجهض الموجة الأولى من الصليبيين البابويين. وازاء سيف التطرف الاسلامي الذي كان مسلطا ـ في الاندلس إن لم يكن في سواها ـ فقد كان بمقدور ابن ميمون ان يتقوقع في يقينياته الدينية أو الثقافية المطلقة ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل عمله طبيبا في مصر. وكان يعاين المرضى المنتظرين في طابور على بابه ويدرس مع ابناء طائفته اليهودية ويكتب للعالم الأكبر منها. هكذا كانت القريحة

الابداعية الدافقة لمن جعلوا العصر الذهبي أكثر تألقا ، حتى في ساعة أفوله.

كان لإبن ميمون ند مسلم لا يكبره إلا تسع سنوات ـ الفيلسوف والطبيب والعالم الرياضي والقرطبي مثله ابن رشد (الذي كثيرا ما يُعرف بالاسم اللاتيني Averroes). وفي اسبانيا دافع ابن رشد عن حرية العقل ذاتها التي كان ابن ميمون يجسدها على الجانب الشرقي الأبعد ، غير هياب من الاختلاف مع الثيوقراطيين. وجادل ابن رشد مدفوعا بصعود شكل متعصب من اشكال الاسلام ، بأن الفلاسفة هم خير من يفهم على الوجه الصحيح الآيات الرمزية في القرآن على اساس درْبَتهم المنطقية ، وانه ليس هناك حكم ديني يقضي بتفسير أي آيات كهذه تفسيرا حرفيا (١٣). ونحن نبصم على هذا القول بكلمة آمين.

ولِمَ التوقف عند هذا الحد؟ فان ابن رشد ، اكثر من أي اوروبي آخر ، أكان مسلما أو غير مسلم ، نادى بمساواة الجنسين. وفي اجتهاده ان "مقدرة المرأة غير معروفة" لأن حياتها قُصرت على "فعل الانجاب وتربية الاطفال ورضاعتهم" (١٤). وحذَّر ابن رشد ، ببعد نظر ، الأوصياء على الحضارة من أن معاملة المرأة وكأنها عبء على الرجل هو "أحد أسباب البؤس". وبجرأة كهذه اصبح ابن رشد "عبئا" على القوى السائدة ذات الاسلام المتزمت فنفته الى مراكش في المغرب ، وعشية القرن الثالث عشر توفي ابن رشد في ظروف مشبوهة.

إذ كنتُ أفكر في ما قد يكون أصاب عقل ابن رشد المتقد ، ألححتُ في التساؤل: كيف أمكن لملاذ تأمن فيه الهرطيقية ، مثل اسبانيا المسلمة ، أن يغدو معقلا للتزمت؟ متى توقفتْ بقية الامبراطورية الاسلامية عن

التفكير؟ ما الذي وجه الضربة القاضية الى عصر الاسلام الذهبي ، وما معنى ذلك لنا جميعا اليوم؟

الأهم ثم المهم. يتضح ان منحرفين دينيا حجبوا الرؤية السليمة عن اسبانيا المسلمة. فالمعتمد بن عباد ، حاكم اشبيلية المسلم ، كان يريد تحصين امارته ضد تهديد الفونسو ، ملك قشتالة المسيحي. ولتفادي خطر الفونسو استنجد المعتمد بمسلمين أشداء من المغرب هم المرابطون. وتولى المرابطون ، كما هو ديدنهم ، أمر الفونسو ولكنهم بسطوا سيطرتهم بعد ذلك في حملة ضارية من أجل النقاء اللاهوتي ، وهو ما لم يكن المعتمد يتوقعه بالمرة. كان المرابطون يكرهون الحريات المتاحة في اسبانيا المسلمة ، التي اعتبروها نتيجة بدعة منافية للدين. وكانوا يحتقرون اليهود ويستهجنون النساء وينفرون من النقاش واتخذوا موقفا تبشيريا مهووسا. صدقوني ، ان إبعاد ابن رشد لا يعطي حتى ولو فكرة عابرة عن حجم تجاوزاتهم. وذهب أهل الكهف اولئك حتى أبعد. هل سمعتُم ذات يوم عن الغزالي؟ كان مفكرا من مفكري بغداد اتهم الفلاسفة الليبراليين المسلمين بـ"التهافت". فهل كان هذا موقفا يمكن أن يعتمده المرابطون؟ كلا. ولكن المرابطين اعلنوا الغزالي نفسه مغرقا في الليبرالية وأحرقوا أعماله أمام الملأ. كما نكَّلوا بالصوفيين والباطنيين المسلمين الذين قرؤوا القرآن قراءة مجازية لا حرفية.

أتعرفون ما أجد فيه عبرة من هذه الواقعة؟ أن اسبانيا المسلمة لم تسقط تحت ضربات المسيحيين. صحيح أن المسيحيين قطفوا ثمار الانهيار ولكن البهائم الذين اسقطوا اسبانيا المسلمة كانوا مسلمين. وهل تعرفون ما يوحي لي هذا به؟ أن المسلمين فرضوا الأحكام العرفية وراحوا يصادرون حريات بعضهم بعضا **قبل** ظهور الاستعمار الأوروبي.

ما أُريد توصيله أن متاعبنا لم تبدأ مع الصليبيين الغادرين بل أن مشاكلنا بدأت معنا. وحتى يومنا هذا يستخدم المسلمون الرجل الأبيض سلاحا من أسلحة الإلهاء الشامل ـ الإلهاء عن الحقيقة الماثلة في اننا ما كنا قط نحتاج الى الغرب "الظالم" لظلم أنفسنا.

سأُوضح هذه النقطة أكثر بتحويل نقطة التشديد الى بغداد. أتذكرون الخليفة المأمون الذي حكم في القرن التاسع؟ اعتنق المأمون شكلا من الاسلام يشجع الفكر العقلاني ويستبعد كل ما يذهب الى أن للقرآن أصولا إلهية. وفي المقام الأول ، أن لاهوت المأمون أصر على الارادة الحرة لكل كائن بشري. طيب. في انقلاب مذهل على الارادة الحرة والفكر العقلاني على السواء ، شن المأمون حملة شعواء ضد المسؤولين الذين لم يتفقوا مع تفسيره للاسلام! وقد جُلد بعض المعترضين وسُجن البعض الآخر. وحكم خَلَفُ المأمون بضرب عنق معارض واحد على الأقل (١٥). مَنْ غير المأمون يمكن تحميله مسؤولية هذه الفظائع؟ كنيسة الروم؟ حاولوا مرة اخرى؟ اليهود؟ كلا مع الأسف. محطة "ام تي في" التلفزيونية الخاصة بالموسيقى؟ ولا هذي ايضا. أو لا تحزرون مَنْ تبقى؟

بعد ثلاثة عقود من "الارادة الحرة" ، المفروضة فرضا ، تراجع المأمون أولا ثم ابن عمه ، الذي جاء خليفة من بعده ، عن السياسة السابقة وأعدَّا الساحة لمذهب جديد يعم البلاد الخاضعة لحكمهم. وقضى هذا المذهب بأن على المؤمنين أن يقبلوا بما ينص عليه القرآن "دون أن يسألوا كيف" (١٦). باختصار ، ليس شغلنا أن نتساءل كيف يطبق الله قوانين معينة لأننا عاجزون عجزا مطلقا عن اقامة صلة به ـ الواحد الأحد الذي لا مثيل له ولا يمكن اكتناهه. كلامه المنزَّل غني عن البيان وما علينا إلا الامتثال. من الواضح أن الامتثال لم يكن موقف الجميع. انظروا الى ابن رشد ، ومعه أي عدد من الكافرين جهارا قبله. ولكن إذ نتطلع من حولنا

الآن يبدو ان لواء النصر عُقد لهذه الارثوذكسية المتزمتة التي تحكم بأن لا يسأل المرء كيف. وهي انتصرت أساسا لأن ميزان القوى السياسي كان لصالحها. وقد استمرت روح التفكير المستقل في بعض جيوب الامبراطورية ولكن تقليد الاجتهاد المعترف به رسميا أُجهض عن سابق اصرار. ولكم أن تسألوا بكل حرية كيف حدث ذلك.

للاجابة ، عليّ أن أعدّ المشهد موضحة أن المسلمين الأوائل اختلفوا على خلافة النبي في عام ٦٣٢ ميلادي. البعض طالب بأن تكون الخلافة لصهره وابن عمه الشاب نسبيا علي بن أبي طالب. وأيد مسلمون أكثر ان تؤول الخلافة الى أكبر الصحابة سنا ، ابو بكر. وتسببت هذه الصراعات الدموية في حدوث أول انقسام بالاسلام: الشيعة المنشقون (جماعة علي) في مواجهة الغالبية السنة (أهل السنة أو التقليد). وعلى امتداد حوالي ٢٧٥ سنة بقي هذا الانقسام خامدا تحت الرماد ليشتعل بروح انتقامية في سنة ٩٠٩ ميلادية عندما أعلنت جماعة شيعية منشقة قيام حكومة منفصلة داخل الامبراطورية الاسلامية ذات القيادة السنية. وعندها أوحى اعلان الشيعة عن صعودهم ، لحاكم اسبانيا الاسلامية بأن يعلن دعواه المقابلة بكونه "أمير المؤمنين" ـ أو الخليفة إذا توخينا الاختصار. وفي غمرة هذه الفوضى عمد النظام في بغداد الى غلق ما كان هناك من ثغرات ورص صفوفه.
وفي غضون أجيال قليلة أخذت بغداد على عاتقها غلق شيء آخر الى جانب الثغرات ـ أبواب الاجتهاد ومعها تقليد الفكر المستقل. وبذريعة حماية أمة المسلمين جمعاء من الانقسام (أو جريمة الفتنة) أجمع العلماء الذين كانوا يحظون برضا بغداد على تجميد النقاش داخل الاسلام. وكان هؤلاء العلماء ينهلون من عطايا الحاكم فلم يكن في نيتهم التغني بالانفتاح في وقت كان اسيادهم يريدون منهم أن ينعبوا لا أن يغردوا. لذا كان كل ما يحتاج المسلمون الى معرفته ، معروفا من منظور هؤلاء المدفوع

ببواعث سياسية. هل لديكم اسئلة جديدة؟ ان المذاهب السنية الاربعة القائمة تستطيع الاجابة عنها. ألم تتعامل هذه المذاهب قط مع اسئلة جديدة كأسئلتكم؟ إذاً ستلجأ الى التقليد قياسا على احكام سابقة. فان الريادة والمبادرة ممارسة لا تُطاق.

نحن في القرن الحادي والعشرين نعيش عواقب هذه الاستراتيجية البالغ عمرها الف عام في سبيل الحفاظ على الامبراطورية من الانهيار. أو لم تسمعوا بالنبأ؟: أن الامبراطورية الاسلامية لم تعد قائمة. أقولها ثانية ، أن الامبراطورية تَمتُّ الى الماضي ونحن هنا ، وابواب الاجتهاد ـ عقولنا ـ تبقى مغلقة ، في الغالب. لماذا؟ لماذا يواصل مسلمو الاتجاه السائد قمع قواهم العقلية علما بأن الهدف المعلن من القاعدة التي تقضي بعدم التفكير ـ الحفاظ على سلامة ديار الاسلام ، من العراق الى اسبانيا ـ هو الآن مسألة فيها كثير من النظر؟ اعطوا رؤوسكم خضة يا اصدقائي. فالشيء الوحيد الذي حققته هذه الاستراتيجية الامبراطورية هو انتاج أكثر اشكال القمع رسوخا بحق المسلمين على يد المسلمين انفسهم: الحجر على التأويل.

دعوني أتحدث بقدر أكبر من الملموسية. مع غلق ابواب الاجتهاد اصبح حق التفكير المستقل امتيازَ المفتي ، أو الفقيه ، في كل مدينة ودولة. ويقول محمود ايوب أن المفتين "حتى هذا اليوم يصدرون الآراء الشرعية التي تُسمى فتاوى طبقا للمبادئ التي تقوم عليها مذاهبهم. وقد أعدت مجاميع من الفتاوى الشهيرة لتكون بمثابة دليل ، لا سيما للمفتين الأقل ابداعا أو مقدرة" (١٧). الأقل ابداعا؟ الأقل مقدرة؟ بدلا من أن نُقلّد تقليدهم لأحكام بعضهم بعضا أليس حريا بنا أن نهز أبواب الاجتهاد ونخلع اقفالها؟

خذوا مثالا آخر على مدى احترامنا لما هو فائض عن الحاجة: قانون الشريعة. بعدما قيل لهم ان الشريعة تجسد المُثُل الاسلامية العليا افترض غالبية المسلمين ان الشريعة مقدسة. هراء في هراء. يكتب الداعية الاصلاحي ضياء الدين سردار "ان القسم الأعظم من الشريعة ما هو إلا الرأي الشرعي لفقهاء كلاسيكيين" ـ بكلمات اخرى فقهاء المذاهب السنية الاربعة. وإذ وُضعت هذه الأحكام في زمن الامبراطورية فقد جرى تطبيقها منذ ذلك الوقت. ويقول سردار "أن هذا هو السبب في انه كلما فُرضت الشريعة ـ خارج سياق الزمن الذي وُضعت فيه وبالتناشز مع زمننا ـ تكتسب المجتمعات الاسلامية احساسا قروسطيا. هذا ما نشهده في العربية السعودية وايران والسودان وافغانستان في ظل حكم طالبان"(١٨).

حتى عندما لا يبدو أن الشريعة مطبَّقة يبقى التقليد مُطبَّقًا. فمؤخرا رمى طلاب احدى الجامعات في فلسطين استاذهم من نافذة الصف في الدور الثاني. جريمته؟ اعادة تفسير التاريخ الاسلامي المبكر (١٩). بقي الاستاذ على قيد الحياة ولكني لستُ واثقة من أن فلسطين تستطيع الحياة وصفوة ابنائها يُبدون مثل هذا الاحتقار للبحث والاستقصاء. ثم هناك الموقع المؤيد للشيشان على شبكة الانترنت حيث يمجّد التقليد باسلوب أرقى بعض الشيء(٢٠). فهو يقوم بتنغيل عبقرية ابن ميمون محوِّرا عمله الى "دلالات الحائرين في جواز قتل المأسورين". تصوروا كيف تنفستُ الصعداء حين علمتُ أن قتل الكفار "جائز" (بل أنه واجب) ـ ما لم يقرر الإمام أو من ينوب عنه خلاف ذلك. يا لها من راحة! على الأقل لم يكن عليّ أنا أن أُفكر في الأمر.

بعدما اكتشفتُ كيف أصبح النقل هو القاعدة في الاسلام بقي شيء آخر يحيِّرني. إذا كنا سنمارس النقل فلماذا لا ننقل التسامح بدلا من الطغيان؟

ألم تكن لدينا سابقة متعافية نقتدي بها ـ أو نقلدها ، ليكن ـ في الطريقة التي تعامل بها المسلمون مع اليهود والمسيحيين خلال عصر الاسلام الذهبي؟ لماذا ، إذاً ، انزلق الكثير منا في هاوية لا قرار لها من المشاعر المسمومة ازاء غير المسلمين؟

طرح هذه الاسئلة حقق لي أكثر مما كنتُ اراهن عليه ، لأني ، أثناء تنقيباتي ، أدركتُ ان تسامح المسلمين مع اليهود والمسيحيين كان على الدوام تسامحا هشا. فخلال العصر الذهبي كان التسامح في غالب الأحيان أشبه بالازدراء من الدرجة الخفيفة منه بالقبول.

هناك باحثة اوروبية مصرية الأصل ، تصب ماء باردا على كل نظرة حالمة الى الطريقة التي تعامل بها المسلمون تاريخيا مع "الآخر". اسمُها بات يئور. وهو في الحقيقة اسمُها المستعار الذي انتحلته لأن ما تطرحه يدفع كثيرا من المسلمين الى سورات من الغضب. وكانت يئور هي التي نحتت كلمة باللغة االانجليزية تفيد معنى "الذمية" وهي كلمة dhimmitude لوصف ايديولوجيا الاسلام في التمييز الجماعي ضد اليهود والمسيحيين (٢١). لماذا هذه الكلمة الجديدة؟ لأنها مشتقة من مصطلح "الذميين" الذي يُستخدم للاشارة الى هاتين الجماعتين ـ من أهل الكتاب أمثالنا ـ الذين يحق لهم التمتع بالحماية في المجتمعات الاسلامية.

الحماية؟! لنتفحص بإمعان الفرضية الكامنة وراء هذا المبدأ. لماذا يحتاج اليهود والمسيحيون الى حماية خاصة إذا كانوا من أهل الكتاب مثلنا ، لهم من الحقوق والمسؤوليات ما للمسلمين؟ هذه هي المعضلة. فالمجتمعات المسلمة تلاقي صعوبة في معاملة اليهود والمسيحيين (دعكم عن سواهم) على قدم المساواة في الكرامة.

مثال: في دار الاسلام كان اليهود والمسيحيون تاريخيا يشترون الحماية ـ من حيث الجوهر يدفعون ثمنا عن أرواحهم ـ بدفع ضريبة خاصة تُسمى الجزية. والقرآن يبيح هذه الضريبة للحفاظ على السلام العام. وما هذه بالممارسة التي تراعي كرامة الآخر ، اليس كذلك؟ نعم ، لقد أثبت النبي محمد أن الإرادة الحرة ممكنة هنا. فعندما كان السلام العام لا يبدو مهدَّدا كان محمد لا يفرض الجزية. ولكن خيار جباية ضريبة كهذه بحد ذاته يبدو لي "ابتزازا" سافرا.

أبحاث بات يئور تسلط ضوء ساطعا على هذه التهمة. تأملوا في الشروط التي تردد أن محمدا أملاها على مجموعة من المزارعين اليهود بعدما نهب محاربوه واحتهم في خيبر شمالي المدينة. تكتب يئور: "سمح النبي لليهود بزرع أرضهم ولكن كمستأجرين لا أكثر ، وطالب بتسليم نصف محصولهم محتفظا بحق طردهم متى يشاء (٢٢). لستُ احاول التحرش بالنبي ، كل ما في الأمر أن موقفه كان من شأنه أن يعبد الدرب لانتهاج "سياسة واقعية" في الاسلام.

وإنصافا فان مؤرخين يشيرون الى ان محمدا ابدى اعجابا مديدا بجيرانه اليهود ، وحض المسلمين على مشاركة اليهود صيامهم في يوم الغفران. واعتبر يوم الجمعة الذي كان بداية عطلة اليهود موعد صلاة الجماعة عند المسلمين. واختار في الأصل القدس لتكون القبلة وليس مكة. وهذه كلها التفاتات رائعة. ولكن علينا أن نواجه السؤال التالي: هل من الجائز أن هذه كانت مجرد التفاتات قدَّمها سياسي بارع ، وان المغالاة في التشديد عليها تُلهينا عن الجانب المؤذي من الاسلام؟

اني الحُ في السؤال لسبب وجيه. فبعد سنوات ليست كثيرة على وفاة النبي ظهرت وثيقة مُقلقة ويُفترض انها ذات مرجعية موثوقة. قضت الوثيقة

بأن على غير المسلمين أن يقفوا عندما يريد المسلم أن يجلس ، وان على غير المسلمين أن لا يرمموا أو يستبدلوا ما خرب وتداعى من أماكن عبادتهم ، وان شهادة المسلم امام القضاء تعلو على شهادة غير المسلم. فتخيلوا هذه الصورة القاتمة. سُميت هذه الوثيقة "العُهدة العمرية". ومَنْ كان عمر؟ كان عمر الخليفة الثاني بعد وفاة النبي محمد ـ انسان عادل وحكيم بحسب كل ما قرأته عنه تقريبا. وانه لسر غامض كيف رُبط اسمه (أو لُطّخ) بسلسلة من مثل هذه الاملاءات العنصرية بلا أي وازع. ولأن هذا الجزء ليس واضحا يطرح السؤال نفسه مجددا: لماذا اختار المسلمون اللاتسامح على التسامح من خلال ما عُرف بـ"العُهدة العمرية"؟ أنا تعاهدت مع نفسي على إبقاء هذا السؤال في دائرة تحرياتي.

في هذه الغضون كل ما استطيع قوله أن "العهدة العمرية" كان لها تأثير حاسم في الاسلام خلال سنواته الأولى ـ وما بعدها. وفي مطالع القرن التاسع استخدم فقيه بارز الشروط التي تضمنتها "العهدة العمرية" اساسا للاشارة على الحكام المسلمين بنوع العلاقات التي ينبغي ان يسعوا الى اقامتها مع رعاياهم من غير المسلمين. وأعد هذا العالم الفقيه ما يشبه الاتفاقية المدبَّجة بصيغة نمطية. القوا نظرة على بعض الأحكام الموجهة الى اليهود والمسيحيين (٢٣):

- "أن لا تُشغِلوا وسط الطريق أو المقاعد في السوق معترضين سبيل المسلمين..."
- "أن تميزوا أنفسكم بسروجكم وما تركبونه من دواب".
- "أن تميزوا شُعورَكم بوسم..."
- "أن تشدوا الزنانير على وسطكم في كل ما ترتدون من ثياب وعباءات وغير ذلك بحيث لا تكون الزنانير مخفيَّة".

وتقولون أن هذه ليست امبريالية. إذ يعترف عبد العزيز ساكدينا استاذ الدراسات الدينية في جامعة فرجينيا أن الفقهاء والقضاة المسلمين فرضوا هذه الشروط بوصفها "نظاما من الأحكام التمييزية المباحة إلهيا" (٢٤). انها مباحة إلهيا. وهي نظام. إذا كانت الكلمات الأخرى في هذا العَقد لا تلفت انتباهكم توقفوا على الأقل عند كلمة "نظام". فهي تستحضر في الذهن ثقافة تواطؤ كاملة. وتلك نزعة ذمية دخلت الانجليزية بكلمة dhimmitude.

على امتداد ٥٠٠ عام كانت العصر الذهبي للاسلام ، مارست "العهدة العمرية" تأثيرها مؤدية الى التسامح الهش الذي لمَّحتُ اليه سابقا. دعوني أوضح بالملموس: كثير من اليهود والمسيحيين وجدوا أنفسهم في مأزق لا فكاك منه. فهم كانوا يستطيعون أن يرفضوا بأدب طلب حاكمهم المسلم أن يتولوا وظائف عامة ، وفي هذه الحالة يجازفون بإزعاله ، ولكنهم لو قبلوا الدعوة الى الانخراط في الخدمة لواجهوا خطر البطش بسبب خرقهم أحكام الإذعان والخضوع بموجب أحكام "العهدة العمرية" ، وفي هذه الحالة فان عائلاتهم وطوائفهم ايضا ستدفع الثمن.

أُريدكم ان تعرفوا مثال شمويل هانجد ونجله. قد تذكرون ان شمويل عمل رئيسا للوزراء عند اثنين من ملوك اسبانيا المسلمين. ورغم انه كان مبدعا متعدد المواهب ـ شاعرا وقائدا عسكريا ولاهوتيا ـ فانه مارس نفوذه بحذر. ويقول روفن فايرستون Reuven Firestone من كلية هيبرو يونيون العبرانية Hebrew Union College ملتقطا القصة: "عندما توفي شمويل في عام ١٠٥٥ عُين نجله يوسف للحلول محله. ورغم ان يوسف كان موهوبا على نحو استثنائي كوالده فقد كان متعجرفا وممقوتا. وأسهم تصرفه كما لو أنه ليس من أهل الذمة في سقوطه وفي النهاية قُتل في عام ١٠٦٦ وتعرض يهود غرناطة الى

مجزرة. وتقنياً فان يوسف ووالده على السواء خرقا العهد بقبول منصب رسمي رفيع وسلطة على المسلمين. وقد جرى غض الطرف عن هذه الحقيقة عندما كان شمويل يتصرف بتواضع استثنائي وكانت المملكة عموما مملكة سعيدة. ولكن عندما نشأ توتر ورفض يوسف أن يكون متواضعا فانه فرَّط بالحماية التي كان مشمولا بها كذمي. فقُتل ونُكّل بطائفته" (٢٥).

ولكن فايرستون يطلب منا ألا نغفل "الوضع الجيد نسبيا الذي تمتع به اليهود وغيرهم من الأقليات الدينية الاخرى في ظل الاسلام" (٢٦). وكثير من العلماء يتفقون معه في ذلك. ويشير أحد الاساتذة الى ان الأحياء اليهودية في العالم العربي الاسلامي إبان القرون الوسطى لم تعان من وصمة في حين عملت الكنيسة بنشاط في اوروبا المسيحية على منع الاتصال بين المسيحيين واليهود بتحديد الأماكن التي يمكن لكل جماعة ان تعيش فيها. وكانت الشوارع المخصصة للعبرانيين أو اليهود حصرا تبثُ "الشك والرعب في المخيلة الشعبية" للمسيحيين (٢٧). ما يرمي اليه الباحث هو: لا تتهجموا على الاسلام بسبب بعض المجازر التي ارتُكبت هنا وهناك بل قارنوه بمسيحية القرون الوسطى التي سعت الى محو اليهودية عن بكرة ابيها.

يمكن أن أفهم هذه المحاولة لإتخاذ موقف متوازن. ولكن لمصلحة قدر أكبر من التوازن ينبغي أن لا نستهين بالطرق الدنيوية المتقَنَة في تطبيق الشروط التي تنص عليها "العهدة العمرية". ففي شمال افريقيا كان اليهود والمسيحيون يضعون على مناكبهم رقعة رُسمت عليها صور خنازير وقرود لكل منهما على التوالي. وكان عليهم أن يلصقوا هذه الرموز على أبواب منازلهم ايضا. وفي بغداد ، مركز التنوير الاسلامي ، كان أهل الذمة يرتدون ملابس تحمل رموزا صفراء اللون ـ وهي علامة أحياها

النازيون. آمل ان تكون الوقائع التي شرعتُ في سردها قد أعانتكم على استكمال الصورة لديكم. فهذا هو ما فَعَلته لي. وبدأتُ أدرك كيف بات الاسلام دينا انعزاليا وفي احيان كثيرة دين كراهية. ولو جمعتم بين حظر على التفكير وشَرعَة تمييزية مطبَّقة منذ زمن طويل ماذا تكون الحصيلة التي لا بد أن تتوصلوا اليها؟ انها حصيلة من التقليد واللاتسامح ، وفي المقام الأول ستكون حصيلتكم **"تقليدا للاتسامح"**.

لعل البعض منكم يريد أن يصرخ: "قفي عند هذا الحد. كم من المرات يجب ان نكرر عليكِ اننا لا نرغب في مذلة اليهود والمسيحيين؟ اننا لا نريدهم ان يتجولوا في انحاء مدينتنا بنجوم صفراء ، أتفهمين؟ لا تتهمي المسلمين كلهم بـ"تقليد اللاتسامح ، رجاء". ولكن تقليد اللاتسامح يذهب أبعد بكثير من النجوم الصفراء. وما من مسلم أعرفه متحرر تماما من النظام الذي يكرسه.

سأسوق نفسي مثالا. لقد نشأتُ بعقدة خوف من الكلاب لأن الاسلام علَّمني ان الكلاب مخلوقات قذرة. وإذا اضطررتم الى استخدامها للحراسة فسدوا أنوفكم. وينبغي ألا تُرَبِّتوا على كلب بأي حال من الأحوال ، ناهيكم عن اعتباره حيوانا منزليا اليفا. وماذا عن الكلاب السود؟ انها شيطانية ، لا أكثر ولا أقل. وكنتُ في شطر متقدم من العقد الثالث من العمر قبل أن اتمكن من ملامسة كلب دون أن أتوقع عضَّة لمخالفتي كلام الله.

لهذا علاقة وثيقة بتقليد اللاتسامح. ففي الحديث ـ ما نُقل عن اقوال النبي وافعاله ـ تظهر كل المناسبات التي يأتي فيها ذكر الكلاب السود بجانب اشارات تحقيرية الى النساء واليهود. وبدلا من أن تكون هذه الأحاديث المنقولة موضوعية فانها تلعن الكلاب السود من خلال ربطها بـ"آخرين"

مذمومين. وإذا لم نضع الاحاديث موضع تساؤل وإذا لم نفتح أعيننا على أنماط التحامل فاننا يمكن بكل سهولة أن نسند نظاما يعامل ملايين من خلق الله بوصفهم كائنات دونية بل وكائنات مسحورة.

يبدو ذلك ضربا من الجنون ، أليس كذلك؟ ولكن العواقب حقيقية. اسمعوا تجربة بروفيسور في الشريعة الاسلامية من جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس انجيليس ، خالد ابو افضل. فهو يعرف شخصا اهتدى الى الاسلام ، أوعز اليه احد الملالي بالتخلص من كلبه. وقد اكتشف هذا الشخص الذي اعتنق الاسلام أن الكلب أينما تركه يعود الى عتبة داره. فطلب الرجل رأي الملا بشأن ما ينبغي عمله مع كلب يرفض الهجران.

كان جواب الملا أن يقوم هذا المسلم بتجويع كلبه.

عندما سمع الفضل بهذه القصة التي لا رحمة فيها ثارت ثائرته وانكب هذا العالِم في الشريعة الاسلامية ، المولود في الكويت والمتعلم في مصر ، يدرس النصوص الأصلية والتأويلات الاولى للتوثق مما إذا كانت لدى الملا حجة تشفع له. وحينذاك اكتشف كيف رُحِّل الكلاب والنساء واليهود بإسلوب تشهيري الى مصاف كائنات أدنى مرتبة (٢٨) ، ليس من قبل النبي محمد الذي يبدو ان اعتزازه بالكلاب بلغ حد الصلاة في حضورها وانما على يد فقهاء لاحقين. وعلى غرار البناء الفكري الذي هو الشريعة الاسلامية فان ذم الكلاب (واليهود والنساء) كان خيارا. وما كان الله هو الذي اختار ذلك بل حفنة من العرَّابين. وكثيرون منا يشترون رضاهم بقبول جوانب من نظامهم ولكننا لسنا مجبرين على التسليم بأي منه. وقد عمد الفضل وزوجته غرايس Grace الى تبنِّي ثلاثة كلاب ضالة ـ أحدها كلب اسود. زد على ذلك أن غرايس كثيرا ما تؤم صلاة العائلة. فان ممارسة الاجتهاد تدفعهم الى وضع حُب الخالق فوق قوانين البشر.

اسمعوا ، لا يتعين علينا ان نكون مثقفين افذاذا لممارسة الاجتهاد. كل ما ينبغي ان نفعله هو طرح تساؤلاتنا عن الاسلام بصراحة. ونحن جميعا لدينا تساؤلات مركونة في اعماق ضمائرنا.

بين الفَينة والاخرى كنا نتحرك بموجب ما تمليه علينا تساؤلاتنا ، بتردد ، وبتردد شديد. قبل مائة عام شهدت مصر مناقشات عامة حول الماركسية والالحاد ونظرية النشوء والارتقاء. وطبقا لأحد الباحثين كان زهاء ٥٠ صحيفة يومية و٢٠٠ اسبوعية تصدر بحرية مستشهدة بأقوال علمانيين يجاهرون بعلمانيتهم مثل فولتير (٢٩). كما انطلقت دعوات الى الاصلاح الديني. وبعدما قام ما تحقق من تقارب سياسي مع اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر بدور العامل المساعد ، تراجعت هذه النهضة الفكرية تحت وطأة الخطابية المعادية للاستعمار والضغوط السياسية من اجل التضامن العربي ، بما معناه رفض كل ما هو غربي. وبحلول عشرينات القرن العشرين اضمحلَّت غالبية التساؤلات الى همس. وفي حوالي هذا الوقت بادر مصري الى تأسيس جماعة "الاخوان المسلمين" ، التي كانت بمثابة شبكة "القاعدة" عند جيله. وكانت طقوس القبول في عضوية الخلايا الارهابية لجماعة الاخوان ، تتمحور على ركيزتين هما القرآن والمسدس. لم تكن هناك تساؤلات.

من الامثلة الراهنة على تقليد اللاتسامح ما يتبدى في اللاسامية الدُهانية (البارانويِّة) التي تجتاح مصر. ومن الصعب معرفة ما ينبغي تسليط الضوء عليه في مثل هذا الحيز الضيق فدعوني اوضح بإضحاكِكم. في اواخر التسعينات تبرعت اسرائيل بتشاطر تكنولوجيتها الزراعية مع مصر عملا بالحكم التوراتي القائل بتحويل السيوف الى محاريث. يا سلام! سوى ان الصحافة المصرية نشرت تقارير تحدثت عن توزيع بذور سامة وخِيار يسبب السرطان على الفلاحين المساكين. وتلقت هذه

الشائعات دفعة من حملة مصرية المنشأ اتهمت الاسرائيليين بتسويق منتوجين من المنتوجات الشريرة: علكة تسبب تشجنات شهوانية عند النساء وفاكهة معدَّلة وراثيا تَستنزف الحيوانات المنوية عند ازواجهن (٣٠). وهذا كله من بلد عربي يرتبط بمعاهدة صلح مع اسرائيل منذ عام ١٩٧٩!

الاردن هو البلد العربي الوحيد بجانب مصر الذي عقد اتفاقية سلام مع اسرائيل. ولكن صُحفا اردنية عديدة بينها يوميتان حكوميتان على الأقل نسبت ما حدث في ١١ سبتمبر (ايلول) الى "اليهود". اقرأوا ما ارتأت صحيفة اردنية اخرى من المناسب نشره مترجما من قبل معهد الأبحاث الاعلامية في الشرق الأوسط: "فكَّر يهود اوروبا في الانتقال الى الولايات المتحدة لبسط سيطرتهم المطلقة على رؤوس الأموال والمصارف والبورصة ووسائل الاعلام [الأميركية] وعملية صنع القرارات السياسية في مجلسي الكونغرس ، وهكذا كان. وتسلل اليهود الى صفوف الجيش الأميركي وخاصة السلاح الجوي ، وقاموا باعداد طياريهم لأخذ الطائرات عارفين ان بطاقات هوية المنتسبين الى الجيش الأميركي لا تشير الى الديانة. وعليه كانت الطائرات [تحت سيطرة] اليهود كما كانت الصحافة والراديو والتلفزيون والأرصدة المالية المودعة في المصارف والبورصة. وهكذا استحوذوا على عملية صنع القرار السياسي. لماذا يتجاهل بوش هذه الحقائق معلنا عن اجراء تحقيق للكشف عن المسؤولين وراء هذه الحوادث؟ انهم اليهود يا بوش!" (٣١)

أتعرفون ما يرعبني أكثر من حقيقة ان مصدر "هذه المؤامرات الكاسحة" هو بلد عربي مسلم "معتدل"؟ انها الحقيقة الماثلة في ان هذه المواقف تلاحق المسلمين الى الغرب. وإذا كنتُ بحاجة الى دليل آخر فقد حصلتُ عليه في رسالة عن مقالاتي بعد احداث ١١ سبتمبر (اليول).

بدأ صاحب الرسالة قائلا: "اني اعتبر نفسي مسلما ليبراليا" ثم شرع يمزقني اربا اربا لتدميري "كل ما عملتُ (ما عمله صاحب الرسالة) وما عمله مسلمون آخرون من اجل نشر رسالة الاسلام الحق". وماذا كانت "رسالة الحق" تلك "؟ سها صاحبنا عن القول مستغرقا في اماطة اللثام عن سيطرة الصهاينة على وسائل الاعلام الجماهيري مشيرا الى ان أعمدتي الصحافية "تدعم المنظمات اليهودية". وأكد لي هذا الليبرالي: "أنا لا اقول لكِ بأن تمارسي الرقابة الذاتية. ولكن عندما يقوم غير المسلمين والصهاينة باستغلال الآراء التي يبديها مسلم مثلكِ فان عليكِ أن تعيدي النظر" (٣٢).

السيد عبد الحق اثبت انه على حق في أمر واحد. فالصهاينة حقا اولوا اهتماما كبيرا بنداءاتي المنشورة من اجل الاصلاح. وبوصفي صحافية ذات سمعة بفتح الأبواب على مصاريعها وُجِّهت لي دعوة لزيارة اسرائيل في صيف ٢٠٠٢. وإذ رحتُ أفكرُ في العرض خطر لي شيء متميز على جانب من الأهمية. فالمسلمون يعاملون النساء معاملة فظيعة فظاعة معاملتنا اليهود ولكننا لا نحمِّل النساء مسؤولية تقرحاتنا الجيوسياسية وركودنا الفكري. فهل يمكن لذي عقل يفكر بصفاء أن ينظر الى اسرائيل على انها تحمل مفتاح المرور الى اصلاح الاسلام؟

لبَّيتُ الدعوة لزيارة اسرائيل بشرطين: أن يُسمح لي بطرح أي اسئلة أُريد طرحها ، وأن أُساعد في تحديد برنامج الزيارة. وهما الشرطان ذاتهما على وجه التحديد اللذان ذكرتُهما لمنظمات عربية ومسلمة لدى استفسارها عن امكانية القيام بمهمة مماثلة. ولم يصدر رد من هذه المنظمات. لكن مضيفي الصهيوني استجاب مؤكدا لي ان بامكاني أن أكون شريكة في الزيارة بل ينبغي أن اكون شريكة في الزيارة ، وسأكون شريكة في الزيارة. فسألتُ نفسي مرة اخرى ، أينبغي أن اذهب؟

تذكرتُ السيد خاكي ومشاهدي برنامج "تلفزيون شاذ" *Queer Television* الذين القوا المسؤولية عن مثلية بعض المسلمين على عاتق "الخنازير" و"الكلاب" اليهود. فكرتُ في الناشطة النسوية التي احتمت بـ"ما يحدث للمسلمين في فلسطين" ذريعة لالتزام الصمت حول طالبان. واستشطتُ غضبا على المسلم "الليبرالي" الذي حذَّرني كي اعيد النظر في دعوات الاصلاح لأن المنظمات اليهودية تراقب ما يجري.

وإذ كانت الدراما العربية / اليهودية المشحونة بالعواطف الملتهبة شاخصة على الدوام أمام انظارنا ، قررتُ أن أرى بنفسي ما إذا كانت اسرائيل تستحق غضب المسلمين غضبا يشل الحركة. وأني لأتحدث عن الغضب الذي نستغله لتبرئة انفسنا من المسؤولية عن وضعنا ـ حتى وضعنا في الغرب حيث ننعم بحرية مراجعة اعمالنا شأننا شأن سوانا. وإذا كنا نريد قلب ما في ذهن المسلم من لاتسامح فعلينا أن نفتح أبصارنا ونتساءل: هل ان اسرائيل حقا ذلك الوحش كما نصوِّرها؟

طلبتُ من الصهاينة ان يحجزوا لي تذكرة طائرة (٣٣).

هوامش الفصل الثالث

١ ـ إذا كنتم لا تريدون أن تصدَّقوا أصدقائي فإليكم ياسمين علي باي براون التي لها عمود ثابت في صحيفة ذي اندبندنت *The Independent* البريطانية حيث كتبتْ: "أن موسما كاملا من برامج الـ"بي بي سي" عن مسلمي بريطانيا تجنب بحرص بالغ أي قصص خطرة لأنهم شعروا بعد ١١ سبتمبر (ايلول) ان من الهام اعطاء الجمهور نظرة ايجابية عن مسلمي بريطانيا".
انظر Muslims are wrong to blame the British Media,

The Independent, August 26, 2002
٢ ـ انقر هنا للاطلاع على مثال
٣ ـ "أعلمُ أن هذه كلمات مقاتلة. لكني أصر على تصويري لمسلمي الاتجاه السائد على أنهم "ضامرون فكريا" و"معوقون اخلاقيا". توقفوا عند هذا المقتطف من تقرير نُشر في عدد ١٠ فبراير (شباط) ٢٠٠٣ من جريدة طلاب جامعة تورنتو "ذي فارستي" *The Varsity* . يروي التقرير قصة مسلمة ويهودي يشاركان في "أمسية تعارف". كلاهما مترددان لكن النتائج كانت مفاجأة سارة لهما. فالمسلمة ، على ما تروي هذه القصة ، "كانت تعرف ان طلابا آخرين اختاروا عدم الحضور". وتنقل الصحيفة عنها قولها ، "أن الناس قلقون من الوصمة التي ستُلصق باسمهم أو بملّتهم إذا شاركوا في هذه الفعالية مع ملل معينة ليست مقبولة في الجماعة التي تشكل الاتجاه السائد". لماذا يجب ان تُلصَق وصمة بحضور فعالية كهذه؟ لماذا يكون مجرد الحوار مع يهود مرفوضا عند اسلام الاتجاه السائد ما لم يكن هذا الاتجاه السائد هزيلا فكريا أو أخلاقيا ـ أو الأثنين معا؟
٤ - Maria Rosa Menocal, *The Ornament of the World: How Muslims, Jews and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain* (Boston: Little, Brown, 2002)
٥ ـ أنظر ، من بين مصادر اخرى
George Rafael, *A is for Arabs*, www.salon.com, January 8, 2002.
كلمة Ole! الاسبانية أصلها كلمة "الله" العربية
Murad Wilfried Hoffman, *Religion on the Rise: Islam in the Third Millennium* (Beltsville, Maryland: Amana, 2001), p.3.

٦ ـ كان اسمها الكامل ولآدة بنت المستكفي. انظر ، طارق علي
Tariq Ali, *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity* (London, New York: Verso, 2002), p. 56.

٧ - Mahmoud Ayoub, *The Islamic Tradition*, Willard G. Oxtoby, ed., *World religions: Western Traditions* (Don Mills, Ontario: Oxford University Press, 2002) p. 395.

٨ ـ انظر من بين مصادر اخرى ، طارق علي
Tariq Ali, *The Clash of Fundamentalisms*, p. 34.

٩ - George Rafael, *A is for Arabs*, www.salon.com January 8, 2002.

١٠ - Khalid Duran, *Children of Abraham: An Introduction to Islam for Jews* (Hoboken, New jersey: Ktav Publishing House/American Jewish Committee, 2001), p. 100.

١١ ـ Khalid Duran خالد دوران ، المصدر السابق ، ص ١٠٥.

١٢ ـ خالد دوران مستشهدا بإبن ميمون ، المصدر السابق ، ص ١٠٣.

١٣ ـ هذه المشاعر تظهر في اكثر من مصدر لإبن رشد وعلى طول الخط. انظر مثلا مقالته الفاصلة حول العلاقة بين القانون والعلم
Decisive Treatise on the Connection between Law and Wisdom, translation and notes by Charles E. Butterworth (Provo, Utah: Brigham Young University Press, 2001)
انظر ايضا كتاب ابن رشد الشهير "تهافت التهافت".

١٤ ـ ابن رشد كما يستشهد به طارق علي Tariq Ali في كتابه

.*The Clash of Fundamentalisms*, p. 66
١٥ ـ الوريث الذي اتحدث عنه هو ابن أخيه ، الواثق. ويفيد ابن وراق Ibn Warraq "ان الواثق حاول شخصيا أن يضرب عنق عالم ديني رفض اتباع المذهب الرسمي. ولم يفلح الخليفة في ذلك واضطر في نهاية المطاف الى الاستعانة بجلاد محترف لإنجاز المهمة". انظر
Ibn Warraq, *Why I Am Not a Muslim* (Amherst, New .York: Prometheus Books, 1995), p. 248
١٦ ـ انظر محمود ايوب Mahmoud Ayoud, The Islamic .Tradition,*World religions: Western Traditions*, p. 398
١٧ ـ انظر محمود ايوب ، المصدر السابق ، ص ٣٩٢.
١٨ ـ انظر ضياء الدين سردار
Ziauddin Sardar, Islam: reistance and Reform, *The .Internationalist*, May 2002
من الموقع www.newint.org على الانترنت.
١٩ ـ انظر Alexander Stille, Radical New Views of Islam and the Origins of the Koran, *New York Times*, May 2, 2002
صحيفة نيويورك تايمز ، ٢ مارس (آذار) ، ٢٠٠٢. أكد وقوع هذا الحادث صحافيان وداعية لحقوق الانسان في الضفة الغربية.
البروفيسور المقصود هو سليمان بشير. انظر مراجعة كتابه
Arabs and Others in Early Islam, in the *International Journal of Middle East Studies*, Vol. XXXII, No. 2, .May 2000, pp. 277-79
٢٠ ـ www.qoqaz.com في آخر زيارة للموقع كانت الصفحة الداخلية تعرض شريط فيديو عن تفجير اشخاص وأماكن.
٢١ ـ انظر بات يئور Bat Ye or, *Islam and Dhimmitude:*

Where Civilizations Collide (Madison, New jersey: (Farleigh Dicknson University Press, 2002
٢٢ ـ بات يئور ، المصدر السابق ، ص ٣٧.
٢٣ ـ هذه النقاط مستقاة من عبد العزيز ساكدينا
Abdulaziz Sachedina, *The Islamic Roots of democratic Pluralism* (Oxford, New York: Oxford University .Press, 2001), p. 67
٢٤ ـ انظر عبد العزيز ساكدينا، المصدر السابق ، ص ٦٥.
ساكدينا ليس العالم المسلم الوحيد الذي يقر بطرح يئور القائل ان ايديولوجيا ذمية كانت موجودة في الاسلام. ففي كتابه "ابناء ابراهيم" *Children of Abraham* يكتب خالد دوران: "في البداية كان الفتح الاسلامي خلاصا للكثير من الشعوب المظلومة في حوض البحر المتوسط وما ورائه. ولكن في القرون اللاحقة أخذت الحكومات المسلمة تضاهي عسف اولئك الذين أزاحتهم. وتحول بعض الحكام المسلمين عندما بدأ الضعف يعتري سلطتهم السياسية الى حكام طغاة في معاملتهم للأقليات" (ص ١٠٦), ولكن لاحظوا استخدامه كلمة "بعض". فان دوران لا يقر بالنزعة الذمية كممارسة شائعة في الاسلام ويقول "ان التسامح كان هو الموقف من اهل الذمة في أغلب الأحيان..." (ص ١٠٩). وأنا الآن لست متأكدة من ذلك حتى أكثر من ذي قبل.
٢٥ ـ انظر روفن فايرستون
Reuven Firestone, *Children of Abraham: An Introduction to Judaism for Muslims* (Hoboken, New Jersy: Ktav Publishing House/American Jewish .Committee, 2001), p. 56
٢٦ ـ روفن فايرستون ، المصدر السابق ، ص ٥٧.
٢٧ ـ انظر مارك كوهين

Mark Cohen, *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages* (princton: Princton University Press, 1994), p. 126.

يقول كوهين في مكان سابق من كتابه ان "ثمة اتجاها بين الكتاب العرب والمستعربين" ينحو الى "التفاني الذليل لبديهية التسامح الاسلامي...وللخرافة القائلة بوجود طوباوية بين الأديان. وقد عمل هذا التصوير للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في التاريخ على تبرير اتجاه آخر: نزعة خبيثة من اللاسامية الاوروبية التقليدية ، بزي عربي" (ص ٨).

٢٨ ـ يطرح الفضل هذه النقطة في عدة مقابلات صحافية. انظر الموقع الذي يتولى أرشفة عمله على الانترنت www.scholarofthehouse.org

٢٩ ـ انظر News from Egypt: Tried and Found Guilty of Deriding Islam على الموقع www.secularislam.org

في هذا الحيز ينقل معهد الأبحاث الاعلامية في الشرق الأوسط عن تقرير للصحافية المصرية فاطمة فرج في "الاهرام" الاسبوعي ، ٣ ـ ٩ اغسطس (آب) ، ٢٠٠٢. وتقول فرج في تقريرها ان "انور مغيث الذي يعمل باحثا في الفكر المصري الحديث وصف كيف كانت هناك ٥٠ صحيفة يومية في عام ١٨٨٩ ارتفع عددها الى ٨٤ يومية في عام ١٩٠٩ و ٢٠٠ اسبوعية كان العديد منها تناقش بانفتاح افكار المفكرين" بمن فيهم مفكرون "ينتقدون الدين بصراحة".

٣٠ ـ انظر برنارد لويس

Bernard Lewis, Muslim and Anti-Semitism, *The Middle East Forum*, June 1998, p. 3 of online version

انظر ص ٣ من النسخة المنشورة على الانترنت

لمثل هذه الخرفات جاذبيتها في فلسطين ايضا. إذ يكتب الصحافي العربي خالد ابو طعمة ان اسرائيل إتُّهمت في الأشهر التي سبقت الانتفاضة الأخيرة بتوزيع مخدرات على الفلسطينيين والفلسطينييات لإفسادهم...كما يُعتقد ان الاسرائيليين كانوا وراء علكة مثيرة جنسيا عُثر عليها في متاجر فلسطينية. أما الهدف المفتَرَض فهو تحويل النساء الفلسطينيات الى عاهرات. وعندما تصاعدت حدة التوتر اتهم مسؤولون في السلطة الفلسطينية هذه المرة اسرائيل بترويج احزمة مشعة تسبب السرطان". انظر خالد ابو طعمة

How the war began, *Jerusalem Post*, September 19, 2002

جيروسليم بوست ، ١٩ سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠٢.

٣١ ـ صحيفة "السبيل" الاردنية كما نقل عنها معهد الأبحاث الاعلامية في الشرق الأوسط MEMRI في

A NewAnti-Semitic Myth in Middle East Studies: The September 11 Attacks Were Perpetrated by the Jews, Washington, D.C., 2002, p. 3.

يقوم المعهد بتوفير النصوص العربية لكل مصادره. للاطلاع على هذا التقرير انظر www.memri.org

٣٢ ـ مراسَلَة بالبريد الالكتروني ، ١٩ مايو (ايار)، ٢٠٠٢.

٣٣ ـ في الأشهر التي اعقبت زيارتي لاسرائيل اتصلتُ بمنظمات عربية وفلسطينية ومسلمة مختلفة بشأن انتدابي في مهمة صحافية الى الشرق الأوسط ليتسنى لي الوقوف على الأوضاع وتقديرها من منظور غير صهيوني. ولكن لم يرد أي منها على طلبي.

الفصل الرابع

بوابات وزنانير

سألتُ بول ، احد موظفي المنظمة التي قامت برعاية زيارتي لاسرائيل ، "الى أي حد سيكون من الصعب زيارة المناطق؟" وكنتُ أُشير ، بالطبع ، الى "الأراضي المحتلة" ـ الضفة الغربية وقطاع غزة.

همهم الموظف ،"اووه ، صعبة".

كانت تلك فترةً تفاقم فيها النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني الى مستويات تبعث على الأسى. فقد انهارت عملية السلام بالكامل ، واندلعت انتفاضة جديدة. وكانت التفجيرات الانتحارية التي ينفذها فلسطينيون في تصاعد واسرائيل ترد بما اعتَبره أشد خصومها أدبا "اعادة احتلال" ـ مستوطنات يهودية غير مشروعة ، مروحيات هجومية ، نقاط تفتيش ، حظر تجول وتهديم مقر ياسر عرفات في رام الله. لم تكن اسرائيل بحاجة الى عبء اضافي يضعه حماية أجانب على كاهلها ولكنها كانت أيضا لا تريد أن تبدو وكأنها تمنع الصحافيين من تسجيل الوجه الآخر للقضية. ومن دون أي دفع من جانبي أدرَج بول لقاءات مع فنانين ومثقفين عرب في برنامج الزيارة. وجميعهم ، كما اكتشفتُ ، لم يتورعوا عن انتقاد السياسات الاسرائيلية. مع ذلك كان يجب ان أزور المناطق الفلسطينية ، وكان هذا ايضا شعور الصحافيين الأربعة الذين سأُرافقهم في الزيارة.

قال بول ، "لنر ما يمكن أن نفعله".

عندما وصلتُ الى مطار تورنتو للسفر الى تل ابيب لم نكن قد تلقينا

موافقة على الزيارة. ولكننا بالمقابل لم نتسلم رفضا.

قام المسؤول العامل في شركة الخطوط الجوية الحكومية الاسرائيلية "العال" باستجواب الجميع. تقدمتُ لإلقاء التحية عليه. بدأ بالسؤال ، "مكان الولادة؟"

"اوغندا" ، أجبتُ ملوِّحة ببطاقة الجنسية التي أُلصقت عليها صورة لاجئة في هيئة عفريت كنتُ أحسبُ انها صورة لا تُقاوَم.

"أوغندا؟ أنا من الهند بالمناسبة".

أجبتُ مداعبةً ، "يهودي جنوب آسيوي؟" "كيف حدث ذلك؟" كشَفَ تاريخ العائلة قبل أن يعود الى سحنته الجدية. ما هي المدارس التي تعلمتُ فيها؟ هل تخرجتُ منها كلها؟ هل نقَّذتُ "خططا" لأقارب ، مثل تسليم رزم أو نقل عم معوَّق من بلد الى آخر؟ بعد الاستنطاق صار يتدفق حيوية وقال: "اني اعرفكِ من التلفزيون. برنامج عظيم". وكان يعني برنامج "تلفزيون شاذ" *Queer Television* . فأشرتُ الى صاحبتي ميشيل التي كانت تقف على بعد أمتار وعلى وجهها امارات القلق من حرارة حديثنا. ابتسم لها وتمنى لي رحلة سعيدة.

ثم التقطتْ ميشيل صورة لي أمام يافطة تصور صالون الملك داوود (أسم وجدته مبتذلا بشكل لذيذ) (١). توادعنا والأعصاب تختلط بالابتسامات. كانت الابتسامات تهمس ، "قُضي الأمر!" فيما كانت الأعصاب تهمس ،"أمن الجائز أن تكون هذه هي....النهاية" ميشيل لم تكن عصابية بحيث تتساءل: بعد أقل من ٢٤ ساعة اقتحم مهاجر مصري مكتب شركة "العال" في لوس انجيليس وقتل شخصين رميا بالرصاص. ورحلات

تورنتو المتوجهة الى تل أبيب تنطلق من لوس انجيليس. ولو انتظرتُ يوما آخر للسفر لكان من المرجح أن لا أصل الى اسرائيل في أي وقت قريب ـ ميشيل ما كانت لتسمح لي بالذهاب ، وأنا ما كنتُ للألومها على ذلك.

فيما كنتُ مستغرقةً بتحليل الثراء المتجسد في لقاء مسلمة من شرق افريقيا ويهودي من جنوب آسيا ، لفتني مؤشر آخر الى ما تتسم به اسرائيل من تعقيد. فان شريط الفيديو الذي يعرض اجراءات السلامة خلال الرحلة ، وإن كان ناطقا بالعبرية فهو مذيل بترجمة عربية. إذ أن العربية لغة رسمية في اسرائيل. مَنْ كان يعرف؟

هبطتُ بلا مشاكل. كان من المزمع تقسيم الزيارة المخصص لها ستة ايام على مرحلتين رئيسيتين: قضاء اليومين الأولين في مركز اسرائيل التجاري ، تل أبيب ، والقسم الثاني في العاصمة الروحية ، القدس. وسنتوقف ايضا في مدن أصغر غالبية سكانها من عرب اسرائيل ، وفي الطريق ، كما ظل يراودني الأمل ، اقتطاع بعض الوقت لزيارة المناطق الفلسطينية. أعلم أن هذا برنامج مزدحم بالنشاط ولكني فهمتُ في أول يوم كامل امضيته في تل أبيب أن زحمة العمل عند الاسرائيليين هي كالهواء الذي يتنفسونه.

ترتدي زحمة العمل بإيقاعها المتسارع شكل انسيابية ثقافية. فعلى الغداء حدَّثني صحافي اسرائيلي عن انتاج جديد لمسرحية "سيدتي الجميلة" باللغة العبرية ، فيما تقوم فنانة عربية بدور البطولة. وأضاف ، "في الثمانينات كانت هناك محاولة لتأسيس مسرح وطني فلسطيني. كانت كل الأعمال المسرحية باللغة العربية ودعا المنظمون بنشاط نقادا مسرحيين اسرائيليين للحضور. في الواقع أن المسرح كسب جمهورا متحمسا بين

اليهود الليبراليين ولكنه في الحقيقة لم يلق استجابة بين الفلسطينيين" (٢). تعثَّر المسرح بعد طلاق مؤسسيه اللذين كانا زوجين. ولكن الانتفاضة هي التي اجهضت عمليات التبادل بين العرب واليهود في متحف الفن في تل ابيب الذي كنا بصدد زيارته.

شيء من الخلفية اولا. فُتح المتحف في ثلاثينات القرن العشرين قبل استقلال اسرائيل بفترة طويلة وفي وقت كان بالامكان رؤية الجِمال تسير في الشوارع. وبعد اقناع رئيس بلدية تل ابيب ان البلدة ستصبح مدينة وان كل مدينة عظيمة يجب ان تصطف مع الفنانين ، كتب الى مقتنين في أنحاء العالم طالبا ما يمكن اعارته. وعمد يهود المان كانوا يواجهون مستقبلا يلفه الغموض ، الى ارسال كنوزهم الفنية اليه. وبهذه الطريقة أُنقذت منحوتات ولوحات رائعة من المصادرة أو التدمير الغاشم. والآتي في هذه القصة أحسن. فإن الفن الذي كان متداولا بين اليهود أصبح متاحا ليتمتع به اليهود والعرب. وعلى امتداد شطر كبير من عقد التسعينات كان مدير غاليري للفنون في القدس الشرقية الفلسطينية ، يعرض أعمالا من مجموعة تل أبيب الفنية ، وبالمقابل يُعير ما في المتحف من أعمال ابدعها فنانون عرب من أبناء جلدته. وفي ذروة عملية السلام أقامت فنانة مصرية معرضا في تل ابيب وتولى المتحف ترتيب عملية نقل البعض من أعمالها الى المناطق الفلسطينية.

هذا كله لم يعد موجودا. وقالت مديرة متحف تل ابيب عن نظيرها من القدس الشرقية ، "نود بكل جوارحنا أن نواصل العمل معه". ومنذ اندلاع الانتفاضة حاولتْ الاتصال به دون أن تنجح في محاولاتها. وقالت ، "انه على الارجح خائف [من السلطة الفلسطينية] بحيث لا يريد الاتصال بنا الآن" (٣). على الأرجح؟ لماذا تفترض المديرة هذا الافتراض؟ ألححتُ قليلا ، ولكن بلا جدوى. طريقتها في الكلام بصوت هادئ جعل المضي

في الإلحاح يبدو فظاظة.

فيما كنتُ اغادر المبنى لفتني تناقض بصري. فان المبنى الحجري الممتد فسيحا على ارتفاع واطئ لمتحف الفن في تل ابيب يقع عبر الشارع مباشرة من المقر الشاهق ، الأشبه بالبناء الفضائي لقوات الدفاع الاسرائيلية. وهذا التجاور بين الإبداع والمؤسسة التراتبية العسكرية قد يكون مصادفة ولكن بالامكان العثور عليه أينما توجه المرء في اسرائيل ـ موطن احزاب سياسية يهودية متطرفة و موطن المهرجان السنوي الوحيد للمثليين في الشرق الأوسط في الوقت نفسه. هذه النقطة وُضعت امامي خلال أحاديثي الأولى مع اسرائيلي ، هو الصحافي نفسه الذي حدَّثني عن المسرح الوطني الفلسطيني ورواده اليهود. ومضى يثير أكثر المسائل وجودية وحساسية: هل ينبغي ان تبقى اسرائيل "دولة يهودية" أم تتطور الى دولة علمانية محضة حيث يكون الدين طارئا؟ وأي دور ينبغي ان تقوم به الهولوكوست (المحرقة) ، لا في تاريخ اسرائيل الرسمي فحسب وانما في هويتها الراهنة كملاذ؟ فكرتُ أن عين الصواب أن يطرح اسرائيلي مثل هذه الاسئلة على نفسه بكل صراحة ، ناهيكم عن طرحها على غريب مثلي.

طيلة اقامتي كانت وسائل الاعلام الاسرائيلية في الحقيقة تناقش مثل هذه المسائل نقاشا حاميا. ولم يكن في اعتقادي أن بالامكان التعرض الى الدين في دولة يهودية. وقد كنتُ مخطئة. إذ قرأتُ عن عضو في الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) أشار الى أن البلد ليس بحاجة الى مزيد من المهاجرين المتدينين من أميركا الشمالية. وقامت احدى الصحف بتضخيم تصريحاته الى زوبعة صغيرة. وزعم النائب لاحقا ان ما عناه هو المهاجرون "المتطرفون في تدينهم" (٤). على أية حال. فان القوانين الاسرائيلية تكفل حرية التعبير ، ولهذا مغزاه.

استمتعتُ على الأخص بقراءة افتتاحيات الصحف التي كان اختيارها لمواضيع تعليقاتها يشير الى وجود صحافة حرة للغاية. خذوا صحيفة هآرتس ، التي هي بمثابة نيويورك تايمز الاسرائيلية. فهي وجهت انتقادات لاذعة الى مشروع تقدمت به الحكومة لتخصيص اراضٍ تملكها الدولة من اجل بناء مدن يهودية حصرا. أتعرفون كيف وصفت هآرتس مشروع هذا القانون؟ وصفته بالمشروع "العنصري" (٥)، ونشرت الصحيفة هذا النعت في العنوان البارز: "مشروع قانون عنصري". بلا تلطيف ، وبلا تحفظ ، وبلا اعتذار. وصُرف النظر عن مشروع القانون بسبب ما تعرض اليه من انتقادات حادة في اسرائيل.

لا بد من اطلاعكم على مسألة اخرى كانت موضع جدل تناقلته الصحف خلال زيارتي. وهي كانت تتعلق بإنصاف الشبكات الإخبارية الأجنبية في تغطيتها للنزاع الفلسطيني الاسرائيلي. وقد هدد وزير الاتصالات الاسرائيلي بمنع شبكة "سي ان ان" من البث على الموجات الهوائية الوطنية والاستعاضة عنها بمحطة "فوكس". وكان رد هآرتس: "إذا فعلتَ ذلك فإنك لن تكون أفضل من عرفات" الذي صفَقَ الهاتف ذات مرة على مراسلة "سي ان ان" ، كريستيان امانبور. وفي دفاع عنيد عن المبادئ ضد الدعاية أكدت أوسع الصحف الاسرائيلية نفوذا ، "أن من حق الاسرائيليين أن يعلموا ان شبكة "سي ان ان" والـ"بي بي سي" ليسا انعكاسا مرآتيا لوجهة النظر الاسرائيلية الرسمية..." (٦)

وإذ كنتُ لم أزل مترنحة بتأثير ما شاهدته حتى الآن قلبتُ الصفحة ـ وإذا بي أجد مزيدا من النقد الذاتي. فقد تساءلت الكاتبة ، "هل اولى التاريخ اليهودي ما يكفي من الاهتمام بما انجزته قياداته النسوية. الأرجح لا...." (٧) ومضت الى سرد حكاية مصرفية اسرائيلية تُدعى دونا غراسيا ناسي التي انقذت الوفا من محاكم التفتيش الاسبانية بتحويل موهبتها

المالية الى سطوة سياسية. بعد أيام على نشر هذه المقالة أشادت اسرائيل بنموذج نسوي آخر يُقتدى. ولأول مرة قرر الجيش تعيين امرأة ناطقا رسميا بإسمه (٨). وأذكُر أني فكرتُ أنه رغم كل تنقيبات اسرائيل لتأكيد هويتها الأثنية (وربما بسببها) فان هذا على ما يبدو مجتمع يتقدم ، حتى وهو يصطرع مع الحقائق المتعلقة بإصوله.

رأيتُ وأنا ادخل القدس في النصف الثاني من زيارتي ، مشهدا التقطتُه من نافذة السيارة. فان شابة في زي عسكري كامل كانت تسير أمام دزينة من الجنود الذكور (٩). أين كانت تقود جنودها؟ إلتفتُّ الى مرشدي متساءلة فقال انهم متجهون الى المدينة القديمة ـ الحي الديني من القدس ـ "حيث سيمضون ثلاثة أيام أو نحو ذلك في التثقف بالاديان الممثَّلة هنا على اختلافها" (١٠).

"هل تعني ان التربية الدينية جزء من الواجب العسكري"؟

"بكل تأكيد ، فالجيش يوفر الوقت ، مرة كل بضعة اشهر ، لتثقيف الجنود المتمركزين في القدس بتقاليد من خارج خبرتهم اليومية". وأنا قد عرفتُ قيمة هذا البرنامج على الصعيد الشخصي في عصر اليوم التالي.

كان من المقرر ان أذهب الى قبة الصخرة (١١). ويمكن التعرف على ثالث أقداس الاسلام فورا من سطحه الذهبي الذي لا ريب في أن بريقه الأخَّاذ يشجع الشمس على الشروق والغروب كل يوم. وطبقا للتقليد الاسلامي فان هذا المسجد يضم صخرة خاصة ـ الصخرة التي تسلقها النبي محمد خلال "ليلة الإسراء". فعند الصخرة وجد محمد سُلَّما حلزونيا حمله الى السماء حيث تخالط وصلى مع انبياء سابقين. ولكن إذا كان هذا هو كل ما يحويه تاريخ هذا الموقع فقد كان بوسعي الدخول دون

قلق وربما حتى حاسرة الرأس. غير أن الأمر ، للأسف ، لم يكن بهذا السهولة.

تنتصب قبة الصخرة على منصة جبل المعبد الذي يزعم التقليد اليهودي والكثير من الآثاريين انه كان موقع المعبد المركزي في مملكة داود القديمة. كما انها الرقعة التي اندلعت فيها اضطرابات في سبتمبر (ايلول) عام ٢٠٠٠ مفجرة الانتفاضة الثانية. فقبل أيام من اندلاع الانتفاضة سار ارييل شارون على قدميه الى جبل المعبد. وبعد فشل عملية السلام التي شهدت تقدم اسرائيل بمقترح تقسيم القدس كان شارون يحاول ، على ما يُفترَض ، ان يبين ان باحة جبل المعبد مفتوحة للمصلين اليهود. على مَنْ كان يضحك؟ فان شارون بوصفه صديقا لليهود المحافظين حَسَبَ أن مثل هذه الزيارة ستعزز حملته غير الرسمية حتى ذلك الوقت للفوز برئاسة الحكومة. كانت تلك مناورة سياسية خبيثة. وبمناسبة الحديث عن خبث السياسة فان رئيس جهاز امن عرفات في الضفة الغربية كان قد اصدر موافقته المسبقة على زيارة شارون. وكشف وزير في السلطة الفلسطينية لاحقا ان عرفات كان يخطط للانتفاضة منذ أشهر (١٢). وكان بحاجة الى استفزاز ، وهكذا على وجه التحديد بدت زيارة شارون لجبل المعبد ، في نظر الفسطينيين ـ استفزازا. اندلعت الانتفاضة وأُحكِم غلق الأبواب الحديد لمسجد الصخرة والمسجد الأقصى المجاور على السواء بوجه الجميع ما عدا مسلمي المدينة. ومنذ ذلك الحين أُفرغ هذا الجزء من القدس القديمة ـ الذي كان في السابق محط انظار اليهود والمسيحيين وغير المنتمين الى دين منظَّم ـ من شحنته العالمية.

أقف عند البوابة بفستان غامق اللون يصل الى الكاحل وبلوزة مُقفَلة ، طويلة الأكمام. أُريد تهدئة الوخز الذي تقترفه قبعتي الشوكية بفروة رأسي ولكن الحجاب الذي يغطي رأسي يخفف من وطأتها. وكانت

وزارة الخارجية الاسرائيلية أبلغت "الوقف" بقدومي لكونه الجهة المسؤولة عن الموقع. وكانت الرسالة: لا تنغّصوا عليها الزيارة يا سادة يا كرام فهي واحدة منكم.

ليس تماما واحدة منهم.

يتفحصني موظف مربوع في "الوقف" بنظراته من قمة رأسي الى اخمص قدميّ وينكر انه تلقى أي إشعار من الوزارة. مرشدي يؤكد له نقل الإشعار. رجل "الوقف" يدمدم في جهازه اللاسلكي وفي غضون دقائق قليلة يطل أخ آخر قوي البنية. لم أدرك في حينه ، ولكن التأخير لا يمت بصلة الى وصول الإشعار الرسمي أو عدمه. فان اسمي إرشاد يُطلق على الجنسين ، وهو أكثر شيوعا بين الذكور منه بين الاناث. وعندما قامت وزارة الخارجية بإبلاغ "الوقف" عني إفترض الشباب ، دون ريب ، انهم سوف يستقبلون رجلا.

ولما لم يكن معي مرافق مسلم ، ما العمل الآن؟ ينتهي الأخذ والرد عندما يوافق ضابط من شرطة القدس على مرافقتي عبر البوابة. ولكن قبل أن اطأ الأرض القدس يجب تطبيق اجراء آخر. يأتي موظف من "الوقف" راكضا وبيده زنار يقول لي أن اتحزم به. ولأني ما زلت محافظة على هدوء اعصابي أبدأ بالتلوي محاولة دس الزنار ليلامس جلدي. "لا ، لا ، لا!". أنظرُ الى أعلى فأرى اصبعا غليظا يهتز بعنف. انه يريد الزنار فوق فستاني وليس تحته.

ربنا في الأعالي ، أهذه "عهدة عمر" تضرب من جديد! فان ارتداء الزنانير فوق الملابس شرط كان على أهل الذمة كافة أن يلتزموا به. وأنا بوصفي مسلمة غربية ، أقرب الى الأقلية الدينية في حكم

"الوقف". والمصيبة أني قد أكون يهودية مدسوسة ولكن الأرجح أني مجرد انسان متخلف.

ألزمُ لساني وأشدُ حجابي استعدادا للخضات القادمة واسحبُ نفسا عميقا وأهز جسمي ذات اليمين وذات اليسار لعلي أفلح في تمرير الزنار الى ما فوق وركي. يبقى الأمل يراودني ولكن صبري يعيل بعد حين. ومن خلال مرافقي أقول للأخ الذي يبدو انه من المعجبين بمدرسة الأزياء الفاشية أن الزنار لن يثبت على ملبسي. يقطبُ عابسا فأُريدُ أن أرد عليه مزمجرة ، "تكفل أنت بالأمر يا هذا!".

يكتفي رجل الوقف بوضع الزنار تحت ملابسي (١٣). الفتيان المسلمون الظرفاء يتطلعون عليّ بلا حياء وأنا أتمعج بتطير من ارتداء هذا الشيء. أحمدُ الله أني قررتُ أن ارتدي شيئا آخر تحت فستاني ذلك الصباح - سروال قصير من النوع الذي يرتديه سائقو الدراجات الهوائية.

وإذ خلّفنا هذا الإحراج وراءنا سرنا أنا ومرافقي مخترقين البوابات. كنا نسير بخطى متعثرة لأن الزنار كان يعيق مشيتي. وفيما كان ضابط الشرطة يرافقني حول المنصة القائمة في العراء ، التي هي جبل المعبد ، كان يُطعِّم جولتنا غير الرسمية بنتف من التاريخ الاسلامي. كان ضابط الشرطة جنديا وهو يتذكر الكثير مما تعلمه خلال الفترة التربوية الالزامية التي أمضاها في المدينة القديمة. أما أسئلتي المحدَّدة فقد كان عليّ أن اوجهها الى "الوقف". هل تستطيع ان تقول "هيهات" بالعربية؟ فان رجل "الوقف" رفض حتى التقاط صورة تذكارية معي للأهل ناهيكم عن تبادل أطراف الحديث بيني وبينه. يا للغرابة في أن يتطلب الأمر يهوديا لاستقبالي هنا. أو قد يكون ذلك هو الشيء المناسب تماما في ضوء ما نشترك به من لاهوت وتاريخ يمتد قرونا مع جبل المعبد.

مرافقي ضابط الشرطة قادني الى أبواب المسجد الأقصى. وفيما كنتُ أخلع نعليّ ثم أهم بتعديل الحجاب استعدادا للدخول يندفع شيخ من الحائط الذي كان يتكئ عليه ويسد طريقي. نُحاول أنا ومرافقي أن نؤكد له أني مُزكاة ولكنه اما لا يفهمنا أو لا يصدِّقنا. نطلب استدعاء مسؤولي "الوقف". لعله الجانب البوذي من شخصيتي ، ولكني لم اتوقع منهم أن يفعلوا شيئا ، ونتيجة لذلك لم أشعر بخيبة أمل. رفض رجال "الوقف" أن يؤكدوا للشيخ انهم فتحوا البوابات امامي. أعقبَ ذلك سكون مديد لا معنى له وقفنا خلاله جميعا مجسدِّين ما ينخر في جسم امتنا الاسلامية من انقسام.

ثم يرميني جدُّنا العجوز وهو ينظر اليّ شَزَرا ، بالمقطع الاستهلالي من سورة الفاتحة: "بإسم الله الرحمن الرحيم!" ثمة شيء في صرفه النحوي. أهو يمتحنني لتلاوة العبارة التالية؟

أقذفه بالعبارة التالية مرددة "الحمد لله رب العالمين!"

فيردفني ، "الرحمن الرحيم!"

سنوات من التعليم في المدرسة الدينية انتهت الى هذا ، مطاردة في سورة الفاتحة مع عجوز خرف على جبل المبعد في القدس. أردُ ، "مالك يوم الدين". وبعد جولتين أخريين يغدو واضحا أن لديّ ما يكفي لإثبات هويتي الاسلامية بحيث سيكون حساب هذا العجوز عسيرا مع الله لإعتراضه طريق مسلمة كانت تمارس حقها في الصلاة.

يرشدني الى داخل المسجد على مضض ـ بشرط أخير. يقول أن عليّ

ونحن داخل المسجد ، أن اترك كاميرتي لأن تصوير أي مخلوق له روح هو ترويج للوثنية. لحظة ياجماعة. أو ليس المسلمون ، في عصر الاسلام الذهبي ، مَنْ كانوا رواد التصوير بالأجهزة البصرية؟ ألم يكن لاختراعاتهم تأثير في تطوير التصوير الفوتوغرافي إبان القرن التاسع عشر؟ أُنحِّي الفكرة جانبا ، فالعقل يُملي أن أصون لساني وأضع كاميرتي في يد مرافقي.

العالم الذي في داخل المسجد الأقصى يختلف اختلافا ملحوظا عن الكون المتَقرِّن الذي يعيش فيه ذلك الشيخ العجوز. فالحَرَم للجنسين معا وليس هناك جدار أصم يفصل الرجال عن النساء. الحظُ أن امرأة واحدة تجلس على السجادة المحاكة بإناقة وأنها تُبقي مسافة بينها وبين الرجال المتناثرين داخل الحرم. ولكنها على الأقل موجودة هناك ، بينهم. بعض الرجال يبدون في سَكِينة فيما البعض الآخر يجثمون عند مداخل مصممة تصميما رائعا أو يتمددون على الأرض وقد استنزفت حرارة الظهيرة قواهم. لهذا السبب ، من بين أسباب اخرى ، لا أشعر أن احدا يراقبني في جولتي.

تصويب: لا أشعر أن مَنْ نصَّب نفسه بنفسه سلطةً يراقبني. ولكني موضع استطلاع. ففي الركن البعيد يتضاحك جمع من الصبيان على هذه المرأة التي تدعك الأعمدة البديعة وتدير رأسها متلفتةً هنا وهناك. معلِّم الصبيان يُسكتهم برفق. أُشير الى المعلم بحذر غير واثقة إن كنتُ أبحث عن المتاعب. يبتسم ويحييني بالعربية متحولا الى الانجليزية عندما يدرك أنها اللغة التي أتكلمها.

"من أين أنتِ؟"
"من تورنتو".

"آه ، أنتِ هي إذاً. نعم ، نحن بانتظارك". (وعليه فان وزارة الخارجية الاسرائيلية تكون حقا **أبلغت** "الوقف" بمجيئي! ومن هنا المعلومة عن وجود اجندة سياسية وراء المماطلات التي واجهتُها عند البوابات.)

"جيد ، أنا مسرورة لأني لم أُفاجئ احدا". أغتنمُ حرارة الود الواضح بيننا.

"هل تسمح لي بالتقاط صورة لك ولتلاميذك يا سيدي؟ سيعني ذلك الكثير عندي".

يُجيب ، "لا ضير في ذلك".

آها! ليس الكل يتفقون مع شيخنا على ان تصوير المخلوقات فوتوغرافيا هو بمثابة عبادتها. وإذا امتنع استاذ في تدريس القرآن ، على الأخص ، عن اختزال النص المقدس الى مثل هذه الترهات المبَلّدة فلعل هناك تأويلات متعددة حتى في هذا المعقل من معاقل العمل الفلسطيني.

حاليا ، عندي صورة صف مدرسي كامل عليّ أن التقطها (١٤). وإذ كنتُ لم أزل مزنَّرة ، أُغادرُ المسجد بخطى متعثرة والفتُ انتباه مرافقي خلسة ثم استرجع الكاميرا وأُنفِّذ فعلتي القذرة. وفيما أنا أُعبِّر عن شكري للمعلم وتلاميذه شيء يلفت نظري: احد التلاميذ في درس القرآن يرتدي قميصا طُبعت عليه كتابة بالعبرية. ولو صادفني ذلك في أي مكان آخر لما ألقيتُ نظرة ثانية. أما في الموقع الذي اندلعت منه الانتفاضة فصدقوني عندما أقول أني أمعنتُ النظر مرتين.

محطتي التالية قبة الصخرة حيث وجدتُ غالبية النساء والأطفال يُكملون

صلاتهم. كما وجدتُ أن داخل الجامع يفتقد الى اللون المنعش للمسجد الأقصى. لعل بالامكان عزو العتمة الطاغية الى الأضواء المسلطة على القبة في وسط الجامع ، فيبدو كل شيء ما عداها مظلما بالمقارنة. أقتربُ من نقطة الجذب الرئيسية. فان سطح الصخرة المسوَّر بسياج خشبي مرتفع ، بالكاد يستطيع المرء أن يراه إذا كان قصير القامة. لذا ابحث عن شيء آخر مثير للاهتمام ، ويتضح ان هذا الشيء هو صراحة امرأة في الجامع.

كانت المرأة مديرة مدرسة تعيش في نيو جرسي ، وُلدت في القدس وهي كثيرا ما تعود لزيارة شقيقتها. وخلال حديثنا تعلم المديرة أني أعمل في التلفزيون وبودي ان اعود الى هنا لانتاج مسلسل. توسلت بي قائلة ، "أرجوكِ أن تشغِّلي اشخاصا من مخيمنا [مخيم اللاجئين] لمساعدتِكِ. وإذا كانوا لا يعرفون شيئا عن كاميرا الفيديو أو الميكروفونات فان بإمكانكِ تعليمهم".

أقول مازحة أن الانتاج التلفزيوني مثل السياسة الاسرائيلية الفلسطينية ـ عملية معقدة الى حد اللامعقول من أجل نتيجة بسيطة بقدر معقول. لا تفهم النكتة لأن الأزمة القائمة كانت تستحوذ على كل اهتمامها. "أهلنا مستميتون. ليست هناك فرص عمل ، ليس هناك عمل منذ زمن طويل".

أردُّ قائلة ، "ولكن ماذا عن كل المساعدات الخارجية التي تتلقاها السلطة الفلسطينية من الغرب؟" ولا أكلفُ نفسي الاشارة الى الأموال الاضافية التي تقدمها وكالة الغوث الدولية للاجئين الفلسطينيين على امتداد ثلاثة أجيال منهم(١٥). "اننا نتكلم عن ملايين الدولارات التي يمكن أن تُستخدَم لبناء المختبرات والمستشفيات والمدارس والمناطق التجارية. لماذا ما زالت لديكم مخيمات لاجئين؟ أين تذهب كل المساعدات؟"

"لا أعرف أين تذهب كلها ولكن بعضها...." ثم تقوم بحركة من يدها كأنها تدس نقودا في جيبها.

"الفساد؟".

"انظري هناك" ، قالت في دمدمة مشيرة الى عمود صدَّعته الشقوق. "ليس لدى المسلمين حتى المال لصيانة هذا المكان الجميل".

"انتظري دقيقة" ، قلتُ بنبرة لاذعة بعض الشيء. "هل لأننا لا نملك المال أم لأنه ليس لدينا القيادة التي تستخدم المال حيث ينبغي ان تستخدمه؟"

"أللّه يعلم". في الحقيقة ان الجواب يأتي مع جملتها التالية. "البعض يقول ، "لا تقلقي ما دام المسجد يبدو قويا ومتينا من الخارج". فهم لا يهتمون إلا بالمظاهر الرمزية لا بالبشر".

مرت فترة العصر وعندي محطة اخرى قبل موعد توجهي الى مأدبة عشاء. التقطُ صورا فوتوغرافية على عجل ـ لنساء ، للعمود ، لأطفال ، للصخرة ـ ثم أُغادرُ وأنا أشعر مقيدةً باحساس بالظلم الداخلي كما يقيدني ذلك الزنَّار اللعين (١٦). يُسلِّمني مرافقي عند البوابة التي بدأ منها كل شيء. هذه المرة أسير بخطى متثاقلة وراء مبنى صغير مكعب الشكل للتخلص من الحزام الذي ينهش في لحمي. سيكون من دواي غبطتي أن اعيده الى الوقف. ما لن امنحهم اياه هو فرصة اخرى لتوجيه تلك النظرات الخبيثة صوبي.

لا أحد يضايقني على الحائط الغربي. أدركُ تماما أن المرأة اليهودية

تخوض معاركها الخاصة للصلاة على قدم المساواة مع الرجل. بل أنها حتى نقلت نضالاتها الى ساحة القضاء. ومع ذلك لا أحد ينظر اليّ أو يأمرني بارتداء قطعة قماش هي معادل صناعة النسيج للشريط اللاصق ، أو يخوض مواجهة بالآيات والسور معي. إن تسارع ضربات القلب بتأثير المشاعر الغامرة هو كل ما يبعث على الرهبة.

الحائط الغربي هو الواجهة الحجرية المحشوة شقوقها التي لا تُعد ولا تُحصى بقصاصات ورقية كُتبت عليها صلوات يهود من سائر انحاء العالم. فهم يتوافدون لمواجهة الحائط لأنه ، بحسب الديانة اليهودية ، كل ما تبقى من المعبد المحلي الذي كان قائما ذات يوم حيث تنتصب الآن قبة الصخرة ، على جبل المعبد. وكان سليمان ، نجل الملك العبراني داود ، أنشأ المعبد ليكون مركز القرابين التي كان بني اسرائيل يقدمونها لله. وقام البابليون بتدمير ذلك المعبد "الأول" فعمد اليهود الى بناء معبدهم "الثاني" في حوالي عام ٥١٥ قبل الميلاد. وفي عام ٧٠ ميلادي سبى الرومان مدينة القدس وهدموا المعبد الثاني وطردوا اليهود من مملكتهم. وطيلة قرون ترك المسيحيون جبل المعبد يتداعى ليكون شاهدا على سقوط الديانة اليهودية. ولكن ، كما تعرفون ، وقعت المدينة المقدسة في نهاية المطاف بيد المسلمين فبادروا الى تجديد جبل المعبد بوضع بصمات اسلامية عليه ـ اولا المسجد الأقصى ثم قبة الصخرة. ورغم ان المسلمين اعادوا فتح القدس لليهود فان المعبد الثاني بقي خربا ولم يقم المسلمون قط بترميمه. وعند اليهود الأرثوذكسيين فان هذا هو ما ينبغي أن يكون. ذلك أن اعادة بناء المعبد هي مهمة المخلّص الذي ما زالوا ينتظرون مجيئه. والى أن يأتي ذلك اليوم يقوم الحائط الغربي بدور النواة التي تلتف حولها الطائفة اليهودية ـ عامل تذكير لا سطح له ، بالماضي والمستقبل والقوة والتواضع.

أصل الى هناك في وقت قصير نوعا ما لأن الحائط لصيق بالحي المسلم من القدس. في البداية يدهشني وجود الاعتماد المتبادل بين اليهود والمسلمين حتى في تصميم جبل المعبد. لاحقا ، أقع على مقالة صحافية تسجل ما يسببه هذا الاعتماد المتبادل من صداع لليهود الذين عليهم أن يتوسلوا بالوقف لاصلاح الثغرات التي يتسرب منها الماء في الحائط الغربي (١٧). فمن أجل السلام ، كما ترون ، منحت اسرائيل للمسلمين نصيب الأسد من السلطة على صيانة جبل المعبد. ونحن لا نتكلم عن السيادة وانما عن السيطرة الادارية. وما يشكل مصدر خطر على اسرائيل ان سيطرة المسلمين تصل الى الحائط الغربي وتشمل كل ما وراءه عمليا. وكما في حالة العمود المتضرر في قبة الصخرة فلا يمكن القاء اللوم عن هذا الجرح على الاحتلال الاسرائيلي.

استعير قلما واكتب رجاء الى الله ثم اشق طريقي في الزحام للاقتراب من الحائط. وإذ امضي بعض الوقت في البحث عن شق غير مستعمَل يستقبل تضرعاتي أدركُ أني اسد الطريق على اليهود المنتظرين ورائي. مع ذلك لا أشعر أني متطفلة بل أشعر كأني بين أهلي ، وبمشاعر اشد حدة من أي وقت مضى أعرفُ مَنْ هي عائلتي.

قولوا أني عاطفية ولكن افهموا هذا القدر: عندما اقول "عائلة" فان الصورة التي تحضرني ليست صورة النبي محمد أو حتى ابراهيم بل صورة طفل رمتني الصدفة في طريقه ـ في الحقيقة هو الذي رمته الصدفة في طريقي ـ في وقت سابق من ذلك اليوم. فحين كنا في طريقنا الى قبة الصخرة قادني مرشدي عبر الحي السكني اليهودي في المدينة القديمة. دخلنا مكانا للتجمع شديد الرطوبة حُفر من الحجر ، تردِّد جدرانه صيحات أطفال. قال مرشدي أن هذه روضة اطفال تشعر الامهات اليهوديات الارثوذكسيات بالاطمئنان على اطفالهن فيها وخاصة بعد

"يشيفا" (المدرسة الدينية). وبعد لحظات كان صبي بالقلنسوة التقليدية وخصلات شعر مجعَّدة تتدلى من صدغيه وخيوط وشاحه الخاص بالصلاة تبرز فوق سرواله الاسود الفضفاض ، استدار عند الزاوية واصطدم بي (١٨). كان يقود عجلة فضية أنيقة ـ مثال آخر على مجتمع يتقدم مدفوعا بمفارقاته. فإذا كان لا يتعين حتى على النصِّيين اليهود أن يعزلوا انفسهم عن الحداثة فكم من الفرص الأوسع للاختيار ودمج العواطف يتمتع بها اسرائيليو الاتجاه السائد؟

حين ابديتُ حماستي لهذا الأمر امام صديقة اسرائيلية علمانية روت لي قصة شخصية. فان ازابيل كيرشنر بعدما ترعرعت في بريطانيا بعيدا عن تراثها اليهودي ، انفتحت على كل مغامرة يمكن تصورها لدى الوصول الى اسرائيل مراهقة. وهكذا "التقطها" عند الحائط الغربي يهودي ارثوذكسي عرض عليها الدراسة مجانا في المدرسة الدينية. قد يبدو العرض مريبا للشخصيات الحذرة ولكن ازابيل كانت من طينة اخرى لا تعرف الخوف. أخبرتني في مطعم ايطالي في القدس ، "كان الجو عظيما. الناس كرماء وصادقون وكانوا يشجعونني على طرح الأسئلة". كانوا يحضونني ، "استمري في طرح الأسئلة". وفي النهاية لم يعد بإمكانهم الإجابة عن اسئلتي فأرسلوني الى حاخام. وبعد اسبوعين قررتُ أني استوعبتُ ما تريد المدرسة الدينية توصيله فتركتُها الى شيء آخر. كانت تجربة رائعة. لا شيء يوحي بوجود مخطط شرير بالمرة" (١٩). اليوم تحظى ازابيل باعتراف الجمهور بكونها نجما صحافيا صاعدا في موقعها مراسلةً متقدمةً لمجلة ذي جيروسليم ريبورت *The Jerusalem Report* .

أُقدِّر أنه ليس كل من تعلَّم في المدرسة الدينية "يشيفا" يرتقي الى مستوى ازابيل. جيم ليدرمان Jim Lederman وهو أقدم مراسلي اسرائيل في الخارج ، يضيف منظورا حيويا الى المسألة. فهو يكتب ان "الحاخامات

الأرثوذكسيين المتطرفين حرَّموا على اتباعهم استخدام الانترنت بسبب ما قد يتعلمونه منها. ووافقوا مؤخرا جدا على فتح ما سموه جامعة. ولكنهم....حرَّموا على وجه التحديد دراسة التاريخ والأدب والعلوم التي تتعامل مع نظرية النشوء والارتقاء مثل البيولوجيا والفيزياء الفلكية ، والفلسفة" (٢٠). وسأمضي أبعد على جبهة المنظور هذه. فالضغط الذي يُمارَس من أجل الامتثال سيؤكد نفسه دائما في كل مكان. وأحسبُ انه جزء من الوضع البشري. ما تفعله اسرائيل على نحو مغاير بوصفها دولة هو الذي ينال احترامي. إذ تمنح اسرائيل المواطنين موافقتها على التحري وتكديس الخبرات ، مثلما فعلتُ أنا عند الحائط الغربي. هنا يمكن لفتاة مراهقة أن تفكر في ترك المدرسة الدينية "يشيفا" من دون وصمة. وهنا ، ايضا ، يمكن لصبي من اليهود الأرثوذكسيين المتزمتين ان يلهو على رمز من رموز النزعة الاستهلاكية المأخوذة بالصرعات الجديدة. هنا ، إذاً ، يشهد الأشخاص طاقاتهم تتبدى في عدة أشياء دفعة واحدة بما يعكس تعدد صور الله ذاته.

زيارة المناطق الفلسطينية قائمة! حسنا ، منطقة واحدة منها على أية حال ـ الضفة الغربية. على الفطور نستمع الى إيجاز من دبلوماسي يعمل مع الفلسطينيين مباشرة. فهو يؤمن بهم ، ويقول ، "أن هذا شعب قادر ، لو تُرك لحاله ، على حكم نفسه". ولكن "تركهم لحالهم" يعني أكثر من انهاء الاحتلال الاسرائيلي. وهو يلَّمح الى انه يعني الاستعاضة عن حكم عرفات المتسلط بحكومة تهتم بما يريده شعبها مهما تكن مرارته على القضية الوطنية. ويكشف الدبلوماسي فيما نتكوَّم نحن داخل سيارته المضادة للرصاص ، "ان الفلسطينيين تعلموا الكثير من اسرائيل ، وهم من نواح عديدة يريدون مداناة الاسرائيليين. وذات مرة قال لي سائقي: "ما نحتاج اليه هنا هو سيادة القانون مثلما موجود عندهم في اسرائيل"" (٢١). الرأي العام يردد موقفه هذا. وبحسب خليل شقاقي الذي يدير

مؤسسة لاستطلاع الرأي العام فانه ، "عندما يُسأل الفلسطينيون أي ديمقراطية يعجبون بها أكثر ويريدونها لهم ، تأتي الديمقراطية الاسرائيلية بالمرتبة الاولى حتى هذا اليوم".

يبدو ان صاحبنا الدبلوماسي يشعر انه قال أكثر مما ينبغي. وإذ كان عصبيا بمزاجه ومتكتما بحكم إعداده المهني ، يلتزم جانب الصمت خلال الرحلة التي تستغرق نصف ساعة الى رام الله. ولا يعني ذلك عدم وجود موضوع للنقاش. فبعد عبورنا أول نقطة تفتيش نتوقف عند اشارة مرور. وعلى كتف الطريق تنتصب لوحة اعلان ضخمة تغطيها صور أطفال رضع. وكُتب شعار من نوع ما بحروف عربية. أطلبُ من الدبلوماسي الذي تولى بنفسه قيادة السيارة هذا الصباح ، أن يترجم لي كلمات الشعار. يتظاهر بأنه لم يسمع ثم يتظاهر بأنه لا يرى ، وأخيرا يشرئب بعنقه "لإلقاء نظرة أفضل" ولكن اشارة المرور تتغير عندذاك فننطلق بعيدا في سيارتنا. هذه لن تكون عملية التهرب الوحيدة في ذلك اليوم.

جئنا الى رام الله في يوم رفع فيه الجيش الاسرائيلي حظر التجول ليتمكن طلاب المدارس الثانونية من انهاء امتحاناتهم. الشوارع تعج بالمتبضعين الذين يتسابقون مع الزمن لشراء ما يكفي مدة اسبوع من التموينات. عربة يجرها حصان تقف بين سيارة جاغوار قديمة وسيارة آودي جديدة. اليافطات المعلقة على مواقع بناء مختلفة تشبه الأكواخ تقول ، "من تمويل المفوضية الاوروبية". انها ابنية متداعية وفي بعض الحالات سُدت منافذها بالالواح. ندخل طريقا جانبيا موحلا وَجْهَتُنا تقع في نهايته ، وهي بعثة دبلوماسية. انها من الخارج بلا هوية عمليا ، في حين ان الحركة في الداخل تعاني من فقر الدم.

لكن احساسا بالترقب ينتابني رغم ذلك. من بين الناشطين الفلسطينيين

الذين كنا هناك لملاقاتهم رجاء شهادة ، وهو كاتب ومحام ومؤسس منظمة "الحق" المستقلة لحقوق الانسان. طلبتُ أن يكون حاضرا لأنه ، مما نُشر على أقل تقدير ، أكثر من اصبع يعمل بالبطارية لتوجيه الاتهام الى "الآخر". على الورق ينضح اسلوب شهادة بالظلال التي تموه معاني الكلمات. آمل بأن احادثه عن كتابه الجديد ، "غرباء في الدار: "بلوغ مرحلة النضج في فلسطين المحتلة" *Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine*

يحوي الكتاب صورة شخصية لوالده عزيز ، الذي كان أول فلسطيني مرموق يقبل بوجود اسرائيل ويتقدم بحل يقوم على انشاء دولتين. وبحسب شهادة فان أزلام عرفات ردوا على عزيز بنعته "متعاونا حقيرا" في الاذاعة العربية. وأفتى الصوت المتهدج ، "أنك ستدفع ثمن خيانتك حيث سنقوم بتصفيتك وإسكاتك الى الأبد ونجعل منك عبرة للآخرين" (٢٢). نقابة المحامين الفلسطينيين منعت عزيز من ممارسة المهنة. وبعد سنوات قُتل في ظروف غامضة. أحسبُ أن نشر اسمه في مثل هذا الكتاب الجرئ يشير الى استعداد شهادة للخوض أعمق في الحديث عن هذه العقبات ذات الصنع المحلي في طريق السلام.

لم يكن شهادة داخل المبنى عند وصولنا ولكن اثنين من الناشطين الآخرين كانا هناك. الأول ، الدكتور علي جرباوي ، وهو عالم سياسي ، لا يخرج ابدا عن "النص". وبعد القاء محاضرة مطولة في التاريخ يستدرجنا بتعليل من صميم القلب. "دعونا لا نضحك على انفسنا. إذ ليس هناك شيء اسمه احتلال حميد. فالاحتلال يعني ان مصيرك لم يعد بيدك. وقد شاهدتم على نقاط التفتيش التي مررتم بها أننا لا نستطيع التنقل".

صحافي يقول ، اوقفوا التفجيرات الانتحارية ، وستعود حرية التنقل للجميع. الدكتور جرباوي يشك في ان الفلسطينيين كانت عندهم حرية تنقُّل يُعتد بها قبل ان يتفشى وباء التفجيرات. يُخرج بطاقة خضراء من

جيب الصدر. "احمل هذه معي اينما أذهب. في مدينة مغايرة تكون بلون مختلف. انه ابارتهايد (فصل عنصري)" (٢٣). يعترض آخر متسائلا ، لماذا إذاً انسحب عرفات في صيف عام ٢٠٠٠ من أفضل فرصة أُتيحت على الإطلاق لإقامة دولة مستقلة ـ في خطة أُعدت بوساطة الرئيس الأميركي بيل كلنتون لتلبية القسم العظم من مطالب الفلسطينيين؟ الدكتور جرباوي يشجب المشروع بوصفه خديعة يُراد بها احياء البانتوستانات أو المستعمرات شبه المستقلة التي كانت سائدة في جنوب افريقيا في حقبة الفصل العنصري. نتساءل لماذا لم يتقدم عرفات ، على افتراض ان هذه صحيح ، بأي مقترح مقابل؟ لماذا رفض العملية بكل بساطة وحرم شعبه من امكانية الاستمرار في المفاوضات؟

في غمرة نقاش كان مثقلا بعوامل التوتر يدخل رجاء شهادة الغرفة على اطراف اصابعه. يبقى صامتا بل يكاد يكون متجهما بانزوائه خارج دائرة الضوء. عبد المالك الجابر ، الناشط الذي كان جالسا بجانب الدكتور جرباوي طوال الوقت ، يتكلم للتوثق من أن موضوعة الفصل العنصري لا تختفي في حمأة التراشق بالتحديات. "زوجتي تحمل بطاقة هوية مقدسية وعندما أنجبت ابنتنا داخل اسرائيل...." ويسهب في وصف الشكليات البيروقراطية في معاملة التقدم بطلب شمول مولودته الجديدة بالضمان الصحي ، وكانت العبرة من قصته ان ظروف الفصل العنصري تجثم على صدور الفلسطينيين في عموم اسرائيل وليس مجرد في الضفة الغربية وقطاع غزة. وهو يقول ، "نحن من سكان القدس وندفع كل ما علينا من ضرائب ولكن هناك أساليب لحرماننا من حقوقنا على أساس عرقي" (٢٤).

انه على حق. فأن يكون النظام ديمقراطيا لا يمنع ذلك أي دولة من وضع أقلياتها في موقع المستضعَف. انظروا ، على سبيل المثال ، كيف ان عدد

ضباط التجنيد الذين يزورون المدارس الثانوية الأميركية حيث توجد نسبة عالية من الطلاب ذوي الأصل اللاتيني (الناطقين بالاسبانية) يزيد مرات مضاعفة على عدد ممثلي الكليات الذي يأتون لترشيح الطلاب الذين يمكن أن يواصلوا دراساتهم العليا بعد الثانوية. واسرائيل ايضا ليست غريبة على ممارسة العنصرية ، كما ستنبري صحيفة هآرتس لتكون سبَّاقة الى نشر ذلك. ولكن بعد ثلاثة أشهر من الاجراءات الروتينية المرهقة **أفلح** الجابر وزوجته في تسجيل ابنتهما في دائرة التأمين الصحي. فهل صُودرت حقوقهم في نهاية المطاف؟ ان هذا ليس بحثا بالمجهر عن مبررات للوضع ، ليس عندما تكون الحكومة تحت طائلة الاتهام بممارسة الفصل العنصري.

ولكن لديّ اسئلة أكثر آنية. فان اثنين من الفلسطينيين الثلاثة قدَّموا وجهات نظرهم على النحو المطلوب فهل سيفعل ثالثهم الشيء نفسه؟ أم أننا سوف نسمع شيئا ما ـ أي شيء ـ يتناول كيف ان الثنائيات الحدية من قبيل "نحن في مواجهة "هم" ، اليهودي ضد العربي" ، تمسخ الشعبين على السواء؟ كل الأنظار تتجه صوب شهادة. وبخجل يُخرج شهادة كتابه. "أحسنتَ يا هذا!" ، قلتُ هاتفة له مع نفسي.

أعلَنَ شهادة ، "صفحة ١٧٣" ثم بدأ القراءة. "ان الايديولوجيا والبلدوزرات هما بلاء هذه الأرض. فالاولى توحي والثاني تجعل ممكنا في يوم واحد ما كان يتطلب انجازه عشرة رجال وشهرا كاملا" (٢٥). يستخدم شهادة الدقائق التالية لتلاوة مقطع عن التكنولوجيا ـ والأجندة ـ التي تملكها اسرائيل لتشريد الفلسطينيين. ولأنه قرأ كتابه مرتين من قبل وكان عمليا يستظهر الفقرات الرئيسية فيه ، فاني الحظُ أن شهادة ، في هذا الوضع ، يتوقف قبل أن يصل الى باب هام من الكتاب. انه باب يقول فيه والده ان الحل الممكن للقضية الفلسطينية يتعين أن

يتحقق بالتفاوض لا بالقنابل. وإذا اردنا الاقتباس بدقة فانه يقول "ان مبادرة سياسية" هي وحدها التي ستتكلل بالنجاح ، "وفي وقت سريع قبل أن لا تكون هناك أرض تستحق الذكر" (٢٦). مبادرة سياسية وفي وقت سريع: تماما ما أُتيحت لعرفات فرصة العمل من أجله ولم يعمل.

تذهلني النهاية التي يخلص اليها شهادة. ولكني أعرف ما فيه الكفاية عن النهاية التي يؤول اليها هذا المقطع تحديدا لأني أفهم لماذا يمارس الرقابة الذاتية على نفسه أمام اثنين من مواطنيه ، مثقف صلب في الأحوال الاعتيادية . وهو يكتب في مكان آخر من كتابه أن في فلسطين "يتآمر المجتمع على تدمير مَنْ يحالفهم التوفيق وتثبيطهم وإسقاطهم بحسد آكل لا يُبقي على شيء. انه مجتمع يشجعك على المداهنة. فأنت تستهلك القسم الأعظم من طاقتك في مد مجسات لاستشعار رأي الآخرين بأعمالك لأن حياتك تتوقف على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع مجتمعك" (٢٧). أتذكر ما قالته مديرة المتحف في تل أبيب لي: ربما من أجل البقاء كان نظيرها الفلسطيني يمتنع عن الرد على اتصالاتها. فأي رفض للانخراط في لعبة الضحية الجماعية يكون ثمنه باهظا ، وقد دفع والد شهادة هذا الثمن قناطير. "كان رجلا حيويا ذا روح جماعية لم يُسمح له قط بالنجاح. وقد أصبح رجلا مستهدَفًا...."(٢٨) أُريد ان اسأل نجله إن كان ينظر الى نفسه ايضا على انه يحمل صفات والده. ولكن السؤال يبدو قاسيا. يكفي أنه في اليوم الذي يستطيع سكان رام الله التجوال ، لا يجرؤ رجاء شهادة على المغامرة بعيدا عن عتبة نصف الحقيقة.

ينتهي لقاؤنا بصورة مفاجئة عندما يتذكر الفلسطينيون أن وقتهم محدود للقيام ببعض المهمات قبل أن يبدأ حظر التجول. نغادر الغرفة الواحد تلو الآخر ، جوعى ومتوجسين بعض الشيء لأن منظمي الزيارة أعدوا سندويشات من الجمبون (لحم فخذ الخنزير) والجبنة للغداء. جمبون

وجبنة! لمجموعة من الصحافيين بينهم مسلمة ويهوديان ، في وكر من اوكار الدبلوماسية! ياللغباء! (٢٩) .

خلال مداولاتنا المرتَجَلة حول ما ينبغي عمله بشأن الغداء انسحبتُ للإطلاع على المطبوعات المرصوفة على رف للمجلات ، صُفَّت على الرف دراسات وتقارير ومجلات اكاديمية يعود تاريخها الى منتصف التسعينات. أدس مطبوعين منها في حقيبتي لأني أستطيع أن أتعلَّم منها شيئا عن السياق ، ولأني ، بلى ، لأني فضولية. وفضولي هو السبب في أني أُحبُ ايضا الطواف على مكتبات المطارات. فهي مؤشر الى الأفكار التي يبيح المجتمع لأفراده أن يحملوها معهم.

تلك الليلة ، قبل رحلة العودة الى تورنتو ، دخلتُ مطار بن غوريون ومدينة رام الله ماثلة في ذهني ـ وفي نيتي العثور على ما متاح من كتب عن اللخبطة التي اسمُها النزاع الفلسطيني الاسرائيلي. لا أرى إلا كتابين: واحد محايد نسبيا والآخر متعاطف جهارا مع العرب. فان اسرائيل تسمح بالتشكيك في شرعيتها على أيدي مؤرخين تُباع كتبهم في مطارها الوطني. جدوا تفسيرا لهذا الموقف! ولكني مع ذلك لا استطيع تجاهل الإدعاء بممارسة الابارتهايد (الفصل العنصري) الذي يؤكده ناشطون فلسطينيون بهذه الحماسة. فهم يشهدون يوما بعد آخر ما رأيتُه أنا من لمحة عابرة: شابات وشبان بأسلحة تتدلى على صدورهم. طريق ترابية تمتد أميالا يتعين قطعها مشيا على الاقدام بين نقاط التفتيش. جنود أفظاظ يرفضون التلفظ بكلمة واحدة بالعربية حتى إذا كانوا يعرفونها. بطاقات هوية ، اسلاك شائكة ، مدرعات ، مستوطنات واسعة تبدو كأنها ضواحي وسيتطلب تفكيكها سنوات ، يتأخر سنوات مثلها موعد تحقيق العدالة للفلسطينيين. لقد وجدتُ نفسي في مأزق اخلاقي ولكني مقبلة على ما من شأنه تنويري.

خلال الرحلة أفتحُ أحد المطبوعات التي أخذتُها من رام الله ، انه عدد من مجلة دراسات فلسطينية *Journal of Palestine Studies* تاريخه ١٩٩٧ ، وهو عام كانت عملية السلام لم تزل واعدة فيه. تشير المقالة الأولى الى ان مؤسسي اسرائيل أقاموها بقمع الديمقراطية. وتستشهد المقالة باعتراف الزعيم الصهيوني وايزمان قائلا "لم يكن بمقدورنا أن نقيم قضيتنا على موافقة العرب ، فطالما كانت موافقتهم مطلوبة سيرفضون منحها بطبيعة الحال" (٣٠). وكلما قرأتُ أكثر من المقالة زاد فهمي لمرارة كاتبها.

في المطبوع نفسه قرأتُ "اعترافات" رجل يعود الى غزة بعد سنوات من الغربة. في عام ١٩٩٧ بدا وكأن فلسطين المستقلة تلوح في الأفق ، وقد عاد الى الوطن لتخطيط حياته بعد التحرير. ولكن ما وجده كان مجتمعا يفتقر الى الأمانة متشبثا بكل ذريعة لتفريغ مظالم قديمة. "كانت هناك الجدران المدهونة حديثا باللون الأبيض....جدران لم تمر إلا أيام قليلة ، بعد مقتل فلسطيني برصاصة اسرائيلية طائشة ، حتى غطتها شعارت النعي التي خطتها كل المنظمات المعروفة والمغمورة مدعية أنه من ابطالها وشهدائها ومهددة بالثأر على نحو فظيع من قتلته. لقد تمت التضحية بالحقيقة والجدران البيضاء ، لأن المؤكد أن الضحية لم يكن ينتمي الى أي من هذه المنظمات. فالتعطش الى الشهداء تعطش غامر ، انه عاطفة سائدة"(٣١).

وهكذا فانه حتى في زمن يتسم بتفاؤل نسبي كانت أمنية الموت تستبد بالمسلمين الفلسطينيين. لماذا؟ يلحظ صاحبنا كاتب الاعترافات "ان قسوة الاحتلال ليست وحدها" المسؤولة بل الغياب المطلق لمراجعة الذات ايضا. وقد تسبب هذا في "انهيار القيم التي ينهض عليها العقد الاجتماعي. فأن يضع المرء نفسه فوق النقد ليس دليلا على الثقة بالنفس

بقدر ما هو دليل تقوقع على الذات ، والانغلاق عن بقية العالم. وقد كان الثمن باهظا".

اعقدُ العزم على معرفة المزيد عن كيف كفر المسلمون بتحذير القرآن من "إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم" (٣٢). وقد أكدت لي الصحافة الاسرائيلية أنه ليس هناك ما يُخزي في كلام جماعة ما عن مواطن ضعفها. وأظهر لي "الوقف" أن هناك عارا عظيما في البقاء مكبلين ـ بزنانير أو غيرها. فالى الجحيم بصانعي هذه القيود. ماذا هناك غير ذلك مما لا نصارح نحن المسلمين به أنفسنا فنبقى عائمين على موجات الشفقة وقانعين بصورة الضحية؟

هوامش الفصل الرابع

١ ـ انظر الصورة.
٢ ـ حديث مع ميخائيل هاندلزاتس Micahel Handelsatz الذي يعمل محررا في صحيفة هآرتس ، تل ابيب ، ٥ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٣ـ حديث مع نهاما غورالنيج Nehama Guralnij مديرة متحف تل ابيب للفنون ، تل ابيب ٥ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٤ ـ توفاح لازاروف Tovah Lazaroff واليسا روز Alisa Rose وماليسا رادلر
Melissa Radler ، "تصريح لابيد Lapid ضد المهاجرين الأميركيين المتدينين يثير الغضب" ، جيروسليم بوست *Jerusalem Post* ، 9 يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢. ونائب البرلمان المعني هو يوسف "تومي" لابيد ، زعيم حزب التغيير العلماني بصرامة. أصبح لابيد منذ تصريحه هذا وزير العدل في الحكومة الائتلافية برئاسة اريل شارون.
٥ ـ "مشروع قانون عنصري" ، افتتاحية صحيفة هآرتس ، ٩ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.

٦ ـ "اسكتوا ، وداعا ، باي باي" ، افتتاحية هآرتس ، ٢٤ يونيو (حزيران) ، ٢٠٠٢.
٧ ـ اندري عليون بروكس Andree Aelion Brooks ، "امرأة النهضة" ، صحيفة هآرتس ، ٢٤ يونيو (حزيران) ، ٢٠٠٢.
٨ ـ انظر على سبيل المثال ، اريح اوساليفان Arieh Osullivan ، "الناطق باسم قوات الدفاع الاسرائيلية امرأة" ، جيروسليم بوست *Jerusalem Post* ، 9 يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٩ ـ انظر الصورة.
١٠ ـ حديث مع رون ايدلهايت Ron Edelheit ، القدس ، ٦ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
١١ ـ زرتُ قبة الصخرة في ٧ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
١٢ ـ خالد ابو طعمة ، "كيف بدأت الحرب" How the War Began ، صحيفة جيروسليم بوست *Jerusalem Post* ، 19 سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠٢.

المقالة كلها جديرة بالقراءة ولكن دعوني أُشدد على مقطع منها. يكتب طعمة: "اعترف عماد فالوجي ، وزير الاتصالات في السلطة الفلسطينية ، في ١١ اكتوبر (تشرين الأول) ، ٢٠٠١ بالتخطيط لأعمال العنف منذ يوليو (تموز) ، قبل فترة طويلة من "استفزاز" شارون. وقال: "كل مَنْ يظن ان الانتفاضة اندلعت بسبب زيارة شارون البغيضة للمسجد الأقصى مخطئ ، حتى إذا كانت هذه الزيارة القشة التي قصمت ظهر الشعب الفلسطيني. فهذه الانتفاضة كان مخططا لها مسبقا ، منذ عودة الرئيس عرفات من مفاوضات كامب ديفيد حيث قلب الطاولة على الرئيس كلنتون. وبقي [عرفات] صامدا متحديا [كلنتون] ورفض الشروط الأميركية وقد رفضها في قلب الولايات المتحدة".

طعمة ، وهو صحافي عربي ، قال لي انه تعرض الى انتقادات لنشره الغسيل الفلسطيني القذر ولكن الحقائق [التي اوردتها] لم يُطعن فيها قط ، ولا مرة واحدة". حديث في القدس ، ١ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٣.
١٣ ـ انظر الصورة.
١٤ ـ انظر الصورة.
١٥ ـ الوكالة التي اعنيها هي وكالة الامم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى ، المعروفة باسم "انروا".
١٦ ـ انظر الصور.
١٧ ـ اتغار ليفكوفيتس Etgar Letkovits ، "الوقف يحقق في تسرب في الحائط الغربي" ، Wakf to investigate Western Wall leak ، جيروسليم بوست
Jerusalem Post ، 8 يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
١٨ ـ انظر الصورة.
١٩ ـ ايزابيل كيرشنر Isabel Kershner ، حديث في القدس ، ٨ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٢٠ ـ مقابلة مع جيم ليدرمان Jim Lederman ، 9 يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٢١ ـ لا استطيع الكشف عن هوية الدبلوماسي لأن حديثه معنا اعتبر من الأحاديث "التي لا يمكن أن تُنسَب الى مصدرها". جرى الحديث في ٨ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.

٢٢ ـ رجاء شهادة مستشهدا بالاذاعة العربية في كتابه "غرباء في الدار: بلوغ سن الرشد في فلسطين المحتلة"
Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine (South Royalton, Vermont: Steerforth Press), p. 68.
٢٣ ـ حديث مع الدكتور علي جرباوي ، رام الله ، ٨ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.

٢٤ ـ حديث مع عبد المالك الجابر ، رام الله ، ٨ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٢٥ ـ رجاء شهادة في قراءة من "غرباء في الدار.." ، ص ١٧٣.
٢٦ ـ عزيز شهادة كما يُنقل عنه في كتاب "غرباء في الدار..." ، المصدر السابق ، ص ١٧٥.
٢٧ ـ رجاء شهادة ، المصدر السابق ، ص ١٤١.
٢٨ ـ رجاء شهادة ، المصدر السابق ، ص ١٧٦.
٢٩ ـ حين رويتُ هذه القصة لميشيل ردت عليّ بتعبير "يا للغباء!" ذاته وقالت مداعبة ، "إذا كنتِ تلك المتمردة على التقاليد فلماذا لا تأكلين لحم الخنزير؟" وأنا لستُ واثقة من أن لديَّ اجابة مقنعة.
٣٠ ـ حاييم وايزمان Chaim Weizmann كما يستشهد به وليد خالدي ، "عودة الى قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العام للامم المتحدة" Revisiting the UNGA Partition Resolution مجلة الدراسات الفلسطينية *Journal of Palestine Studies* ، العدد ١٠٥ ، خريف ١٩٩٧ ، ص ١٥.
٣١ ـ حسن خضر ، "اعترافات عائد فلسطيني" Confessions of a Palestinian Returnee ، المصدر السابق ، صص ٨٩ ـ ٩٠.
٣٢ ـ القرآن ، سورة الرعد: ١١.

الفصل الخامس

مَنْ يخون مَنْ

ثمة نكتة يتناقلها الفلسطينيون تذهب الى ان عرفات يموت شهيدا وينتقل الى الجنة. وهناك يجد حشدا من الشهداء مثله يتجمعون على باب الجنة في لهفة للمطالبة بما وُعدوا به من عذراوات ونبيذ. ولكن الملائكة منعتهم من الدخول.

وعندما يرى الجمع الساخط عرفات يتنفسون الصعداء ويأخذون في طمأنة بعضهم بعضا قائلين ، "ها هو رئيسنا وسيتدخل لحل الإشكال".

عرفات يسأل مرتبكا ، "لماذا لستم في الداخل؟". فيخبره فتيانه ، "ان اسماءنا ليست على القائمة. وليس لديهم شيء اسمه فلسطينيون". فيتوجه عرفات نحو الشباك ويقدم نفسه الى الملاك الذي يعمل كاتبا هناك على انه قائد الشعب الفلسطيني.

يتساءل الملاك الاداري ، "مَنْ؟"

يزمجر عرفات ، "الشعب الفلسطيني!"

يُقلّب الملاك الكاتب قائمة المؤهلين لدخول الجنة ثم يهز كتفه معبرا عن الأسف. يطالب عرفات بمقابلة الله. يعود الملاك الى الداخل لإبلاغ الله ان أحدا على الباب يصرخ انه وشعبه شهداء ويريدون حقهم بمكان في الجنة. ويضيف الملاك ، لكنهم ليسوا على القائمة".

يسأل الله ، "أمتأكد أنت؟".

يُجيب الموظف البيروقراطي الملائكي ، "لا أعرف كم مرة دققتُ".

يُفكر الله مليا ثم يتوصل الى قرار. "لماذا لا تطلب من الملاك جبرائيل ان يُقيم لهم مخيما حتى نجد حلا مناسبا لهم" (١).

وهنا تأتي الضربة التي يُفترَض أن تثير الضحك. فالفلسطينيون لاجئون دائمون ، في السماء كما في الأرض.

هذه النكتة تعبر عن شعور الفلسطينيين المرير بأن لا أحد يريدهم ، ولا حتى "الأمة" العربية المجيدة. بل يمكن القول ان الفلسطينيين هم يهود العالم العربي.

نشأت الحركة التي عملت من اجل اقامة دولة اسرائيل ، الحركة الصهيونية ، في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر. فقد ادرك الصهاينة ان اللاسامية لن تختفي وانها قد تزداد تفاقما. وحذروا من ان اليهود بحاجة الى وطن قومي ، وان اليهود يحتاجون الى هذا الوطن لا في القطب الجنوبي ولا في اوغندا ، وانما رقعة في الشرق الأدنى وعلى أرض يمكن ان ينسبوا اليها أول جذورهم وأعمقها وأكثرها رسوخا ـ الأرض التي سمَّاها العرب في وقت متأخر "فلسطين".

ثمة جدل محتدم حول ما إذا كانت ثمة آصرة تاريخية تربط اليهود بفلسطين ، وبالتالي ما إذا كان يحق لهم أن يعتبروا أيا منها وطنا لهم. أنا اعتقد أن من حقهم ذلك. فأولا ، تفيد دراسة للحامض النووي اجراها فريق دولي من الباحثين ونُشرت في مجلة أكاديمية العلوم الوطنية

أن Proceedings of the National Academy of Sciences اليهود والعرب يشتركون بجد واحد على الأقل ـ كونهم من "أصل شرق اوسطي واحد" ، على حد تعبير الدراسة (٢).

التقليد الإسلامي يتفق مع هذا الاستنتاج ، وهو يذهب الى ان اسماعيل ، أب الأمة العربية ، واسحاق ، أب الأمة اليهودية ، كانا أخوين غير شقيقين من أبناء ابراهيم. ويُذكر ان محمدا ينحدر من سلالة اسماعيل في حين ان موسى وعيسى ينحدران من سلالة اسحاق في العائلة نفسها. وكلهم ينتسبون بصلة قربى الى ابراهيم. "وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا" (٣). أكره أن اكون انتقائية ولكن إغفال ذكر هذه الآية سيكون انتقائيا هو الآخر.

أخيرا ، لنعد الى الحركة الصهيونية. فعندما وصل اليهود الأوروبيون الى فلسطين اكتشفوا ان عددا قليلا من أبناء ديانتهم يعيشون في ما هو اليوم "الضفة الغربية". متى وصل اليهود الى هناك؟ أليس من الجائز أن اليهود كانوا دائما هناك؟ يجنح المستوطنون حديثو العهد في الضفة الغربية الى إثارة استنكار بالغ من موقفهم ، يستحقونه في غالب الأحيان بسبب مستوطناتهم غير المشروعة. ولكن ثمة وطنا في مكان ما هنا ، والنواح الزاعق بأن اليهود مغتصبون غرباء لفلسطين ينطلق من جهل لا يقل جهلا عن الهذر الصاخب بأن لا مكان للعرب في اسرائيل.

إذاً ، كيف اصبح الفلسطينيون لاجئين منبوذين حتى داخل العالم العربي؟ من خلال ويلات الحرب ـ نزاع أشعلته البلدان العربية التي لم تتمكن من استساغة وجود اسرائيل بينها. فبعد يوم واحد فقط على اعلان دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ غزت خمسة جيوش عربية اسرائيل ، وصارت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين مشكلة خطيرة. في بعض المدن عمد القادة

العسكريون الاسرائيليون الى تشريد السكان العرب مدفوعين باستراتيجية مثيرة للجدل تحت اسم "خطة داليت" Dalet Plan . ولم يعد بامكان اسرائيل أن تنكر ما أنزلته من مآس بحق الفلسطينيين. ولكن في مدن اخرى وُجهت دعوات الى العرب للبقاء ـ وكثير منهم بقوا ليقبلوا بنيل الجنسية الاسرائيلية. فلسطينيون أكثر بكثير اختاروا الرحيل ، متوقعين بكل ثقة أن يعودوا بعد رمي اليهود في البحر.

هؤلاء اللاجئون نزحوا ليس بأمر من الاسرائيليين وإنما من العرب. وهذا ما قاله خالد العظم ، رئيس الوزراء السوري خلال تلك الحرب. ففي مذكراته التي نُشرت عام ١٩٧٣ كتاب العظم حول دعوة الحكومات العربية لسكان فلسطين الجلاء عنها والرحيل الى البلدان العربية المجاورة بعد زرع الخوف في نفوسهم..."ومنذ عام ١٩٤٨ نطالب بعودة اللاجئن الى ديارهم لكننها نحن الذين شجعناهم على النزوح" (٤). وما يثير أسى العظم ان "هذا النزوح الجماعي ساعد اليهود الذين تعزز موقعهم دون أن يبذلوا أي مجهود". أين هذا من تحميل اسرائيل المسؤولية الكاملة عن أزمة اللاجئين الفلسطينيين.

الأمم المتحدة ايضا اسهمت في الأزمة. فهي اليوم تعتبر ٣,٥ مليون فلسطيني لاجئين رغم انها تستخدم تعريفا لا يُطبَّق على أي شعب نازح آخر. فإن التعريف لا يسري على اللاجئين الأصليين الذين كان عددهم نحو ٧٠٠ الف لاجئ فحسب بل يشمل أطفالهم واحفادهم ايضا. ويعيش ثلث اللاجئين في "مخيمات" مدينية تحيطها عمارات شاهقة جديدة وحقول رحبة وفيلات فلسطينية خاصة.

وضع محزن ولا داعي له. فان مئات الوف اليهود وجدوا أنفسهم مطرودين من البلاد العربية بحلول خمسينات القرن الماضي ولكنهم لم

يرزحوا في بالوعات للاجئين بل استوعبتهم اسرائيل ودمجت غالبيتهم العظمى في محيطها. وعلى هذا الصعيد منحت اسرائيل الجنسية لنحو ١٠٠ الف فلسطيني في اطار مجهود للم شمل العائلات. فماذا فعلت الحكومات العربية عموما للفلسطينيين؟ انها خذلتهم أو فعلت ما هو أسوأ.

بعد حرب الخليج عام ١٩٩١ أبعدت الكويت ما لا يقل عن ٣٠٠ الف فلسطيني من أراضيها ردا على دعم ياسر عرفات لغزو صدام حسين. وغالبية المبعدين "لم يعرفوا قط فلسطين أو أي بلد آخر غير الكويت" ، كما يقول كنعان مكية ، مؤلف كتاب "القسوة والصمت" في العالم العربي. وهو يقول ان "مجموعات شبه رسمية من المدنيين الذين أخذوا تطبيق القانون بيدهم" في الكويت ، قامت الى جانب طرد ابرياء ، بشن حملة "اعتقالات اعتباطية" ضد فلسطينيين آخرين. وإن هؤلاء "إذا "لم يختفوا" فلأنهم حُصدوا بالرصاص علنا أو تعرضوا الى التعذيب والقتل"(٥).

هاكم مقياسا آخر لنفاق العرب. فعلى امتداد سنوات كانت الكويت تتبرع لوكالة الأمم المتحدة المسؤولة عن رعاية اللاجئين الفلسطينيين أقل مما تتبرع به اسرائيل. والعربية السعودية ايضا كانت تنفق عليهم أقل مما تنفق اسرائيل حتى أخذت عائدات النفط بالتدفق. واليوم؟ رغم خزائنها العامرة بالمال والمساحات الشاسعة من الأراضي الفائضة يرفض السعوديون منح الجنسية الى أي من الفلسطينيين. ولكنهم يبثون برامج تلفزيونية ماراثونية لجمع التبرعات بالملايين من اجل تمويل عمليات التفجير التي ينفذها انتحاريون. كما انهم يكافئون عائلة مَنْ ينجح في تنفيذ عملية تفجير برحلة الى مكة ، يتحملون تكاليفها كاملة.

وفي البلدان المجاورة مثل لبنان وسوريا والعراق تتصرف الحكومات

وكأن توطين الفلسطينيين ليس من شأنه إلا الإخلال بالتعايش الهش بين المسلمين الشيعة والسنة. وفي حالة العراق كان "التعايش" يعني حكم الأقلية السنية على الغالبية الشيعية. فلماذا المغامرة بترويج هذه الحقيقة من خلال منح الجنسية لغرباء مهما بلغت عروبتهم؟ وعلى غرار اعدائه الألداء من آل سعود ابدى صدام حرصه من خلال التكفل بمعيشة عائلات منفذي التفجيرات. (العم الكبير ، كما يُحب أن يُدعى ، بادر الى التسريع بإيصال المبالغ المدفوعة في الاسبوع الذي سبق حرب ربيع ٢٠٠٣ في العراق). ولبنان حتى أقل اكتراثا ، فإن قوانينه في الحقيقة تمنع غالبية اللاجئين الفلسطينيين من العمل ساعات كاملة أو شراء ارض أو رفع مستوياتهم ليكونوا مهنيين. ويدبر الفلسطينيون أمورهم بمزاولة اعمال طارئة أو مؤقتة (٦).

والحق ان البلد العربي المسلم الوحيد الذي منح جنسيته لفلسطينيين هو الاردن ، وهذا لأن غالبية الاردنيين هم عرقيا فلسطينيون.

نستطيع ان نكيل الشتائم على "الامبرياليين" بسبب محنة الفلسطينيين ولكن الحقيقة ان لدى المسلمين امبرياليهم الذين ينبغي ان توجه اليه اصابع الاتهام. قد تقولون ليس بقدر مساوٍ ، وأنا أقول ربما بقدر أكبر. وتحليل كيف بدأت دراما الشرق الأوسط اصلا انما هو درس في الطريق التي لجأ اليها المسلمون لطعن بعضهم بعضا على امتداد عقود من الزمان. وما أنا بصدد طرحه ليس تاريخا شاملا بل فرز حقائق ضاعت في غمرة الاستقطاب الحالي.

في اوائل القرن العشرين ، كما نعتقد بما يريحنا ، جاء الصهاينة وطردوا الفلسطينيين بقوة السلاح. وكما قلتُ فان كثيرا من العرب تعرضوا حقا الى التشريد. ولكن التوجيهات بالجلاء لم تكن دائما صادرة عن اليهود. إذ

كان العثمانيون ـ وهم مسلمون اتراك ـ حكام الامبراطورية التي كانت تسيطر على فلسطين وقتذاك. وعلى الضد من مصالح الفلاحين العرب المستأجرين تبرع العثمانيون ببيع الأراضي الى الصهاينة الاوائل. نعم ، ان مسلمين فعلوا ذلك ، وكانوا واعين بما يفعلون. وفي عام ١٩١١ بعثت ١٥٠ شخصية عربية بارزة ببرقية الى البرلمان التركي للاحتجاج على استمرار عمليات بيع الاراضي. وقد تم تجاهل برقيتهم (٧).

خلال الحرب العالمية الاولى قدم العرب مساعدتهم لبريطانيا ضد العثمانيين بشرط ان تعود فلسطين كلها الى العرب بعد الحرب. ويبدو ان السير هنري ماكوهان ، المندوب السامي البريطاني لدى مصر والسودان ، اعتبر ذلك صفقة في سلسلة من الرسائل الخاصة عام ١٩١٥. ولكن في وعد بلفور عام ١٩١٧ فسخت بريطانيا حلفها المفتَرَض مع العرب واعلنت لندن تخصيص قسم من فلسطين لليهود الذين كانوا يواجهون اعتداءات لئيمة بصورة متزايدة في اوروبا. وهكذا فان الأرض الموعودة غدت "الأرض الموعودة مرتين". ومنذ ذلك الحين والمسلمون يلعنون المستعمرين الغربيين الذين غدروا بهم.

ولكن مرة اخرى ، اقول اننا تخلفنا عن التكفير عن آثامنا نحن في عام ١٩١٥. فقد شهد ذلك العام ذروة جريمة الابادة التي ارتكبها العثمانيون المسلمون ضد المسيحيين الأرمن (٨). وقام سفراء الله في الأرض بتغييب أكثر من مليون مسيحي عن طريق التهجير والتجويع وحمامات الدم. لماذا لا أسمع كثيرين منا يدعون الأتراك الى تعويض الضحايا؟ ينبغي ان نغضب ، لا سيما وأن الأرمن لا يريدون استعادة أي شيء من ممتلكاتهم بل مجرد الاعتذار منهم. هل المسلمون منهمكون في التشبث بسمو قضية المغدورين منهم بحيث لا نرى كيف اننا نغدر بالآخرين؟

نحن المسلمين لسنا الوحيدين الذين تعيَّن عليهم القبول بالأقل من القوى الاستعمارية. فاليهود ايضا كانوا ضحية خيانات. كان ذلك في عام ١٩٢١. ومن الأرض التي حددتها بريطانيا لتكون وطن اليهود القومي ذهب نحو اربعة اخماس للعرب من اجل اقامة ما سيغدو الاردن. وبعد عامين فقط تنازلت بريطانيا عن مزيد من الاراضي المخصصة لليهود ، هذه المرة الى سوريا. ولكن حينذاك ، كما الآن ، كانت التنازلات المفروضة على اليهود لا تعني شيئا للقادة المسلمين.

هل تعرفون اسم الحاج امين الحسيني؟ ينبغي ان نعرفوه. فقد اصبح مفتي القدس في عام ١٩٢١ ورئيس المجلس الاسلامي الأعلى في عام ١٩٢٢. ورغم انتخاب الحاج امين لرئاسة المجلس حسب الاصول فان انتخابات لم تُجر قط خلال رئاسته التي استمرت ١٥ عاما. ومن خلال تصميمه الثابت على تخليص فلسطين من اليهود كشف المفتي ان لا كوابح اخلاقية لديه إزاء التخويل بقتل العرب. فالذين يعترضون طريقه كانوا يعترضون طريق الله. ومع تصاعد الخطر النازي في اوروبا تعاظمت هجرة اليهود ـ وتعاظم معها طغيان الحاج امين. ولاحظ تقرير لجنة بيل the Peel Commission التي شكلتها الحكومة البريطانية حول الاضطرابات المدنية في فلسطين عام ١٩٣٧ ، "ان يُشتبه عربي في ضعف التزامه بالقضية القومية فان ذلك يعني زيارته من قبل مجموعة من المسلحين". واضاف التقرير ان "عددا من العرب طلبوا حماية الحكومة [البريطانية]" (٩). وعليه فان تحميل اليهود مسؤولية "الارهاب الداخلي" الذي كان العرب يمارسونه سيكون اكذوبة اخرى.

ما حدث تاليا جزء من التاريخ نادرا ما نسمعه يُذكر هذه الأيام. ففي عام ١٩٣٩ إذ كانت بريطانيا منهكةً بالاضطرابات المتزايدة في الشرق الأوسط ومهتمةً بالتركيز على هزم هتلر ، قدَّمت الى الفلسطينيين خطة

لاقامة دولة كاملة (١٠). وكانت بنود الخطة: أن يعيش العرب واليهود في كيان سياسي واحد يكون تحت السيطرة الفلسطينية في غضون عشر سنوات. في هذه الأثناء ، يجري خفض حاد في شراء اليهود للاراضي وفي الهجرة اليهودية الى فلسطين. وعند نيل الاستقلال يمكن للفلسطينيين ان يقرروا سياسة الهجرة التي يرتأونها. وهذا حكم ذاتي بكل المعايير. قال ممثلو العرب ان ذلك ليس كافيا. وإذ كان المفاوضون العرب خاضعين لتأثير مفتي القدس الذي رفضت بريطانيا التحادث معه مباشرة ، أرادوا التحرير في نصف الفترة الزمنية ، وإلا فان بامكان بريطانيا ان تشرب من ماء البحر.

ولكن الناس البسطاء المساكين هم الذين دفعوا ثمن هذا التعنت. ورجال المفتي في رفضهم المبادرة البريطانية لم يستشيروا قط مزارعي فلسطين وتجارها. ويبدو ان عامة الشعب لم تكن موافقة على اجندة النخبة. وبحسب تقرير صحيفة بريطانية في عام ١٩٣٨ فان غالبية سكان القرى "لا يكنّون تعاطفا كبيرا مع المتمردين العرب الذين يحاولون ان يوقفوا مد الهجرة اليهودية ويطالبون بحكومة عربية لفلسطين. فهم لا يريدون سوى ان يُترَكوا لحالهم كي يزرعوا ويجنوا حصاد زرعم ، ويتزوجوا ويجدوا ما يسد أودهم في هذه الأوقات العصيبة لرعاية عائلاتهم" (١١). وبعدما أُفقِروا سياسيا على يد زعمائهم وجد الفلسطينيون انفسهم محرومين اقتصاديا كذلك. ونشر ثمانية فدائيين فلسطينيين سابقين بيانا اتهموا فيه مفتي القدس باساءة استخدام "مبالغ لا تُقدر من المال الذي تم تسلمه من قوى خارجية. وهذه تُعد بملايين الجنيهات ولكن هل يستطيع الحاج امين أن يشير الى جامع واحد أو مدرسة واحدة أو مستشفى واحد بناه خلال ولايته؟ هل بنى مأوى أو ملجأ أو مشروعا خيريا أو سبيلا يشرب منه المشردون المساكين" (١٢).

لنكن صريحين عن غير ذلك مما حدث خلال سنوات النازية: تواطؤ المسلمين مع الهولوكوست. فان الحاج أمين ، العالِم التقيّ نفسه الذي مارس مهاراته في الاغتيال على العرب ، ضغط على بريطانيا لإبعاد سفن محملة باللاجئين اليهود كانت متجهة الى فلسطين. وقد غرق البعض في مياه البحر المتوسط وأُعيد البعض الآخر الى غرف الغاز والمحارق في اوروبا. وظل المفتي سادرا فمنع اطفالا كرواتيين ـ الكثير منهم يتامى ـ من الوصول الى أرض القدس. ولكن حساباته كانت مع ذلك تذهب الى ان الحد من نمو السكان اليهود لن يكون كافيا لضمان فلسطين عربية فور انتهاء الحرب. ومن أجل ذلك كان المفتي يحتاج الى ان يكون معروفا وموثوقا وصاحب فضل عند معسكر المنتصر. وإذ راهن وصلى من اجل انتصار هتلر قام الحاج امين بزيارة شخصية للفوهرر. وأصبح شعر المفتي الأشقر وعيناه الزرقاوان مقياسا للمصداقية مطمئنا هتلر الى أن الحاج أمين ، بحسب كلمات هتلر نفسه ، "ربما كان يتحدر من أشرف نَسب روماني" (١٣) . وانتهى المآل بالمفتي ضيفا خاصا على هتلر في برلين حيث برعايته أُزيح الستار عن المعهد المركزي الاسلامي في ديسمبير (كانون الأول) عام ١٩٤٢.

كما قام الحاج امين بجولات على البلقان لتجنيد متطوعين مسلمين في المجهود الحربي لدول المحور. ولم يرفض بعض المسلمين البوسنيين مغازلاته لهم فحسب بل نشطوا في اخفاء يهود داخل بيوتهم. (عندما قامت اسرائيل بتكريم عائلة بوسنية من هؤلاء في ستينات القرن الماضي باحتفال في القدس قرر افراد العائلة البقاء واكتساب الجنسية الاسرائيلية) (١٤). وضحى مسلمون آخرون من الهند وآسيا الوسطى ، ومن فلسطين ، نعم فلسطين ، بحياتهم لخدمة قضية الحلفاء. ولكن قبل أن نعلن بصوابية ان الهولوكوست حدثت في اوروبا المسيحية دعونا نمعن النظر في المرآة. فان الكثير من المسلمين ربطوا مستقبلهم بهتلر. وفي عام

١٩٤٣ القى الحاج أمين كلمة في رجال الأس أس البوسنيين مؤكدا لهم ان الاسلام والنازية يشتركان في الالتزام بالنظام الاجتماعي ومؤسسة العائلة والعمل المثابر والكفاح الدائم ـ لا سيما ضد الأميركيين والانجليز واليهود. ومن عاصمة الرايخ راح الحاج أمين يبث الدعاية النازية الى العالم العربي. وفي ١ مارس (آذار) ١٩٤٤ كان فحيحه يُسمع في المذياع من راديو برلين وهو ينادي: "اقتلوا اليهود اينما وجدتوهم. ففي ذلك مرضاة لله والتاريخ والدين ، وحماية لشرفكم. والله معكم" (١٥). وتشير الرسائل الموجهة من مستمعين عرب الى دبلوماسيين المان في بغداد وبيروت الى ان رسالة المفتي كان لها تأثيرها.

ورغم ان المفتي خسر رهانه على هتلر فقد أفلت من وصمة نعتِه بمجرم حرب. وعندما اعتُقل في فرنسا بعد الحرب أفلح في الفرار من قبضة الحلفاء وتوجه في نهاية المطاف الى مصر. ورحبت الجامعة العربية حديثة التأسيس بعودة الحاج أمين. هل من الجائز ان تكون هذه الحفاوة البالغة قد شرعنت موقف المفتي الاوتوقراطي من الفلسطينيين؟ سؤال يستحق التوقف عنه. فان مهندسا يُدعى عرفات (كنيته الحقيقية وهي الحسيني ، تجعله محسوبا على عائلة الحاج امين) سيتعلم فنون "القيادة" في وقت مبكر بما فيه الكفاية. يا تُرى أين تلقى تدريبه في رفض السلام مع اليهود وممارسة الارهاب ضد شعبه وهدر الأموال المخصصة لتنميته؟

اننا بحاجة الى مراجعة صادقة على جبهة اخرى في فترة ما بعد الهولوكسوت: لماذا ولِدت اسرائيل في النهاية لكن فلسطين ولِدت ميتة. في عام ١٩٤٧ اقترحت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين مقتطعة ٤٥ في المائة من ارضها لإقامة دولة عربية و٥٥ في المائة لدولة يهودية على ان تكون القدس مدينة مشتركة بإشراف دولي. والمسلمون عموما

لا يكّفون عن الشكوى من أن اليهود كانوا سيحصلون على أميال مربعة أكثر من نصيب العرب. وأنا اعتقد اننا ابتعدنا أميالا عن الصدق بهذه الشكوى الضحلة. فنحن نادرا ما نعترف بأن الدولة اليهودية المقتَرَحة على صحراء النقب في الغالب ، كانت ستُقتَطع من أقل الاراضي الفلسطينية خصوبة. يضاف الى ذلك ان الدولة الفلسطينية المقترَحة كانت ستتباهى بغالبية عربية ساحقة من السكان ، الشيء الذي ما كان متاحا للدولة اليهودية التي كانت ستضم غالبية ضئيلة فقط من اليهود (١٦). وأيا تكن تظلماتهم فقد كان اليهود قادرين على العيش مع "الآخر" وقبلوا بمشروع الامم المتحدة ، وبعد ستة اشهر اعلنوا الاستقلال.

العرب لم يقبلوا ، فشنوا حربا على اسرائيل وخسروا حتى مزيدا من الأرض. ولعل ما هو اسوأ للفلسطينيين الاعتياديين ان الأنظمة العربية المختلفة التي استحوذت على اراضيهم بعد تلك الحرب ، لم تفعل سوى تكريس غياب الديمقراطية الذي كان الحالة السائدة قبل الحرب. هاكم ما يقوله الباحث المرموق برنارد لويس. فهو يلاحظ انه "بين ١٩٤٩ و١٩٦٧ ادَّعت الجامعة العربية ، وخاصة الدول العربية التي تحتل اجزاء من فلسطين ، انها تتحدث باسم الفلسطينيين وكانت تثبِّط ـ واحيانا حتى تمنع ـ أي مشاركة فلسطينية نشيطة في العملية السياسية" (١٧). مرة اخرى مَنْ يخون مَنْ؟

كلا ، لم أنس الحرب الباردة. فإبتداء من اواخر الأربعينات حتى ستينات القرن الماضي حوَّل استراتيجيو القوى العظمة منطقة الشرق الأوسط الى مسرح دمى. وعندي أن من اشد الأمثلة على الاستغلال خسة لم يكن من الولايات المتحدة وانما من الاتحاد السوفياتي: كان جوزيف ستالين صدَّر اسلحة من تشيكوسلوفاكيا الى اسرائيل وساعد اليهود على الصمود بوجه الهجوم الأول الذي شنه العرب. ولكن بعد فترة قصيرة على

انتصار اسرائيل في عام ١٩٤٨ انقلب ستالين على اسرائيل المتجهة نحو التحالف مع اميركا ، وأخذ يسلح العرب. وكان الزعيم المصري جمال عبد الناصر هو الزبون المفضَّل.

وخلال العقدين التاليين ظن العرب انهم وجدوا حفيد صلاح الدين ، القائد العسكري الذي صد بذكاء جحافل المسيحية خلال الحرب الصليبية على أرض القدس. وقد ألهب الضابط المصري الذي صار رئيس الجمهورية ، وعيا جمعيا بين العرب في كل مكان بتحدي سند اسرائيل الرئيسي ، الولايات المتحدة.

ان معاداة اميركا لا تعدل مناهضة الاستعمار. وهذا ما أثبته عبد الناصر. ففي عهده غالت مصر في استنشاق المخدر الايديولوجي السوفياتي مراهنة على الاشتراكية لتحقيق نهضة اقتصادية وثقافية. وعلى سبيل المثال أمم عبد الناصر كبرى جامعات القاهرة ، الأزهر ، مكافئ جامعة هارفارد في تدريس علوم الدين والشريعة عند الاسلام السني. وكان لهذه المحاولة الرامية الى التسريع بإشاعة العولمة مردود عكسي. ويكتب جايلز كيبل Gilles Kepel في عمله "الجهاد: مسيرة الاسلام السياسي" *Jihad: The Trail of Political Islam* "ان نظام عبد الناصر بربطه مؤسسة الأزهر بعد إصلاحها ربطا مباشرا للغاية بالدولة جردها من مصداقيتها. ونشأ فراغ يمكن أن يملأه كل مَنْ عنده استعداد للتشكيك في الدولة ونقد الحكومات بإسم الاسلام" (١٨).

وكان الفراغ على وشك ان يُملأ. وإذ كان العرب مدججين بما لديهم من سلاح ومشحونين بما عندهم من كبرياء ، أُخِذوا بحلم الثأر من الاحتلال الصهيوني. وبدلا من ذلك فان هامة جيل جديد تماما تكللت بالعار عندما انتصرت اسرائيل على مصر وحلفائها الاقليميين في حرب ١٩٦٧.

وتُرجمت تلك المهانة الى ضياع القدس الذي لم يكن من قبل في تصور أحد ، وانهيار هوية ، ونهاية الاشتراكية العلمانية بوصفها مذهبا تعبويا.

وإذ كان الأصوليون الدينيون ينظمون قواهم منذ عشرينات القرن الماضي فقد تقدموا لملء الفراغ بتوكيدات دعائية تعلن ان "الاسلام هو الحل". ولم يكن لديهم شح في المستعمين اليهم ، أو الدولارات في غضون سنوات قليلة من ذلك. وأوجد تدفق الثروات النفطية على دول مثل العربية السعودية التي تتبنى شكلا صفائيا وعقابيا من الاسلام ، مصادر تمويل لأشد المسلمين راديكالية. ويقول الكاتب الليبرالي المصري جابر عصفور متأسيا ، "كان أملهم الكبير معقودا على ان التحول الى الاسلام المتزمت سيمدهم بالقوة لتحقيق النصر النهائي على الصهيونية واسرائيل" (١٩).

لقد كرَّت السبحة لنعود معها الى فلسطين. وإذ تعاظم زخم الاسلام المتشدد عمد ياسر عرفات الى توظيف مفردات الدين وصوره لغايات سياسية. وفي منتصف السبعينات استحضر مفردة "الشهيد" من دون أي دلالة قرآنية. وبعد خمسة وعشرين عاما فان شبانا فلسطينيين لا يفجِّرون انفسهم ومعهم مدنيين بإسم الله فحسب بل ويمازحون بعضهم بعضا عن مصير الشهداء المشكوك فيه الآن عند دخولهم الجنة. إذ يقول البروفيسور العربي الاسرائيلي محمد ابو سمرة: يتضح في بعض النكات ان الحوريات بلا جنس ، أو ان النبيذ بلا كحول". وهذه النكات "تعبر عن نوع من عدم الثقة في ما يعد به الدين الاسلامي في الآخرة". فالاسلام بيد اولئك الذين استخدموا الروحانية سيفا بتارا ، لم يكن حلا بالمرة. ذلك ان الكتب المدرسية والبرامج والاحتجاجات الفلسطينية مشبعة بالحماسة الاسلامية ولكن كما يقول ابو سمرة في تلخيصه لمزاج الشارع الفلسطيني فان "كل شيء يبدو محكوما عليه

بالفشل والفساد" (٢٠). وفي هذا اوجه شبه بما قالته الأميركية المسلمة في قبة الصخرة خلال حديثي معها.

بعد شهرين على ذلك الحديث قامر وزير سابق في حكومة عرفات بأمنه من اجل نزاهته. إذ كتب نبيل عَمرو نداء دعا فيه الى المراجعة في احدى الصحف الرسمية للسلطة الفلسطينية (شهادة على جرأة رئيس التحرير في نشره). وقال عمرو مخاطبا عرفات ، "اننا يا سيادة الرئيس نستريح الى اختلاق الأعذار". وفي تذكير بالرسالة المفتوحة التي وجهها فدائيون سابقون الى مفتي القدس قبل اكثر من خمسين عاما ، اتهم عمرو الرئيس الفلسطيني بهدر المساعدات الدولية والتفريط بإرادة العالم الخيرة فضلا عن تفويت الفرصة التي يوفرها المقترح المشروع بالتعايش مع اسرائيل. ومن منظور مسؤول من داخل البيت الفلسطيني نفسه فضح عمرو "العقلية القَبَلية" للسياسيين الفلسطينيين مشيرا الى انهم رجال يتلفعون برداء الطقوس الديمقراطية لكنهم انانيون عراة تحت ثوبها الخارجي. وفي الختام كتب عمرو "اننا ارتكبنا اخطاء فادحة بحق شعبنا وسلطتنا وحلمنا بالدولة. وللتكفير عن هذه الأخطاء يجب ان نعترف بفشلنا اولا ثم نشرع فورا بالعمل. ان شعبنا نبيل ويستحق منا الالتزام بالتفكير معه ومن اجل مصلحته. فنحن لا نستطيع ان نترك مصير شعبنا نهبا للمصادفة وهي مصادفة قد تستغرق في النظام العالمي الجديد دهرا آخر من النضال دون ان تفتح بابا للأمل" (٢١).

نجا نبيل عمرو من الرصاصات التي اطلقها على منزله زعران فلسطينيون. ومنذ بيانه هذا انبرى بعض الفلسطينيين الآخرين لترديد افكاره علنا ، واقروا بأن اسرائيل ليست المسؤول الأول والأخير عن اضطهاد شعبهم. فلماذا نحن في الغرب ننظر الى اسرائيل بصورة متزايدة على انها هي "الأفعى" ذات السم الزعاف؟

الناشطون من اجل فلسطين يعمدون الى تسخين الحرارة العاطفية لطروحاتهم. انظروا الى شعبية الطرح الذي يقارن اسرائيل بنظام الفصل العنصري السابق في جنوب افريقا.

قبل زيارتي لمدينة رام الله كنتُ ابحث عن معلومات حول شريط "وعود" *Promises* ، وهو فيلم وثائقي رُشح لجائزة الاوسكار عن اطفال عرب ويهود يعيشون في القدس. وعلى الرغم من تضلُّع هؤلاء الأطفال في الخطابية التناحرية فان بعضهم يغيِّرون نبرتهم بعد اللقاء فيما بينهم. أحد المناضلين الفلسطينيين لم يتحمل مثل هذه المحبة ـ أو حقيقة ان اثنين من السينمائيين الثلاثة كانوا من اليهود الأميركيين. فأرغى على موقع arabia.com قائلا ان الفيلم الوثائقي "دعاية يمارسها صهاينة من الجيل الثاني. ولو أُنتج فيلم وثائقي في جنوب افريقيا لقياس حدة العواطف بين السود والبيض خلال حكم الابارتهايد (الفصل العنصري) لوَصَف قلة من الناس كلمات السود الغاضبة ضد البيض بأنها عنصرية سوداء" (٢٢). وكما تعرفون ففي رام الله سمعتُ الحديث يتطرق مرة اخرى الى جنوب افريقيا.

بعد العودة الى تورنتو علمتُ ان مجموعة للتضامن مع فلسطين تستضيف اكاديميا من جنوب افريقيا للترويج بان اسرائيل دولة عنصرية على نطاق واسع في الجامعات الأميركية الشمالية (٢٣). وعندما تحدث هذا الأكاديمي في جامعة تورنتو ـ في قاعة رايكمان فاميلي ـ عقد مقارنة مع نظام الابارتهايد السابق لتبيان اوجه الشبه ، مثل منع اسرائيل للزيجات "المختلطة". فالازواج من ديانات مختلفة ، أكانوا متزوجين أو غير متزوجين ، يستطيعون العيش معا في اسرائيل ، وحفل الزفاف الذي يُقام في شكل مراسم دينية ، هو الذي لا يُسمَح به داخل البلد. واكتشفتُ لاحقا أن ما لم يذكره الأكاديمي هو ان برلمانيا يهوديا تقدم مؤخرا

بمشروع قانون لإجازة الزيجات العلمانية ـ وان النواب المسلمين تحالفوا مع اليهود الأرثوذكسيين والأرثوذكسيين المتطرفين لإجهاض مشروع القانون (٢٤).

هل يكون بوسع نواب مسلمين عرب استخدام حق النقض (الفيتو) ضد أي شيء في دولة عنصرية؟ وهل سيكون للعرب الذين يشكلون نسبة ٢٠ في المائة من السكان ، حق الانتخاب إذا كانت العنصرية تجثم على صدورهم؟ هل ستمنح الدولة العنصرية حق التصويت للنساء والفقراء في الانتخابات المحلية ، وهو ما فعلته اسرائيل لأول مرة في تاريخ العرب الفلسطينيين؟ هل ستتوجه الغالبية العظمى من المواطنين الاسرائيليين العرب الى صناديق الاقتراع للادلاء بأصواتهم في انتخابات وطنية ، كما يفعلون عادة؟ هل يمكن لعدة احزاب سياسية عربية ان تمارس النشاط في دولة عنصرية ، كما تمارسه في اسرائيل؟ هل سيكون القضاء بعيدا عن التدخل السياسي؟ ففي الانتخابات الاسرائيلية عام ٢٠٠٣ جُرِّد حزبان عربيان من حق المشاركة لدعمهما الارهاب ضد الدولة العبرية دعما صريحا. وقد الغت المحكمة العليا الاسرائيلية القرارين الصادرين بحظر مشاركة الحزبين في حكم مارست من خلاله استقلالها.

هل ستمنح دولة عنصرية أكبر جوائزها الأدبية الى عربي؟ فإن اسرائيل كرَّمت اميل حبيبي في عام ١٩٨٦ قبل اندلاع أي انتفاضة ربما كانت ستجعل مثل هذا الاختيار تكتيكا سياسيا ذكيا. هل تشجع الدولة العنصرية تلاميذها الناطقين بالعبرية على تعلم العربية؟ هل ستُكتب علامات الطرق في عموم البلاد باللغتين؟ (حتى كندا التي تعتز بكونها ناطقة بلغتين لا ترتقي الى هذا المستوى). هل تكون الدولة العنصرية موطن جامعات يختلط فيها العرب واليهود كما يشاؤون ، ويكون لديها عمارات

سكنية يعيشون فيها بجوار بعضهم بعضا؟ هل توفر الدولة العنصرية رعاية واعانات اجتماعية وحماية قانونية للفلسطينيين الذين يعيشون خارج اسرائيل لكنهم يعملون داخل حدودها؟ هل يمكن لمنظمات حقوق انسان ان تمارس نشاطها علنا في دولة عنصرية؟ هذا ما تفعله هذه المنظمات في اسرائيل. ومن هذه الناحية حتى المسؤولون العسكريون يجاهرون بانتقاداتهم لسياسات الحكومة. ففي اكتوبر (تشرين الأول) عام ٢٠٠٣ صرح رئيس اركان قوات الدفاع الاسرائيلية للصحافة ان غلق الطرق في الضفة الغربية وقطاع غزة يُذكي غضب الفلسطينيين. وبعد اسبوعين حمل اربعة رؤساء سابقين لجهاز الأمن الاسرائيلي "شن بيت" على الاحتلال داعين ارييل شارون الى سحب قواته من جانب واحد. هل تطيق الدولة العنصرية مثل هذه المعارضة من جانب المكلفين بالدفاع عن الدولة؟

وفي المقام الأول ، هل تناقش وسائل الاعلام اللبنات الاساسية في بناء الأمة؟ هل يمكن لصحيفة عبرية ان تنشر في دولة عنصرية مقالة بقلم مواطن من عرب اسرائيل موضوعها لماذا "كانت المغامرة الصهيونية فشلا ذريعا"؟ (٢٥) هل يمكن نشر مثل هذه المقالة في عيد استقلال اسرائيل؟ هل تضمن الدولة العنصرية توافر الظروف لأوسع حرية تتمتع بها صحافة عربية في الشرق الأوسط ، صحافة حرة بحيث تستطيع اساءة استخدام حرياتها على نحو ظاهر وتستمر في الصدور؟ (حتى هذا اليوم لم تتراجع صحيفة "القدس" الصادرة في القدس الشرقية عن نشر رسالة معادية لاسرائيل بقلم نلسون مانديلا على ما يُفتَرَض ولكن ثبت أن كاتبها عربي يعيش في هولندا) (٢٦).

حتى الملك غير المتوَّج للروح الوطنية الفلسطينية ، الراحل ادوارد سعيد قال بصراحة "ان اسرائيل ليست جنوب افريقيا..." (٢٧) وكيف يمكن

لها ان تكون وقد ترجم ناشر اسرائيلي عمل سعيد الريادي ، "الاستشراق" ، الى العبرية؟ وسأختم هذه النقطة بسؤال طرحه سعيد نفسه على العرب: "لماذا لا نناضل نضالا أشد من أجل حرية الرأي في مجتمعاتنا ، وهي حرية غني عن القول انها نادرا ما تكون موجودة؟" (٢٨)

أنا اختلف معه. إذ لا غنى عن القول للبعض ان "الحريات" العربية لا تُقارن مع الحريات في اسرائيل. ومَنْ يحتاج الى التذكير بذلك هم اولئك الذين يدفعون المقارنة مع جنوب افريقيا خطوة أبعد ـ مساوين اسرائيل بالمانيا النازية. فعندهم يرتكب الصهاينة جرائم كراهية في ظل كابوس توتاليتاري يسمونه "النازية الصهيونية" Zio-Nazism على غرار النازية الجديدة neo-Nazism .

ظهر اعداء النازية الصهيونية الالداء على المسرح الدولي لأول مرة في اغسطس (آب) ٢٠٠١. ففي منتديات عقدت في اطار التحضير لمؤتمر الامم المتحدة حول العنصرية في دربان بجنوب فريقيا ، وزع اتحاد المحامين العرب رسوما كاريكاتيرية تصور الجنود الاسرائيليين في هيئة مصاصي الدماء واعلام نازية ترفوف على خوذهم (٢٩). وكان احد هؤلاء الجنود يقف حارسا على باب مكتب فلسطيني مغلق بألواح خشبية دُقَّت لتكون على شكل الصليب المعقوف. وكان منشور آخر مؤيد للفلسطينيين طبع الصليب المعقوف على نجمة داود. وأخبث الملصقات التي وُزعت في دربان يصوِّر هتلر وهو يتساءل ، "ماذا لو انتصرتُ؟" وذلك تحت عنوان "أشياء جيدة" ، ويظهر الفوهرر في هذا الملصق وهو يجيب ، "لما كانت هناك اسرائيل ولما سُفك الدم الفلسطيني. ولكم ان تحزروا الباقي".

كيف يمكن لأحد أن يدَّعي مكافحة النازية وهو يناصر هتلر؟ لكم ان تحزروا ما هو الجواب.

اني اشعر بالاشمئزاز من حجم الالهام الزائد الذي يستمده هؤلاء المتولعون بفن التكتيك من هتلر. وليس من قبيل المصادفة ان الجنود الاسرائيليين في الرسوم الكاريكاتيرية التي وزِّعت في مؤتمر دربان كان عندهم انياب تقطر دما. فان كثرة من المثقفين والصحافيين والسياسيين المسلمين العرب يقولون لجمهورهم ان اليهود نازيون لأنهم يمتصون دم الاطفال غير اليهود لاداء طقوسهم الدينية(٣٠). وكانت هذه الفرية ذاتها ، المعروف بأنها تشهير باستخدام الدم ، من التهويشات المفضلة ضد اليهود في المطبوع النازي دير شتورمر *Der* Sturmer. وبهذه الطريقة ايضا يقفز بعض الحاقدين على اسرائيل للنوم في سرير واحد مع هتلر. وهم يحاكون النازيين لمعارضة ما يسمونه نازية. اني بكل بساطة عاجزة عن الفهم.

ويجري التهادن مع منطقهم الأفلج على اعلى المستويات الدبلوماسية. فان شخصيبة لا تقل عن وزير الدفاع السوري نفسه تنشر كتبا وتنتج فيلما لتصوير اليهود على انهم مصاصو دماء ، وبالمناسبه انهم مصاصو دماء ليس بالمعنى المجازي بل مصاصو دماء بالمعنى الحرفي (٣١). ولكن سوريا بدلا من ان يتعيَّن عليها أن توضح موقفها في المؤتمر العالمي للامم المتحدة ضد العنصرية ، انضمت الى عضوية لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة من ٢٠٠١ الى ٢٠٠٣. وهذا بالاضافة الى انتخابها عضوا دوريا في مجلس الامن الدولي ذي السمعة العالية. هل انتم مستعدون لرصاصة الرحمة الآن؟ كانت اسرائيل البلد الوحيد في العالم الذي تعرض الى انتقادات في وثائق قُدمت الى المؤتمر الرسمي للامم المتحدة ضد العنصرية. فلماذا هذا الانفصام الأخلاقي الصارخ؟

افتوني مأجورين!

في التحليل النهائي اعتقد ان الأمر يتعلق بكيفية تعريف الصهيونية. فالصهيونية عند دعاتها تمثل عودة شعب مضطَهد تاريخيا ومتناقص ديموغرافيا الى وطنه (٣٢). ولكن الصهيونية عند خصومها عنصرية ـ ايديولوجيا يحتضنها يهود اوروبيون اثرياء استثمروا الافتراض القائل ان "شعب الله المختار" يستطيع ان يسرق اراضي الغير ويستوطنها من خلال قانون تمييزي اسمه "قانون العودة" (٣٣). ويسري القانون على صفة واحدة خاصة واستبعادية هي النَسَب اليهودي. ومثلما كان الرايخ الثالث يتغنى بالنقاء العرقي للآريين فان اسرائيل قائمة لتكريس امتياز اليهود البيولوجي.

لنعطِ كل ذي حق حقه. فان ديفيد ماتاس David Matas ، المحامي الدولي الشهير في مجال حقوق الانسان ، يذهب الى ان من الغريب وضع الصهيونية والعنصرية في خانة واحدة. وهو يذكّرنا "ان اليهود ينتمون الى كل الألوان. فهناك يهود سود ـ الفلاشا ـ نُقلوا جوا من اثيوبيا الى اسرائيل بموجب "قانون العودة" (٣٤). وهذا يدفعني الى التفكير في انه إذا كان الناشطون المؤيدون للفلسطينيين حريصين على الحد الأدنى من الدقة بدلا من الحماسة فان رسومهم الكاريكاتيرية ستعمل على أبلسة جنود اسرائيليين ذوي بشرة سمراء، بل وجنود سود. لماذا يكون الأشرار كلهم من البيض ، ودائما؟ سؤالي يقود الى السؤال الأكبر الذي يطرحه ماتاس وهو هل يمكن وصم قانون العودة الذي يشمل كل الأعراق بـ"العنصرية" على اسس مشروعة؟ سؤال وجيه. لكني ادرك ايضا ان جنديا يهوديا اثيوبيا في الثامنة عشرة من العمر يستطيع في اسرائيل ان يطلب من عربي في الستين ان يريه بطاقة هويته. فهذا العربي وعائلته الذين حرثوا الأرض القدس منذ أجيال عليهم الآن ان يخنعوا امام صبي

له في اسرائيل ثمانية اشهر. استطيع أن افهم لماذا يشعر العربي بالمهانة. فهو ايضا لديه قضية وجيهة. أين يتركنا ذلك؟

حين يتعلق الأمر بالجنسية فان اسرائيل حقا تمارس التمييز. ومثلما تميِّز سياسة العمل الايجابي ، تمنح اسرائيل الأفضلية الى غالبية محدَّدة لَحَقَ بها ظلم تاريخي. وبهذا المعنى فان الدولة العبرية كيان يعتمد العمل الايجابي. وينبغي على الليبراليين ان يرقصوا لذلك.

هل يُعد عمل اسرائيل الايجابي نازية؟ ارحموني يا جماعة. فأنا كمسلمة استطيع ان اصبح مواطنة اسرائيلية من دون اعتناق الديانة اليهودية ، وسيتحقق ذلك في اطار عملية التأقلم وليس بموجب قانون العودة ، لكنه سيتحقق. فقد كانت اسرائيل واحدة من البلدان القليلة في العالم التي قدمت مأوى ثم منحت الجنسية للهاربين بالقوارب من الفيتناميين الذين طلبوا اللجوء السياسي في اواخر السبعينات. وليس علي ان اتساءل كيف سيبدو سجل سوريا في هذا المجال. والآن الى الدليل النهائي على التهمة الواهية بأن اسرائيل بؤرة للكراهية الهتلرية: انها البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي يهاجر اليه مسيحيون عرب بإرادتهم. وهم يزدهرون ايضا مسجلين نسبة حضور اعلى بكثير في الجامعات من مواطني اسرائيل المسلمين العرب ويتمتعون عموما بصحة أحسن من اليهود أنفسهم (٣٥).

ان الأرض الموعودة مرتين ارض مريرة ومعقدة. فان لدى اليهود الاسرائيليين صراعاتهم مع بعضهم بعضا ، ناهيكم عن المواجهات اليومية مع العرب. ولا جدوى تُذكر في تحديد مَنْ يجسِّد المنكر أو المعروف. السؤال الأجدى ربما كان مَنْ عنده استعداد لسماع ما لا يريد سماعه؟ أجد ان اسرائيل تضفي قدرا من الرحمة على "الاستعمار" أكبر مما اسبغه خصومها ذات يوم على "التحرير". والدولة العبرية

تعالج التوترات بصورة مكشوفة وهذا من سمات الديمقراطية الحق. فهل يمكن رؤية ديمقراطية ذات معنى في أي دولة اسلامية اليوم؟

إذا لم تكن الامبريالية الاسرائيلية سدادة القمقم الذي يحوي ماردنا الديمقراطي فمن الجائز ان تقولوا لي ان الولايات المتحدة هي هذه السدادة. أنسوا الاسلاميين الذين التَبَسَت عليهم الرؤية. فان مسلمين اصلاحيين لا حصر لهم يعتبرون ان اميركا هي "المشكلة" . وهذا استنتاج مريح لا سيما وان قوة الولايات المتحدة مرمى سهام من كل الاتجاهات. ولكن تحت كل مظاهر الاستجهان والشعارات يكمن اعجاب اسلامي بـ.....أميركا.

لنعد الى اسرائيل لحظة. صادفني مشهد سوريالي وأنا اتجول في سوق الحي الذي يسكنه المسلمون من القدس. فقد كانت تتدلى فوق رأسي بألوان سوداء وبرتقالية تُعيد الى الأذهان عشية عيد القديسين (الهالاوين) ، يافطتان تعلنان عن "مقهى الصخرة المقدسة". ولم يترك العنوان مجالا للشك في السمعة التي يُفترَض أن يستحضرها اسم "الصخرة المقدسة" the Holy Rock ، مستوحيا "مقهى الصخرة الصلدة"the Hard Rock Café في اميركا نفسها (٣٦). ذلك ان هذا المطعم الذي لا يمتاز إلا بغياب الشروط الصحية والزينة ، ليس فرعا من الأصل الشهير أو مرخصا له باستعمال اسمه ولكنه مع ذلك كان يحاكي ما في أميركا. لديّ حدس بأن وكالة المخابرات المركزية (سي آي أيه) لم تكن هي التي حملت المطعم على ذلك.

توماس فريدمان Thomas Friedman معلق الشؤون الدولية في صحيفة نيويورك تايمز ، كانت له تجربة مماثلة في الدوحة بقطر. فهو إذ كان يتجول في ما كان يأمل بأنه منطقة قَطَرية أصيلة ، استدار عند ركن

الشارع "وفجأة ظهرت امامي كأنها بقعة هائلة على الأفق يافطة تعلن تاكو بيل Taco Bell". والأنكى من ذلك ، بحسب ما يؤكد ، ان المحل "كان مزدحما!"(٣٧)

أو لا تلحظون ما أرمي اليه؟ عندما يشجب المسلمون امبريالية الولايات المتحدة ، الله يعلم اننا لا نقصد دائما الامبريالية الثقافية. والحقيقة ان غالبية المسلمين لو خُيِّروا بين احتضان الثقافة الشعبية الغربية أو رفضها ، لاختاروا احتضانها بكل سرور. فالموسورون منهم يسجلون اطفالهم في مدارس بأميركا الشمالية واوروبا. وهذا ما تناوله بكل صراحة معلق في صحيفة "دون" DAWN الاسبوعية الباكستانية عندما كتب: "انصتوا الى مثقف أو ملا أو سياسي مسلم فتسمعوا سلسلة من الشكاوى والانتقادات ضد آثام الغرب بما ارتكبه من ظلم واجحاف....ثم إسألوه أي جامعة يريد ان يتعلم فيها اطفاله ، وسيعدد ، إذا كان صادقا ، اسماء أكبر الجامعات الأميركية. وإذا كانت له مكانته في بلده فانه لن يترك حجرا إلا وقلبه محاولا اقناع البعثة الأميركية بالتدخل لمنح ابنه مقعدا في كلية أو تأشيرة دراسة ، بل انه سيكذب من اجل الحصول على مساعدة مالية لإبنه باعلان افلاسه" (٣٨). فلتسقط أميركا ـ ولكن ليس قبل ان يَتخرَّج ابني.

ثم هناك تجارب وخبرات تتعدى مجال التعليم. فان عدد العائلات المسلمة التي تقضي اجازاتها في الغرب يفوق بكثير عدد العائلات التي تستجم في العالم الاسلامي. وقناة "الجزيرة" الفضائية تبث اعلانات اميركية لترويج العطور وتبتاع برامج من الأرشيفات الاميركية. وعلى "مركز تلفزيون الشرق الاوسط" (ام بي سي) المنافس لقناة "الجزيرة" حطم برنامج "مَنْ يريد ان يربح المليون" ارقاما قياسية في عدد المشاهدين. وفي الأيام التي سبقت الانترنت كان الصحافيون في المنطقة يتلهفون على قراءة

الصحف الغربية للاطلاع على معالجات اخبارية مستقلة. وكانوا يطمعون بوظائف يستطيعون من خلالها بلوغ مستويات مهنية عالية في العمل. والأعمق مغزى ان الطريق الى "غار حراء" الذي نزل فيه الوحي على النبي محمد ، كما هو شائع ، مفروش بعلب البيبسي كولا (٣٩).

صوَّرت نورا كيفوركيان Nora Kevorkian ، وهي صديقة انتجت الفيلم الوثائقي "ما تحت الحجاب" *Veils Uncovered* ، الواقعة الآتية على شريط فيديو: في احدى اسواق دمشق تبتاع نساء ملفعات بالعباءات السود ، ملابس داخلية تقرب من الخلاعة الاميركية. فان احد السراويل التحتية النسوية ، الكهربائية ، يحمل نموذجا مضيئا "يغرد" للعصفور تويتي Tweety Bird ، الذي يظهر في سلسلة من افلام الكارتون. وسروال تحتي نسوي آخر يقدم الأرنب باغز باني Bugs Bunny وهو يشير الينا بغنج قائلا "بوسوني" Kiss me . وسروال تحتي ثالث يعزف لحن اغنية تتمنى للمستمعين ان يقضوا وقتا سعيدا بمناسبة عيد ميلاد المسيح We Wish You a Merry Christmas ولكن البطاريات غير محسوبة ضمن سعر السروال المطرب (٤٠). ويقول البائع بحماسة عن هذه البضاعة ، "الكل تشتري". مَنْ يريد ان يربح مليونا؟ البائع يريد.

بلغ هيام المسلمين بالثقافة الغربية مبلغا استحدث اقاويل عن وجود مؤامرة يهودية. وفي الآونة الأخيرة شجب ملالي في شتى بقاع الشرق الأوسط "بوكيمون" Pokemon (لعبة فيديو للاطفال) بوصفها كلمة يابانية ترجمتها "أنا يهودي(٤١). وعزا عالم دين سعودي "جنون الـ"بوكيمون" الى "مؤامرة يهودية تهدف الى اكراه اطفالنا على التخلي عن دينهم وقيمهم وإلهائهم عن أمور أهم مثل طلب العلم" (٤٢). لقد حُظرت بفتوى ايقونات الفسوق الصغيرة ـ وأنا لا اقصد بها الملالي.

حان الوقت لإبراز القضية الأعمق. فحقيقة ان الكثير من المسلمين يتطلعون الى النفوذ الأميركي توفر المفتاح الى فهم سبب غضبهم الشديد على واشنطن. والمسألة ليست مسألة حسد بقدر ما هي صداقة مطلوبة من جانب واحد فقط. فمن كل البضائع والخدمات التي تصدرها اميركا الى المجتمعات المسلمة تبقى البضاعة الأكبر ، بل الخدمة الأكبر ـ الحرية ـ أقلها رواجا. وسيهرش بعض الاميركيين رؤوسهم في حيرة متساءلين لماذا لا يُعترف لهم بالفضل في تحرير الكويت وحماية العربية السعودية من مخالب صدام حسين الكيمياوية في عام ١٩٩١. السبب ان غالبية العرب يعتقدون ان الولايات المتحدة انقذت العائلات المالكة ولم تنقذ الشعوب. ويكتب فريد زكريا ، رئيس تحرير نيوزويك انترناشنال *Newsweek International* "ان هناك فارقا كبيرا" بين الاثنين. "فحتى في دول الخليج الغنية يلمس المرء مشاعر الاحباط والغضب بين السكان الذين مُنحوا شيئا من الثروة ولكن لم يُمنحوا صوتا ـ فهم حبيسو قفص من ذهب" (٤٣).

والقفص احيانا لا يكون مصنوعا من الذهب. إذ تتحسر ربة بيت اسيرة بيتها قائلة في شريط "ما تحت الحجاب" ، "يعز عليَّ ان ارى العالم يعيش بحرية ، الشيء الذي لا نملكه. لماذا تختلف حياتنا كل هذا الاختلاف عن حياتهم؟" ثم تخلع عباءتها بتوجس ولكن بتصميم امام الكاميرا. وقالت ، "من المهم ان يرى العالم كيف نعيش حياتنا".

بلدها سوريا يتعامل مع الولايات المتحدة ـ التعامل الفظيع نفسه الذي تمارسه دول مسلمة اخرى. فان واشنطن تتعاقد معهم على تعذيب المعتقلين السياسيين الذين يُشتبه في أنهم ارهابيون. وبهذه الطريقة يمكن ان تدَّعي اميركا لنفسها سجلا لا غبار عليه نسبيا في مجال حقوق الانسان. المشكلة ان ناشطين من اجل حقوق الانسان يقعون بسهولة في

الشبكة نفسها التي تصطاد مَنْ تقوم سوريا ومثيلاتها بتعذيبهم. وليس في هذا ما يصدم. ذلك ان دعاة حقوق الانسان هم "اعداء" عند الأنظمة السلطوية التي تتحالف معها الولايات المتحدة. لماذا لا تنبري اميركا للدفاع عن اصحاب هذه الاصوات اليتيمة الذين يعرِّضون حياتهم الى الخطر من اجل مُثُل الديمقراطية التي تصر اميركا على ضرورتها؟ لا يملك المسلمون من محبي الاصلاح إلا ان يتساءلوا ، هل اميركا معنا ـ أم مع الاوتوقراطيين؟

الرئيس جورج دبليو بوش تطرق الى هذا السؤال في يونيو (حزيران) ٢٠٠٢. وقال في كلمة القاها خلال حفل تخرج دفعة جديدة من اكاديمة ويست بوينت العسكرية ، "في مساعداتنا التنموية ، وفي جهودنا الدبلوماسية ، وفي ما نبثه من برامج موجهة الى الخارج ، وفي معوناتنا التربوية ، ستقوم الولايات المتحدة بتشجيع الاعتدال وحقوق الانسان" (٤٤). وفي الشهر التالي واجه صِدْقُه اختبارا مصدره دولة من اكبر الدول الحليفة للولايات المتحدة ، هي مصر.

ففي يوليو (تموز) أُودِع سعد الدين ابراهيم السجن للمرة الثانية خلال عامين وقال ناشر صحيفة "القاهرة تايمز" *Cairo Times* ان الحكم عليه بالسجن سبع سنوات مع امكانية الأشغال الشاقة "يكاد يكون شهادة وفاة" تعلن موت الحقوق المدنية في مصر (٤٥). ما أوصل استاذ السوسيولوجيا البالغ من العمر ٦٥ عاما الى السجن يبقى غامضا. فهو صديق قديم للرئيس المصري حسني مبارك وهو الاستاذ الذي اشرف على رسالة السيدة سوزان مبارك لنيل شهادة الماجستير وكاتب خطابات لها. وكان ابراهيم يستضيف برنامجا تلفزيونيا اسبوعيا عن التنمية الاجتماعية وله ابحاث رائدة في دوافع المتشددين الاسلاميين وقام بتمثيل مصر في مؤتمرات دولية حول حقوق الانسان. ولكن هذا كله كان قبل

٣٠ يونيو (حزيران) ٢٠٠٠ ـ ليلة القبض عليه. وخلال الأشهر الاربعة والعشرين التالية من التوقيفات المديدة والمحاكمات الصورية وفترات الحبس بات واضحا له ان "الذين أغضبتُهم قرروا التحرك لإلغاء سعد الدين ابراهيم من الحياة العامة في مصر" (٤٦).

المرجَّح ان غضب خصومه الأسْوَد كان يغلي منذ منتصف التسعينات. ذلك ان ابراهيم بوصفه رئيس مركز ابن خلدون للدراسات التنموية في القاهرة ، شعر ان من واجبه إشباع عمله بروح صاحب الإسم الذي اطلقه على مركزه. فان ابن خلدون الذي كان من آخر عمالقة الفكر في عصر الاسلام الذهبي ، حوَّل التاريخ والسوسيولوجيا الى فرعين محترمين من فروع المعرفة. وعلى اكتاف هذا المفكر الرائد سطع اسم ابراهيم ـ في العالم العربي المسلم على الأقل ـ في عام ١٩٩٤. فقد بادر الى تنظيم مؤتمر حول حقوق الأقليات ، وفي حينه كانت مصر تتمسك بقانون يفرض على المسيحيين الأقباط ان ينالوا موافقة الرئاسة قبل ان يتمكنوا من ترميم كنائسهم. وإذ طعن ابراهيم في نهج مصر الرسمي القائل ان المسلمين يعيشون في وئام تام مع المسيحيين ، اعتبر الأقباط أقلية تعاني من اضطهاد النظام. وهنا كانت الضربة الأولى. فبعد عام راقب واخرون من انصار الديمقراطية ، الانتخابات البرلمانية التي جرت في مصر وكشفوا عن ممارسة التزوير بحجم ما كان ليمكن التفكير فيه سابقا ازاء صورة البلد بوصفه واحة للتنوير العربي. ثم كانت الضربة الثانية. فان ما توصل اليه ابراهيم كان نذيرا بالاتجاه الذي لم تكن مصر تنزلق فيه فحسب بل وتحث الخطى صوبه: استبداد فاسد بدلا من ديمقراطية هشة اصلا.

لا أريد ان اكون ساذجة بشأن الديمقراطية. فأنا اعلم ان على مصر ان تكون حازمة بعدما اغتال متعصبون اسلاميون الرئيس انور السادات في

عام ١٩٨١. وفي ذلك الوقت اصدرت مصر قانون الطوارئ الذي سُجن بموجبه الوف الاسلاميين طيلة عقدين حتى الآن. والكثير من هؤلاء يشكلون خطرا لا شك فيه: في عصر يوم من أيام الجمعة عام ١٩٩٤ اتخذ الأديب المصري الفائز بجائزة نوبل نجيب محفوظ مقعده داخل سيارة. واغتنم شبان من العتاة الدينيين بقاء النافذة مفتوحة لطعن محفوظ بسكين في رقبته. وكان الشيخ البالغ من العمر ٨٢ عاما محظوظا بإصابة ذراعه فقط بالشلل (اصابة واحدة "فقط"). وافادت تقارير لاحقا ان الذين حاولوا قتل محفوظ تربصوا له بسبب كتاب نشره قبل ثلاثين عاما ، وكانت رموزه تذكّر بعض القراء بشخصيات تاريخية اسلامية. فحوَّل المعتدون تلك الرمزية الى واقع وعاقبوا محفوظ وفق تأويلهم لعمله. استميحكم المعذرة ، ولكن إذا كان هذا سببا للتنكيل (وربما للقتل) فهو سبب بالقدر نفسه لإنقضاض قوى الأمن على هؤلاء المجرمين. فلنطبق قانون الطوارئ.

ما سلَّط ابراهيم الضوء عليه هو الطريقة التي جرى بها استغلال قانون الطوارئ هذا لمآرب غير شريفة. والحكومة المصرية تنساق وراء عنت رجال الدين لتهدئة المسلمين المحافظين. ونتيجة لذلك فان السلطة تلاحق العناصر الدينية من دعاة الحداثة الى جانب ملاحقة المتشددين.

وهناك القضية اللامعقولة للاستاذ في جامعة القاهرة نصر حامد ابو زيد الذي نشر كتابا يجادل فيه بأن معنى النص المقدس يمكن ان يصبح "اكثر انسانية" حتى ببقاء الآيات على حالها دون تغيير. وقدم كتابه هذا الى لجنة اكاديمية كانت تنظر في طلب ترقيته. وسرعان ما واجه الاستاذ الذي لم يكن يعرف ما يُبيَّت له ، تهمة "الردة". وساقه محامون اسلاميون الى القضاء مطالبين بتطليق الكافر من زوجته. وفي عام ١٩٩٥ كسب الاسلاميون القضية. ولدى وزير العدل المصري سلطة ان ينقض مثل

هذا الحكم ولكنه حتى الآن لم يفعل ذلك. ويعيش الزوجان المطاردان الآن في هولندا التي من ملاذها الآمن رفع ابو زيد قضية مضادة على وزير العدل المصري (٤٧).

على طول الخط كان سعد الدين ابراهيم يشدد على علاقة بالغة الأهمية: "ان المجتمعات التي تضيِّق المجال المتاح لمشاركة المواطنين والتعبير عن اختلافهم سوف تستثير في النهاية رد فعل منحرفا ، غاضبا ومميتا" (٤٨). بكلمات اخرى ان الاسلاميين يكسبون مريدين متعطشين للدماء حين لا يعود ثمة وجود للتمثيل السياسي. وهو غير موجود ، كما أشار ابراهيم. وفي حين ان قمع المسلمين الليبراليين يمكن ان يوهم المحافظين بسراب الاستماع الى صوتهم فان ذلك يبقى سرابا لأن قنوات التمثيل المشروعة مثل المجالس التشريعية ، تتحول الى اقطاعيات لأصدقاء الحكومة. وبعد خمس سنوات على ناقوس الخطر الذي قرعه ابراهيم عن انحسار الديمقراطية ، نشرت مجلة واشنطن كوارترلي *Washington Quarterly* الفصلية هذه الملاحظة عن مصر: "في بلد يشترط ان يكون نصف اعضاء البرلمان بالكامل من الفلاحين أو العمال فان الاصطفاف الحالي يميل بقوة لصالح نخبة ضئيلة" (٤٩). كان ذلك في عام ٢٠٠٠.

عام ٢٠٠٠ أثبت كونه عاما غريبا بحق ، لإبراهيم ولحال الديمقراطية المصرية على السواء. إذ كان ابراهيم قد عاد توا الى بلده من واشنطن حيث احتفت منظمة لمراقبة حقوق الانسان بدفاعه عن الحرية ، عندما اندلعت اعمال عنف بين مسلمين ومسيحيين أقباط في صعيد مصر ، أوقعت نحو ٢٤ قتيلا وعددا أكبر من الجرحى ، واسفرت عن نهب مئات المتاجر والبيوت. ومن بين ٥٥ اشتباكا مذهبيا سابقا وقعت على امتداد ٣٠ عاما ، اعتبر ابراهيم ان هذا الأخير كان "الأبشع والأكبر". فحشَّد

٥٠٠ شخصية عامة للتوقيع على اعلان مرفق بمقترحات سياسية لإنهاء "نمط ناشئ من الصراع الطائفي". وبحسب ما يقول ابراهيم فان حكومة مبارك نظرت الى هذه المبادرة على انها "تحدٍ سافر. واعتبر الاعلان عن خطورة المشكلة الطائفية تلطيخا لوجه مصر الناصع والمتسامح ، بل جريمة يُعاقب عليها ـ كما علمنا بسرعة ـ بموجب قانون صادر في عشرينات القرن الماضي دون أن يُطبق ذات يوم لمقاضاة مواطن مصري من قبل" (٥٠).

ابراهيم ظل بمنأى عن الاعتقال طيلة اشهر. وفي هذه الأثناء واصل مع زملائه في مركز ابن خلدون العمل على تدريب طلاب لتسجيل ما يُرتكب من انتهاكات ضد حقوق الانسان ومراقبة الانتخابات. واستعدادا ليوم الاقتراع العام اتفق الاستاذ مع شخصية نارية اخرى هي الكاتب المسرحي علي سالم لانتاج شريط فيديو موضوعه ، لماذا يكلف المصريون انفسهم الإدلاء بأصواتهم. (إذا كان هناك من يستطيع ان يجعل التربية المدنية عملية مسلّية فهو سالم الشعبوي على نحو رائع. وكان احد كتبه ، "رحلة الى اسرائيل" *A Drive to Israel* التقط انسانية الدولة العبرية وتسبب في طرد سالم من اتحاد الادباء العرب. بين المصريين كان كتاب "رحلة الى اسرائيل" من أكثر الكتب مبيعا). وذات يوم خلال هذه الفترة أُجريت مقابلة مع ابراهيم لمَّح فيها الى ان مصر ربما أخذت تنحدر الى نظام عائلي عربي آخر. وهكذا توالت الضربات ، الثالثة ، الرابعة والخامسة.

عشية ٣٠ يونيو (حزيران) ٢٠٠٠ القى ضباط الأمن القبض على ابراهيم و٢٧ شخصا من العاملين في مركز ابن خلدون ورابطة الناخبات المصريات. وبعد ٤٥ يوما رهن التوقيف جرت مرافعات استمرت سبعة اشهر امام محكمة امن الدولة ، وهي محكمة من النمط العسكري ليست

مشمولة بإصول المحاكمات الجزائية. وإنكب مدَّعو الحكومة على بناء قضية. أولا ، اتهموا ابراهيم باساءة استخدام اموال تلقاها من الاتحاد الاوروبي لانتاج شريطه عن الانتخابات. ولكن الاتحاد الاوروبي اعلن ان ابراهيم بريء براءة الذئب من دم يعقوب. ثم ذهب المدَّعون الى انه ما كان ينبغي ان يقبل تمويلا اجنبيا ـ هزأ صحافي عربي قائلا ان هذه حجة "مضحكة" إذا ما علمنا ان الحكومة المصرية تعيش على المساعدات الأجنبية (٥١). ومع ذلك دانت المحكمة جميع المتهمين الـ ٢٨. وحكم على ابراهيم بالسجن سبع سنوات.

بعد عشرة شهور من الحبس أُصيب ابراهيم خلالها بسلسلة من الجلطات الطفيفة ، تناهى الى سمعه أن موافقة ستصدر على اعادة محاكمته. هل من الجائز ان تنتصر العدالة بعد كل ما حدث؟ احكموا بأنفسكم. حين بدأت المحاكمة الثانية في صيف ٢٠٠٢ مرر عضاء البرلمان المصري قانونا يفرض قيودا شديدة على عمل المنظمات غير الحكومية. ولكن في قاعة المحكمة بدا ان ملف الاتهامات العشوائية الموجهة ضد ابراهيم وزملائه يدور حول قضية واحدة ـ ان المتهمين ، وخاصة ابراهيم بوصفه زعيم العصبة "اساءوا" الى سمعة مصر في الخارج. انتهت المحاكمة في يوليو (تموز) ٢٠٠٢ بالسجن على خمسة من المتهمين الثمانية وعشرين. ومرة اخرى حُكم على ابراهيم بالحبس سبع سنوات. وكان السبب الرسمي تصريحاته على امتداد عقد من السنين بأن الحكومة تضطهد مسيحيي مصر.

كان على الرئيس بوش ان يحتج علنا ويضغط على مبارك ، حتى ولو في مبادرة تقوم على اساس مذهبي. فان اقليات مصر الدينية تحتاج الى مدافع لا يكلُّ مثل ابراهيم. ولكن ما عدا ذلك ، قدَّم ابراهيم مناسبة حقيقية لاختبار اهداف سياسة بوش الخارجية المعلنة: الاعتدال وحقوق الانسان.

فاولا ، ان صحة ابراهيم ـ المتردية اصلا بسبب متاعب في القلب ـ كان من المؤكد ان تتدهور في السجن. يضاف الى ذلك ان زوجة ابراهيم سيدة اميركية وهو مواطن اميركي. وحماية مواطنيهم من الأذى هو ما يفعله الرؤساء الاميركيون ، اليس كذلك ؟ وأخيرا ، ان مصر تتلقى نحو ملياري دولا سنويا من المساعدات الاميركية في اطار معاهدة السلام مع اسرائيل ، ويشكل هذا ١٠ في المائة من اجمالي الميزانية المخصصة للمساعدات الخارجية الاميركية. وعلى هذا الأساس وحده قام سياسي من أشد السياسيين المحافظين في واشنطن بتشجيع بوش على استخدام ما لدى اميركا من "نفوذ واسع لدى مصر" لضمان الرأفة بابراهيم (٥٢). وكان بمقدوره ان يذهب ابعد بكثير مما ذهب اليه.

اليكم مدى ما غامر بوش بالذهاب اليه: في اغسطس (آب) ٢٠٠٢ جمَّد زيادة بحجم ١٣٠ مليون دولار كان من المقرر اضافتها الى المساعدات المقدَّمة لمصر. ومع نص قراره بالتجميد ادرج بوش رسالة تنقل قلقه من ادانة ابراهيم. وما هذا بالشيء القليل. ففي مصر هب بيروقراطيون ومثقفون مهتاجين على تدخل بوش. ولكن مائة عربي من انحاء العالم اقتدوا بمثال بوش وبعثوا برسالة خاصة منهم لدعم ابراهيم (٥٣). وبعد اشهر قليلة اعلنت الحكومة المصرية ان لإبراهيم الحق في محاكمة ثالثة وافرجت عنه الى حين اجرائها. وفي مارس (آذار) ٢٠٠٣ انتهت المحاكمة ببراءة ابراهيم مرة والى الأبد. لقد حقق بوش نتائج ، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة او ملتوية ، من خلال الضغط على مبارك ، ونحن ينبغي ان نسجل للرئيس الاميركي تطبيقه احدى مقولاته الماثورة: حين يكون لديك رأس مال سياسي ، استخدمْه قبل ان تخسره.

لماذا ، إذاً ، لم يطالب بوش صراحة بالعفو عن ابراهيم وبذلك إشعار حليفه ـ والعالم الاسلامي كله ـ ان الديمقراطية ليست جريمة؟ يمكن

اختصار الجواب على هذا السؤال ، حسب منتقديه ، بكلمة واحدة هي: العراق. فان طبول الحرب كانت تقرع متصاعدة ضد العراق وعلى اميركا ان تستميل مصر للوقوف الى جانبها. ويسخر مسلمون كثار ، ربما عن غير وجه حق ، من ان بوش سيخوض مواجهة عسكرية من اجل الديمقراطية في العراق لكنه يرفض استخدام عضلاته الدبلوماسية بالكامل من اجل الديمقراطية في مصر. خلاف ذلك ، سيد بوش ، استَمتعنا بخطابك امام خريجي عام ٢٠٠٢ من كلية ويست بوينت العسكرية.

يعيدني هذا الى النقطة التي اريد توصيلها: ان المسلمين لا يكرهون اميركا بقدر ما يحبونها ـ يحبونها الى حد الحاجة اليها. وقد جاء دليل اضافي على ذلك في ربيع ٢٠٠٣.

عندما تمرغ تمثال صدام في التراب عمَّت البهجة انحاء بغداد. وفي الأيام التالية حضرتُ حفلا بمناسبة النصر في تورنتو اقامه مسلمون شباب غالبيتهم من العلمانيين. واحاطني لفيف منهم ليقولوا انهم يجدون من الغريب أن لا يعترف مزيد من المسلمين بحكمة توجيه ضربة استباقية ضد صدام. وقالوا ان ذلك غريب لأن التحرك الاستباقي هو على وجه التحديد الاستراتيجية التي استخدمها النبي محمد لإسقاط الذين كان يشتبه في تآمرهم على الاسلام. وهز احد المحتفلين كتفه قائلا ، "إذا كانت الحرب الاستباقية خدمت المسلمين وقتذاك فلماذا لا تخدم الاميركيين الآن؟"

قلتُ متقمصة دور المعارض ، "لأن معايير السلوك تطورت منذ القرن السابع".

"قولي ذلك للبلدان المسلمة التي ما زالت تعامل المرأة وكأنها نجاسة".

فأضفتُ ، "وتحيل الحياة جحيما للأقليات الدينية". أدلى آخرون بدلوهم. وأعربنا عن قرفنا من بقاء الناشطين المسلمين المناهضين للحرب صامتين صمت الموتى على الحرب التي تُشن بإسم الله ضد أُناس من شتى الأصناف. وفيما كنا نتبادل الآراء بات واضحا لنا ان لدى المسلمين خيارا ينبغي ان يحسموه: الاعتراف بأن الهجمات الاستباقية التي شنها النبي محمد ضد اليهود كانت خاطئة أخلاقيا ، وفي هذه الحالة تكون للمسلمين مصداقية عندما يحملون على مبدأ بوش. أو القبول بما فعله النبي على انه ضروري ورشيد بإرادة الهية ، وفي هذه الحالة يمكن أن يُقال الشيء نفسه عن بوش ، فهو مسيحي تائب لديه طريقته الخاصة في التواصل مع الله. ولا يمكن للمسلمين ان يضعوا قدما هنا وقدما هناك. فهذا يُسمى معايير مزدوجة. أو ليس الأميركيون وحدهم الذين يطبقون هذه المعايير؟

سيكون هناك دائما رهط من المعادين لاميركا ومن الانعزاليين ، مسلمين وغير مسلمين ، الذين يريدون من واشنطن ان "ترفع يدها" وتكف عن التدخل. ولكن كثيرا من المسلمين الشباب الذين تحادثتُ معهم حتى قبل هذا الحفل ، يريدون من واشنطن ان "تمد يدها" ـ وتتابع تدخلها ـ من اجل حقوق الانسان. ولو كان بمقدورهم ان يقولوا ذلك من دون ان يتعرضوا الى الإدانة لحضوا اميركا على التلويح بسطوتها والمساعدة في تغيير الحقائق التالية:

· في تونس والجزائر لا يمكن للمسلمات ان يتزوجن من غير مسلمين (٥٤). الرجال ، من الجهة الاخرى ، يجوز لهم ذلك. وفي غالبية البلدان المسلمة لا يُعد اغتصاب الزوج لزوجته جريمة ، إن كان هناك اعتراف

بوجود شيء كهذا اصلا.
· اعتقلت العربية السعودية مؤخرا شيخا في الرابعة والتسعين من العمر ليكون أكبر سجين سياسي معروف سنا في العالم وذلك رغم الافراج عنه بعد اسبوعين. وكان الشيخ محمد علي العمري ، وهو عالم ديني شيعي كبير في المدينة المنورة ، اثار حفيظة السلطات السعودية باستقباله عدة زوار شيعة في مزرعته ، جاءوا للصلاة. فالمسلمون الشيعة مضطهدون شرعا في العربية السعودية ، مثلهم مثل الأقباط في مصر.
· تتدفق غالبية اللاجئين في العالم من بلدان اسلامية. وما هذا بالأمر المستغرَب إذا ما علمنا ان غالبية الحروب الأهلية التي يشهدها العالم تدور رحاها بين مسلمين. ويقول الصحافي الايراني امير طاهري ، "ان الدول العربية خاضت ما لا يقل عن ١٥ حربا مكشوفة أو سرية ضد بعضها بعضا منذ ثلاثينات القرن العشرين...." (٥٥) وفي السنوات العشر الماضية قتل الاسلاميون واعداؤهم الاشتراكيون ١٠٠ الف جزائري. وفي فبراير (شباط) ١٩٨٢ قصفت قوات البعث في سوريا حافظ الأسد مدينة كانت تؤوي متطرفين اسلاميين. وأزهق جلاوزته ارواح ٢٥ الف شخص. وفي الفترة الممتدة من ١٩٧٥ الى ١٩٩٠ حصدت الحرب الأهلية اللبنانية ارواح ١٥٠ الف شخص غالبيتهم من الفلسطينيين. ويزيد هذا اكثر من عشر مرات على عدد مَنْ قتلتهم اسرائيل خلال ٥٠ عاما من النزاع العسكري.

إذا كان من المحرج الاعتراف بأي من هذا يا اخوتي واخواتي المسلمون فإرفعوا الحرج عنكم لأننا لا نستطيع ان نعلق أحط ما فينا من علل على شماعة اميركا. فالسرطان يبدأ بنا. وفي تعليق مؤثر على "بؤس" المسلمين نُشر بعد فترة قصيرة على احداث ١١ سبتمبر (ايلول) في صحيفة ذي نايشن *The Nation* اليومية الباكستانية ، تحدث رجل الأعمال عزت مجيد عن وجود "وعي متزايد" بين المسلمين "بأننا فشلنا كمجتمع

مدني بعدم مواجهة الشياطين التاريخية والاجتماعية والسياسية التي في نفوسنا...." (٥٦) ومنها حقيقة انه في بلده ذي الـ ١٤٠ مليون نسمة لا يدفع الضريبة سنويا إلا مليون شخص. أليس المتهربون من الضرائب ، بالتملص من مسؤوليتهم في اعادة بعض ما أخذوه من المجتمع ، يدفعون حكومة باكستان الى حافة الافلاس حارمين برامج عامة مثل التعليم من التمويل ، ومتسببين في زيادة الإقبال على ما أصبح دروسا خاصة في الارهاب يتعلمها الطلاب في كثير من المدارس الدينية؟

هل تدرك الغالبية منا ما كان يُراد لأمة المسلمين هذه متعددة الثقافات؟ أنا سأفيدكم. كان ذلك في عام ١٩٤٧. وفي اول كلمة القاها محمد علي جناح بوصفه الحاكم العام لباكستان المستقلة ، كان جناح مفعما بالآمال لشعبه. أعلن جناح ، "انكم أحرار ، احرار في ارتياد معابدكم ، احرار في الذهاب الى جوامعكم ، أو الى أي مكان آخر من اماكن العبادة في دولة باكستان. لكم ان تنتموا الى أي ديانة أو طائفة أو مذهب ـ فهذا لا يمت بصلة الى عمل الدولة. اننا بادئون بهذا المبدأ الأساسي القائل اننا جميعا مواطنو دولة واحدة...وستجدون في الوقت المناسب ان الهندوس سيكفون عن كونهم هندوسا والمسلمين سيكفون عن كونهم مسلمين ، لا بالمعنى الديني...وانما بالمعنى السياسي كمواطنين في الدولة" (٥٧). كان جناح متزوجا من غير مسلمة يحبها بكل جوارحه. وكانت شقيقته فاطمة كثيرا ما ترافقه في الحملة من اجل بناء باكستان. وجدد ظهورها العلني مخيلة المسلمين فاتحا هذه المخيلة على قدرات المرأة بوصفها شريكة لا خادمة. اني لستُ من المتعاطفين مع حقيقة ان المسلمين طالبوا بدولة منفصلة عن الهند ولكن عندما نالوا دولتهم فانها جاءت على الأقل بدعوى الحريات الفردية ووعدها.

يا للخسارة ، ان يجرف مد الاسلاموية المتصاعد باكستان الى التهلكة ،

ألا تعتقدون ذلك؟ ففي عام ١٩٧٧ جاء انقلاب عسكري مدعوم من الولايات المتحدة بالجنرال ضياء الحق الذي كان يحب الغولف والتنس والنظام المطلق. ولإحكام قبضته الرخوة أحاط حاكم البلاد الجديد نفسه بملالي متزلفين خلعوا عليه لقب "امير المؤمنين" الذي كان يُطلق على الخلفاء الراشدين حصرا. ولكسب رضا الزعامات الريفية جمع ضياء الحق بين القراءة العقابية للاسلام والأعراف القَبَلية. وبهذا الطريقة ظهر الرجم بوصفه عقابا شرعيا للزنا ، وبات تقديم اربعة شهود من الرجال على جريمة الاغتصاب شرطا لتوجيه الاتهام الى الجاني. ولكن لنفترض عدم توافر هذا العدد من العيون الذكرية شاهدة على جريمة اغتصاب. لا بد والحال هذه ان تكون القضية جريمة زنا ارتكبتها المرأة فيكون مصيرها الحكم عليها بالرجم.

في عام ١٩٧٩ ، خلال الفترة نفسها تقريبا التي بدأ فيها سريان هذه القوانين الخانقة ، فاز الباكستاني عبد السلام بجائزة نوبل للفيزياء مشارَكَةً مع عالمين اميركيين آخرين. وكان المرء يتوقع ان تحتفي بلاده بهذا الإبن البار. ولكن بدلا من ذلك حاول متظاهرون منعه من العودة الى باكستان ، بل ان قانونا اصدره البرلمان ذهب الى حد اسقاط الجنسية عنه. اما جريمة عبد السلام فهي انتماؤه الى طائفة الأحمدية التي تشكل احد المذاهب الأقلوية في الاسلام. هذه كل جريمته. وهذا ما جعل عالِما مسلما نال ثناء العالم وتقديره ، شخصا غير مرغوب فيه في وطنه.

جمعتُ تفاصيل اخرى عن عبد السلام من سائق سيارة اجرة في تورنتو يُدعى احمد. وإذ ابدى احمد ثقته بيّ معتبرا اني تلك "المسلمة التي تظهر في التلفزيون" راح يندب "كيف ان جماعتنا يقتتلون فيما بينهم" مركزين على "القبيلة" أكثر من تركيزهم على "الحب" (٥٨). حب! لم اسمع ذات يوم رجلا مسلما يستخدم تلك الكلمة المؤلفة من حرفي الحاء والباء. لا بد

ان يكون هذا الانسان شخصا مختلفا فرحتُ انقّب. اتَّضح ان سائق سيارة الاجرة نفسه احمدي. سألتُه عن عبد السلام عسى ولعله يعرف الاسم. وفي مرآة السيارة رأيتُ احمد يرفع حاجبيه. وقال لي ، "ان الأخ عبد السلام حاول ان يتبرع بمبلغ جائزته [جائزة نوبل] للحكومة. وكان يريد بناء مختبرات علمية للباكستانيين الشباب ولكن ضياء رفض عرضه". وسرَّني احمد بسبب آخر لاعتبار عبد السلام بطله: فان عبد السلام بوصفه ابن فلاح كان عليه ان يذلل كثيرا من الصعاب. ويبدو انه كان مجتهدا في طلب العلم حتى انه كان يدرس تحت مصابيح الشارع حين لم يكن الوقود متاحا لفوانيس الكيروسين في مدرسته. وسواء أكان ذلك صحيحا أم لم يكن فقد كان بامكان هذه الرواية أن تنسج اسطورة وطنية تلهم اجيالا من الباكستانيين ذوي الأصول المتواضعة لبلوغ المجد. ولكن الحكومة بدلا من ذلك فرَّطت بعبد السلام ـ وبرصيد فكري أكبر بكثير ـ في لهاث مسعور وراء اسلام ضيق الأفق.

عنعنات ضياء الحق باقية رغم وفاته في عام ١٩٨٨. ومنذ ذلك الحين تصاعد زخم الاسلاموية بفضل جيوسياسة قذرة الى حد كبير. ففي عام ١٩٨٩ الحق الوف "المجاهدين" هزيمة بالغزو السوفياتي لأفغانستان. ومع عودة المقاتلين العرب المسلمين الى منطقة الخليج وصلت القوات الاميركية الى العربية السعودية لحمايتها من اجتياح عراقي محتمل. ففي عام ١٩٩٠ ، كما تذكرون ، قام صدام حسين بغزو الكويت واحتلالها. وخاف السعوديون من أن يكرر فعلته معهم. ولدرء هذا الخطر طلبوا من الاميركيين ان يدافعوا لهم عن ارضهم ـ ونفطهم. وكان من الممكن ان يوفر الوجود الاميركي في العربية السعودية ذريعة لأن يعلن مجاهدون عاطلون عن العمل الجهاد داخل المملكة. ولكن فدية ضخمة دُفعت لتفادي ذلك. إذ اخذت البترودولارات تنهال على الجمعيات الخيرية الاسلامية وادت الى تنامي المدارس الدينية في عموم المنطقة بمتوالية هندسية.

وكان نصيب باكستان كبيرا من هذه الأموال ، وسرعان ما فرَّخت مدارسها الدينية وجبات نخبوية من الدارسين فيها ليُعرَفوا لاحقا باسم "طالبان" ـ كناية بطلاب المدارس الدينية. ماذا فعل مسلمو الطبقة الوسطى في باكستان؟ غالبيتهم سمحوا لأنفسهم بمجاراة التيار الاصولي الغاشم.

من الاصوات المعارضة التي تصاعدت صوت الدبلوماسي والمفكر الباكستاني اكبر احمد. إذ بدأ في عام ١٩٩٧ تصوير فيلم يروي سيرة ملحمية لحياة جناح. وبحسب احمد فان "مسؤولين مهمين" و"مواطنين حريصين" في باكستان حذروه من تصوير الاسلام المتسامح الذي كان يؤمن به جناح ، حتى ان صحفا واحزابا سياسية راحت تهلوس بأن "سلمان رشدي كتب سيناريو الفيلم" ، وتوَّجت هلوستها باعتبار مشروعه "جزء من مؤامرة هندوسية او صهيونية" (٥٩). احمد صوَّر الفيلم رغم ذلك وفاز عليه بعدة جوائز دولية. ولكن كما حدث مع عبد السلام ، كانت آيات التقدير من وطنه أتفه من ان تستحق الذكر.

منذ ١١ سبتمبر (ايلول) استجمع الزعيم الباكستاني برويز مشرف شجاعته وقال ما هو بديهي: ان المسلمين اليوم هم "الأكثر فقرا والأكثر أمية والأكثر تخلفا والأكثر لا صحة والأكثر لا تنورا والأكثر حرمانا والأكثر ضعفا في الجنس البشري برمته" (٦٠). كلمات رنانة من رجل نكث بوعوده بتحجيم قوانين مكافحة الكفر وضبط المدارس الدينية. ما لا يجرؤ مشرف على ان يقوله هو ان مدارس بلده التي استباحها الملالي ما زالت تفرِّخ معتوهين. اكبر احمد يستطيع ان يحدثكم عن ذلك. فحين عاد مؤخرا في زيارة لباكستان فاتح معلمين في المدارس الدينية عن ضرورة دراسة سيغموند فرويد وماكس فيبر. "قوبلتُ بنظرة بلهاء وادركتُ عمق المشكلة عندما تلقيتُ ردا سلبيا حتى على اقتراحي دراسة

مفكرين مسلمين مثل المؤرخ ابن خلدون أو الشاعر الصوفي مولانا جلال الرومي" (٦١). وهذا ليس الغرب عاملا على ابقاء المسلمين جاهلين بقدراتهم الابداعية الفذة بل المسؤولون هم المسلمون انفسهم.

على الغرار نفسه من الضروري ان يعلم غالبية الاميركيين ان لهم مصلحة ذاتية مستنيرة في ان "يكونوا هناك" لدعم المسلمين ذوي التفكير الديمقراطي قبل اندلاع الأزمة التالية. فكروا كيف كان بمقدور الاهتمام الاميركي أن ينقذ ملايين الأبرياء من غضب طالبان ناهيكم عن "القاعدة". وقد سمعنا كلنا ان الرئيس رونالد ريغان اغدق المديح والسلاح على المجاهدين في اطار استراتيجيته لمحاربة الشيوعية. ولكنه اعطاهم ما هو أكثر. فان الحكومة الاميركية موَّلت كتبا مدرسية مسكونة بالعنف نشرتها جامعة نبراسكا. وحين كان الأطفال الاميركيون يتعلمون طرح التفاح من البرتقال كان الطلاب الأفغان يتعلمون الرياضيات ـ والعقيدة ـ من صفحات مليئة بصور حراب ممشوقة. وما زال بعض الطلاب يتعلمون ذلك: هذه الكتب المقررة أخذت تختفي من المدارس الأفغانية ولكن ببطء شديد.

لا نحتاج الى جنرال يتقن فن الحرب لفهم الدرس. فعندما انسحب السوفيات من افغانستان في عام ١٩٨٩ ، أدارت الولايات المتحدة ظهرها للبلد مفترضة أن المهمة قد أُنجزت. وما أدارت ظهرها له في الحقيقة كان صراعا على السلطة. فالمجهادون إذ كانوا محاربين متمرسين ، قاموا خلال السنوات التالية بانقلاب في افغانستان ، ومع ذلك لم يُبد صانعو السياسة الأميركية اهتماما يُذكر. وفي عام ١٩٩٨ أجرت صحيفة باريسية مقابلة مع زبغنيو بريجينسكي مستشار الأمن القومي للرئيس جيمي كارتر. وقد سألته صحيفة "لو نوفيل اوبزرفاتور" انه بعدما باتت "الأصولية الاسلامية تشكل خطرا عالميا ألم يكن حريًّا

بالسياسة الخارجية الاميركية ان توليه اهتماما أكبر؟" وبقصر نظر يثير الحنق أجاب بريجينسكي ، الذي لا يُدين بالولاء لا لإدارة ريغان ولا لإدارة كلنتون ، "أيهما الأكثر أهمية لتاريخ العالم؟ بعض المسلمين المهتاجين أم تحرير اوروبا الوسطى ونهاية الحرب الباردة؟" (٦٢)

كان بريجينسكي سيكون أكثر ذكاء لو تذكَّر الرائحة التي تنبَّه اليها الرئيس ايزنهاور في اواخر الخمسينات. فقد لاحظ ايزنهاور خلال نقاش مع أركان ادارته وجود "حملة كراهية ضدنا لا من جانب الحكومات وانما من شعوب" العالم العربي (٦٣). وتوصل مجلس امنه القومي من تحليل الوضع الى استنتاج مفاده ان عامة العرب الاعتياديين يشعرون ان الولايات المتحدة بدعمها انظمة حكم قمعية من اجل السيطرة على امدادات النفط ، انما تقف حائلا دون تحقيق الديمقراطية. وكانت هذه النظرة المتبصرة على شاشة الرادار منذ اربعين عاما عندما استولت حركة طالبان على السلطة في افغانستان ووفرت ملاذا آمنا لإرهابيي "القاعدة".

كنتُ اتمنى لو استطيع القول ان قصر نظر واشنطن عولج كما عولج نظام الحكم في افغانستان والعراق. ولكني لا أستطيع. اسمحوا لي أن أُوضح بحديث تابعتُه مؤخرا بين المقدِّم التلفزيوني فل دوناهو وضيف برنامجه تشارلز دولان الذي كان وقتذاك نائب رئيس اللجنة الاستشارية الأميركية للدبلوماسية الشعبية ، وهي هيئة تحاول ان تتصدى لصورة اميركا السلبية في العالم.

دولان: اعتقد ان ادارة بوش حققت اشياء رائعة منذ مجيئها الى الحكم على صعيد الدبلوماسية الشعبية. وما زال الحُكم لم يصدر على بعض هذه الأشياء ، ولكنهم يحاولون...

دوناهو: الانسحاب من [بروتوكول] كيوتو [لحماية البيئة] والابتعاد عن المحكمة الجزائية الدولية ، وشتم الأمم المتحدة. نحن حقا نبدو وكأننا نريد ان نعمل بمفردنا ، لا نحتاج الى أحد يساعدنا.
دولان: فل ، إذا كنتَ تريد مني ان اتحدث عن سياساتهم فيمكننا انتاج خمسة برامج اخرى.
دوناهو: لكن ما نتحدث عنه هو لماذا ينبغي ان تكون هذه صورتنا! يبدو اننا لا نريد ان نلعب مع أي احد آخر ، مع أي منظمة دولية مهما كان شكلها! نحن نبدو متغطرسين في هذا الموقف.
دولان: لكني أتحدث عن الطريقة التي نتواصل بها مع العالم ـ ما كنا نتحدث عنه الآن. كيف نرد على الصور الزائفة عن اميركا في الخارج؟ اعتقد ان هذا هو ما نتحدث عنه (٦٤).

هل كان دولان غبيا ؟ أُقدِّر انه ما كان ليستطيع ان ينتقد رئيسه أو سياساته في التلفزيون ولكن هذه ليست هي القضية. فان دولان لم يرد الاقتراب من الاسئلة المتعلقة بما إذا كانت هناك حقا صور سلبية لاميركا. كل ما كان يريد الحديث عنه هو سبل مكافحة مثل هذه الصور بأدوات وتكتيكات على مستوى الاتصالات والاعلام. يا لها من مفاجأة؟ ان دولان يعمل ايضا نائب رئيس كيتشام Ketchum وهي وكالة للعلاقات العامة. يا أميركا ، ليس هذا هو جوهر الدبلوماسية الشعبية. ما ينبغي التركيز عليه هو بذل مجهود حقيقي **لعمل** الصواب لا ليبدو و**كأننا** نعمل الصواب.

صحيح يا اميركا ان اقدامَكِ على سحق طالبان أسعد ملايين الأفغان ولكن تقاعسكِ منذ ذلك الحين عن نشر قوات أبعد من كابول لم يسعد إلا امراء الحرب القبليين والمتعاطفين مع طالبان. والحق ان الدستور الجديد ينص على حقوق المرأة واستقلال القضاء ، من الناحية النظرية. أما في الواقع

العملي فإن اميرا من امراء الحرب وصفه وزير الدفاع الاميركي بأنه "شخص جذاب وحصيف ومتزن" ، اعاد هيئة العمل بالمعروف والنهي عن المنكر. وتفرض هذه الهيئة فصل البنات عن البنين فصلا صارما وتسخر من حرية الصحافة وتمنع القراءات الشعرية وتضرب النساء اللواتي يتجاسرن على الشروع بتشكيل جمعيات نسوية ، وتمهد التربة لعودة طالبان. حصيف؟ متزن؟ أأنتِ جادة يا أميركا؟ إذا كنتِ جادة فأين انتِ خارج كابول؟ أنتِ لا تروق لكِ فكرة اضطلاع جنودِكِ بدور قوات حفظ السلام ولكن لماذا لا تُعجِّلين في هذه الحالة بتدريب الشرطة المحلية ولا تعززين القوات الدولية المتمركزة هناك بالفعل؟ أين نزوعك الفطري الى الأمن ـ والى الحرية؟

اما انتم يا شقيقاتي واشقائي في الاسلام ، فاني اسمع تذمُرَكم. وعلى واشنطن ان تقدِّر بأنه عندما يزمجر المسلمون الليبراليون ، "اننا نكرهك!" فليس هذا لأن اميركا تبطش مباشرة بالعالم الاسلامي بل لأن اميركا تمتنع ، على الضد من مصالحها الأمنية ذاتها ، عن المساعدة في تخفيف وطأة البطش على المدى البعيد. أراكم تريدون ان تندهوا ، "اصحي يا واشنطن!" ، وأنا اشارككم شعوركم هذا. ولكني أريد ان اصرخ بكم أنتم أن "اكبروا!". إذ على المسلمين الليبراليين ان يرفعوا الصوت عاليا بشأن الحقيقة التالية: ان اميركا هي الأمل المرتجى لا رأس الافعى. وأن يكون الرئيس بوش انبرى للدفاع عن سعد الدين ابراهيم ، وبالتالي عن الديمقراطية المصرية ، فان هذا يعطينا سببا للثقة باميركا. وأطلب منكم ما طلبه ابراهيم من الناخبين في بلده: كفوا عن النظرة السوداوية واتخذوا موقفا بناء ، فمن الجائز ان يكون الاميركيون بحاجة الى مساعدتنا "نحن لهم" على ادراك ما فيهم من طاقة خيِّرة بوصفهم انسانيين.

لبلوغ هذا الهدف على المسلمين ان يواجهوا سؤالا اساسيا: أي مساعدة نحتاج على وجه التحديد من اجل الإصلاح؟ ما هي على وجه الدقة المشكلة الخاصة التي تضخمت لتصبح مشكلة الجميع؟ بما انه لا اسرائيل ولا اميركا تكمن في جذر البؤس الذي يعانيه المسلمون في العالم ، أهو الاسلام الذي يكمن في جذر هذا البؤس؟ فالاسلام يضم بانوراما من الثقافات التي تمتد من شمال افريقيا الى جنوب اسيا ، وفي كل ثقافة منها يتخلف الاقتصاد وسجل حقوق الانسان عن ركب الغالبية من العالم. هل الاسلام يتفوق على كل ما سواه في قتل الابداع والحيوية والديمقراطية؟

سيكون من السهل نفي ذلك دون عناء. فكروا في المسألة على هذا النحو: ان باكستان ، وهي دولة ذات غالبية مسلمة بوضوح ، ولدت عام ١٩٤٧ ، قبل عام من نشوء دول اسرائيل ، ذات الغالبية اليهودية. ولو سادت رؤية جناح لكان بمقدور باكستان ان تكون دولة حديثة وتعددية وتبقى روحانية كإسرائيل. ولكن المآل انتهى بها الى عكس ذلك: اقطاعية أكثر منها حديثة ، طائفية اكثر منها تعددية ، ممسوسة اكثر منها روحانية ودعوني امضي بالمقارنة أبعد. في عام ٢٠٠٢ حقق ثنائي في لعبة التنس يتألف من باكستاني واسرائيلي نجاحا باهرا استأثر بالعناوين البارزة في الصحافة الرياضية. وقد تحدثت وسائل الاعلام عن نجاحهما لا لأنهما يمثلان افق تعاون بين المسلمين واليهود فحسب وانما بسبب ردود افعال كل من بلديهما ايضا. فان اتحاد التنس الاسرائيلي أشاد بلاعبه في حين ان اتحاد التنس الباكستاني هدد لاعبه بالمنع. وإذا كانت اسرائيل تستطيع ان ترى ابعد من السياسة رغم الحصار اليومي الذي يضربه عليها جيرانها المسلمون ، لماذا لا تستطيع باكستان ـ أو لا تريد ـ قبول التحدي؟ من المؤكد ان لهذه الثنائية صلة ما بالبوصلة الأخلاقية لكل من البلدين ، مسترشدة ، كما هو حتمي ، بالقيم الدينية لكل منهما. ومن المؤكد ان الحقيقة الماثلة في ان الديمقراطية تعيش في اسرائيل لها

دلالتها بشأن الممارسة الشعبية للديانة اليهودية لا يمكن القول ان مثلها موجود في الاسلام السائد ـ ليس بعد على اقل تقدير.

ولكن لا شيء من هذا يعني **لا محالة** ان الاسلام هو المشكلة. فان غالبية مسلمي العالم ـ أي المسلمون من خارج الشرق الأوسط ـ يعيشون في انظمة ديمقراطية انتخابية. ولكن في الوقت نفسه لا تبيح حكوماتهم إلا القليل من الحريات والقليل من المحاسبة. ولعل طاقة الاسلام على ممارسة ديمقراطية ذات معنى ، تتألق في حقيقة ان القرآن لا يصف أي شكل محدَّد للحكم. وعلى افتراض ان القرآن كلام الله ـ بأكمله أو في جزء منه ـ ألا يكون هذا الصمت مقصودا؟ إلا يدل الى اننا بوصفنا افرادا نمتلك ارادة حرة ، ينبغي ان نشارك في حكمنا؟ يكون هذا منطقيا لو كان المسلمون أمة يوحدها الايمان بالله. الجميع يقول نحن مثل هذه الأمة. ونحن نعتقد بأننا امة كهذه. ولا بد ان نكون هذه الأمة.

لنفترض اننا لسنا هذه الأمة. لنفترض ان ما يجمع بيننا ليس الايمان بالله وانما الخضوع لثقافة معينة. أمن الجائز ان الاسلام ، حتى من الصنف السلبي ، هو ايمان بأنماط الصحراء اكثر منه بحكمة الارادة الالهية ، وان المسلمين يتربون على محاكاة علاقات القوة لقبيلة عربية حيث يحكم الشيوخ ويرزح الاخرون تحت حكمهم؟ اصيغوا السمع الى الملك فهد عاهل العربية السعودية. فهو يقول ان النظام الديمقراطي المتعارف عليه في العالم "لا يناسب هذه المنطقة". وان "لا مكان للنظام الانتخابي في العقيدة الاسلامية" لأن الاسلام ينظر الى القائد على انه "الراعي" المسؤول عن رعيته (٦٥). فالملك لا يساوي المسلمين بالخراف فحسب بل انه يذهب الى حد الإطلاق قائلا ان ما هو سيئ للجزيرة العربية الصحراوية ـ "المنطقة" ـ لا بد ان يكون سيئا للاسلام ـ "العقيدة". قد تحتجون ، معي ، بأنه مخطئ في اقدامه على هذه الطفرة ، ولكن

الواضح ان المسلمين لا يحتجون جماهيريا. وينبغي ان نحتج لأسباب ليس اقلها ان العاهل السعودي يحمل لقب خادم الحرمين ـ جامعي النبي في مكة والمدينة. مَنْ الذي انتخبه ليكون سادن الاسلام؟ فنحن لم ننتخبه. مَنْ يسكت عليه. نحن الذين نسكت عليه. ولكننا ندفع ثمنا باهظا لإحجامنا حتى عن التفكير في الأمر.

هلى استعمار الجزيرة العربية الصحراوية هو المشكلة التي نحتاج الى مساعدة لإصلاحها؟

هوامش الفصل الخامس

١ ـ نكتة ، رواها محمد ابو سمرة ، "الشهادة في المجتمع الفلسطيني الحديث" ، (كلمة القاها في تورنتو) ، ٦ اكتوبر / تشرين الأول ، ٢٠٠٢.

٢ - Jewish and Middle Eastern non-Jewish populations share a common pool of Y-chromosome biallelic haplotypes, *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, Volume 97, issue 12, June 6, p. 10 of online version. Down load this report at www.pnas.org.

٣ ـ القرآن ، ١٧: ١٠٤.

انظر ايضا ، القرآن ٥: ٢٠ ـ ٢١ ، "وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وأتاكم ما لم يؤتِ احدا من العالمين". و "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين".

هنا يدعو الله اليهود الى ان يدخلوا الأرض المقدسة اياً يكن ساكنها. وكانت جريمتهم انهم تخلفوا عن الركب فلم ينفذوا مشيئة الله.

٤ ـ خالد العظم ، مذكرات خالد العظم ، الجزء الأول (بيروت: الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٣) ، ص ٣٨٦.

الإقرار بأن الحرب هي السبب في مشكلة اللاجئين لا يعني ان المرء لا يستطيع ان يتخذ موقفا متوازنا أو حتى متعاطفا مع القضية الفلسطينية. للاطلاع على ما يثبت ذلك انظر

Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-49* (New York: Cambridge University Press, 1989)

٥ - Kanan Makiya, "Can Tolerance be Born of Cruelty in the Arab World?" *New Perspectives Quarterly*, Winter 2002, p. 3 of online version. Read it at www.digitalnpq.org.

٦- Paul Adams, "Tourists, investors shun Beirut despite facelift", *Globe and Mail*, 27 March, 2002.

٧ - Arieh Avneri, *The Claim of Dispossession: Jewish Land Settlement and the Arabs 1878-1948* (New Brunswick, New jersey: Transaction Books, 1984), p. 114.

يكتب افنيري Avneri على وجه التحديد انه "في ٣١ مارس (آذار) ١٩١١ بعث نحو ١٥٠ شخصية عربية من وجهاء القدس على رأسهم راغب النشاشيبي ببرقية الى البرلمان التركي يحتجون فيها على بيع الأراضي لليهود. وحتى قادة عرب معتدلون مثل رئيس بلدية القدس حسين الحسيني ، الذي كان يعتقد بأن هناك الكثير مما يمكن للعرب ان يتعلموه من اليهود ، اعربوا عن توجسهم من بيع الاراضي: "رغم ذلك

كله يجب ان نتحلى باليقظة تجاه الصهاينة لأنه إذا استمرت الاوضاع على حالها الآن ، لن يمر وقت طويل قبل ان تنتقل ارضنا كلها الى ايديهم. ان فلاحنا فقير ومعدم والفقير مستعد حتى للتخلي عن ارضه من اجل الحفاظ على جسمه وروحه. ولهذا السبب يجب ان تصدر الحكومة قانونا ضد بيع الاراضي لليهود ، آخذين في الاعتبار ظروف البلد".

٨ ـ في الوقت الذي تنفي تركيا رسميا وقوع جريمة الابادة بحق الأرمن ، لا ينكرها حتى أكثر الصحافيين الغربيين الذين يخطرون ببالي تعاطفا مع المسلمين ، وهو روبرت فيسك. انظر صحيفة ذي اندبندنت *The Independent* ، 5 اغسطس (آب) ، ٢٠٠٠.

ولكن ما ينطوي على مفارقة ان اسرائيل لا تعترف بوقوع جريمة الابادة ضد الأرمن في كتبها المقررة للدراسات الاجتماعية في مدارسها وذلك خشية ازعاج تركيا ، اقوى حلفائها الاقليميين. وهذه سياسة اسرائيلية لن اتردد قطعا في انتقادها. فهي خاطئة اخلاقيا وتاريخيا.

٩ - *Palestine Royal Commission report*, Cmd 5479 (London, July 1037), p. 135.

١٠ - Sandra Mackey, *Passion & Politics: The Turbulent World of the Arabs* (New York: Plume, 1994), pp. 121-22.

هذا الكتاب عمل رائع ، وان كان مغاليا في تعاطفه ، حول الثقافة العربية وليس فقط التاريخ العربي.

١١ ـ ١٠ ديسمير (كانون الأول) ، ١٩٣٨ تقرير في صحيفة نيوز كرونكل *News Chronicle* ، ينقل عنه موريس بيرلمان

Maurice Pearlman, *Mufti of Jerusalm: The Story of Haj Amin el Husseini* (London: V. Gollancz, 1974), p. 20.

هذه المشاعر تردد على نحو لافت ما يُنقل عن مزارع فلسطيني في قوله عن الارهابيين: "يدَّعون انهم ابطال. فلم يجلبوا لنا سوى الدمار والتشرد.

لقد استخدوا مزارعنا وبيوتنا واطفالنا للاختباء". انظر
Paul Adams, “Protests a rare sign of support by Palestinians for a ceasefire”, *Globe and Mail*, May 21, 2003.
12- كما ينقل موريس بيرلمان Maurice Pearlman, *Mufti of Jerusalem*, p. 29.
13- هتلر كما ينقل عنه روبرت ويستريك
Robert Wistrich, *Hitler’s Apocalypse: Jews and the Nazi Legacy* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1985), p. 164.
أُوصي على الأخص بقراءة الفصلين الموسومين:
“Swastika, Crescent and Star of David” and “Militant Islam and Arab Nationalism".
١٤ ـ السير مارتن جلبرت Sir Martin Gilbert (كلمة القاها في تورنتو) ، ٣٠ يناير (كانون الثاني) ، ٢٠٠٣.
١٥ ـ كما ينقل موريس بيرلمان عن الحاج امين في عمله
Mufti of Jerusalem, p. 51.
١٦ ـ هذه الحقيقة لا تأتي من مصدر صهيوني وانما من مصدر معاد للصهيونية هو وليد خالدي
Walid Khalidi, “Revisiting the UNGA Partition resolution”, *Journal of Palestine Studies*, Issue 105, Autumn 1997, p. 11.
يكتب خالدي: "من حيث السكان يكون للدولة الفلسطينية المقترحة ٨١٨ الف فلسطيني" و"اقل من ١٠ آلاف يهودي". ولكن "سيكون للدولة اليهودية نحو ٤٩٩ الف يهودي وحوالي ٤٣٨ الف فلسطيني"...
17- برنارد لويس

Bernard Lewis, *The Middle East: 200 years of History from the Rise of Christianity to the Present day* (Weidenfeld & Nicolson, 1995), p. 365.

١٨ - Gilles Kepel, *Jihad: The Trail of Political islam* .(Cambridge: Harvard University Press, 2002), p. 53

١٩ ـ جابر عصفور

Gaber Asfour, “Osama bin Laden: Financier of Intolerant ‘Desert’ Islam”, *New Perspectives Quarterl*, Winter 2002. Donwload at www.digitalnpq.

20 ـ محمد ابو سمرة ، "الشهادة في المجتمع الفلسطيني الحديث" ، (كلمة القاها في تورنتو) ، ٦ اكتوبر (تشرين الأول) ، ٢٠٠٢.

٢١ ـ صحيفة "الحياة الجديدة" ، ٢ سبتمبر (ايلول) ، ٢٠٠٢. ترجمة اندبندنت ميديا ريفيو انااليسيس Independent Media Review Analysis وقد جرى تدقيقها بالمقارنة مع ترجمات اخرى ، والنص العربي منقول منها.

من المثير ان نلاحظ ان نبيل عمرو الذي كان نفسه رئيس تحرير سابقا ، كان وزير الاعلام في حكومة رئيس الوزراء السابق محمود عباس.

٢٢ ـ يوسف اليوسف

Yousef Al-Yousef, “Israeli propaganda nominated for Oscar”, www.arabia.com, March 21, 2002.

بالمناسبة يُوصف يوسف اليوسف في هذه المادة بأنه رئيس منظمة "المسلمين الاميركيين من اجل السلام العالمي والعدالة" ـ وهي منظمة اميركية مسلمة للدفاع عن حقوق الانسان مقرها في واشنطن دي سي.

٢٣ ـ الأكاديمي المقصود هو نعيم جناح ، الناطق باسم لجنة التضامن مع فلسطين في جنوب افريقيا. وكان قد القى في ٣٠ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢ كلمة موضوعها "جنوب افريقيا واسرائيل ـ ممارسة

الابارتهايد".
٢٤ ـ البرلماني ذو العلاقة هو امنون روبنشتاين.
٢٥ ـ انطوان شماس ، وهو كاتب من عرب اسرائيل ، كما ينقل عنه يوسف لابيد
Yosef Lapid, “To my candid, envious friend”, *Jerusalem Post*, June 13, 1995.
الصحيفة الناطقة بالعبرية التي نشر فيها شماس هي "حائير" ، من صحف تل ابيب المحلية .
٢٦ ـ مساعدي في مجال البحث تراسل مباشرة مع كاتب الرسالة ارجان الفاسد الذي أكد ان صحيفة "القدس" لم تتراجع قط. اقرأ القصة كاملة.
٢٧ ـ ادوارد سعيد ، لوموند ديبلوماتيك ، سبتمبر (ايلول) ١٩٩٨ ، ص ٦.
Edward said, “Israel-Palestine: a third way,” *Le Monde Diplomatique* (English translation), September 1998, p. 6.
28ـ ادوارد سعيد ، المصدر السابق ، ص ٧.
29ـ [القوا نظرة على بعضها]. استطلعتُ من اصدقاء غير يهود حضروا المؤتمر ، وتذكر العديد منهم رؤية هذه الرسوم الكاريكاتيرية.
30 ـ للاطلاع على امثلة موثقة توثيقا كاملا على ذلك انظر الموقع
www.memri.org
واقرأ عمل روبرت ويستريك
Robert Wistrich, *Muslim Anti-Semitism: A Clear and Present Danger* (American Jewish Committee, 2002)
في كل من هذين المصدرين تُساق الأمثلة مشفوعة بأسانيد دون الاكتفاء بإيرادها .
31ـ وزير الدفاع المقصود هو مصطفى طلاس.
32ـ البعض يقول ان مارتن لوثر كنغ كان يؤيد الصهيونية. ولكن ليس هناك دليل دامغ على ذلك. ويبدو ان ما يسمى "رسالة الى صديق معاد

للصهيونية" بعث بها كنغ رسالة ملفقة. وهي كثيرا ما تُقتَبَس بوصفها جزء من كتاباته الكاملة بعنوان *This I Believe* . ولكن الاقتباس لا يأتي ابدا على ذكر ارقام الصفحات ، وذلك لأن الـ"رسالة الى صديق معاد للصهيونية" رسالة لا وجود لها بكل بساطة.

٣٣ ـ بحسب معهد الابحاث الاعلامية في الشرق الاوسط ، كتب احمد دحبور ، الأمين العام لوزارة الاعلام الفلسطينية ، في صحيفة "الحياة الجديدة" ، بعددها الصادر في ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٢ انه "إذا لم نقدم الصهيونية على حقيقتها ـ حركة قومية عنصرية اوروبية ظهرت على هامش الاستعمار والامبريالية القديمين ، فاننا سنقع فريسة سهلة..."

٣٤ - David Matas, “Israel and the Palestinians: Myths and realities” (Institute for International Affairs of Canada, 2001), p.5 B’Nai Brith

يثير ماتاس Matas نقطة هامة اخرى حيث يقول: "ان القانون الأساسي في المانيا يسمح لأي شخص بان يصبح مواطنا إذا كان من ذرية شخص كان مواطنا المانيا وحُرم من تلك الجنسية لأسباب سياسية أو عرقية أو دينية خلال الفترة الواقعة بين ٣٠ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٣ و ٨ مايو (ايار) ١٩٤٥. ولا يتعين على هذا الشخص ان يكون من ذرية الجيل الأول. هذا القانون الالماني يُسمى بصورة غير رسمية "قانون العودة" ولكن لم يصدر ذات يوم قرار عن الامم المتحدة يعتبر قانون العودة الالماني هذا قانونا عنصريا.

٣٥ ـ امنون روبنشتاين

“Amnon Rubinstein, A minority within a minority”, *Haaretz*, October 7, 2002.

وينقل روبنشتاين عن الدكتور الكس لوينتال Alex Lowenthal ، مدير الخدمات الصحية العامة في وزارة الصحة الاسرائيلية ، قوله "ان لدى

العرب المسيحيين أحسن المؤشرات الصحية في اسرائيل ، أحسن من اليهود".

36- انظر الصورة .

يبدو العرب شغوفين باستخدام الأسماء الاميركية ، ومنها Toys 'R' Us و Blockbuster Video [انظر امثلة على هذه المحاكاة من رام الله]

٣٧ ـ توماس فريدمان

Thomas Friedman, *The Lexus and the Olive Tree* (New York: Farrar, Straus Giroux, 1999), p. 278.

٣٨ ـ عرفان حسين

Irfan Husain, "When will we ever learn?" DAWN, December 21, 2002.

39- فريد اسحاق

Farid Esack, *On Being a Muslim: Finding a Religious Path in the World Today* (Oxford: Oneworld Publications, 1999), p. 15.

40- [انظر هذا الكليب]

41- فريد زكريا

Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: W. W. Norton, 2003), pp. 135-36.

٤٢ ـ تقرير لوكالة الصحافة الفرنسية (ا ف ب) ، ٥ ابريل (نسيان) ٢٠٠١

Hala Boncompagni, "Japanese pocket monster 'Pokemon' game fans passions in Jordan," Agence France Presse wire service, April 5, 2001.

ذكرت بونكومباني Boncompangi انه بعد الفتاوى التي صدرت في العربية السعودية وقطر بمنع لعبة "بوكيمون" التهبت العواطف في عمان ايضا حيث اثارت اللعبة توترا بين المسيحيين فيما يرى بعض الاردنيين انها مؤامرة اسرائيلية.

وشعر الأب امانويل اسطيفان بنا من طائفة المسيحيين الارثوذكسيين السريان بوطأة النتائج منذ أيام عندما وصلت أول الرسائل المجهولة اليه بواسطة الفاكس.

وجاء في هذه الرسائل ان كلمة "بوكيمون" واسماء الشخصيات الموجودة في اللعبة كلمات يهودية جذرها في اللغة السريانية القديمة وانها تسيئ الى الاسلام ، كما صرح القس لوكالة الصحافة الفرنسية (اف ب). وقالت هذه الرسائل ان كلمة بوكيمون تعني "أنا يهودي" وان بيكاتشو (الشخصية الرئيسية في اللعبة) انما هو وصف رديء وجارح جدا لكلمة الله.
٤٣ ـ اتهم العالم الديني نفسه ، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الشيخ ، غالبية اوراق البوكيمون التي يجري تداولها بأنها "تحمل نجوما سداسية هي رمز الصهيونية العالمية ودولة اسرائيل" فضلا عن "صلبان ذات اشكال مختلفة".
٤٤ ـ الرئيس جورج دبليو بوش (كلمة في الاكاديمة العسكرية الاميركية ، ويست بوينت ، نيويورك) ، ١ يونيو (حزيران) ٢٠٠٢. انظر الموقع www.whitehouse.gov.
٤٥ ـ هشام قاسم في مقابلة صحافية ، الاذاعة الوطنية العامة ، ٢٩ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٢.
٤٦ ـ سعد الدين ابراهيم (كلمة القاها في بيت الحرية Freedom House ، واشنطن ، دي سي) ، ٢١ اكتوبر (تشرين الأول) ،

.٢٠٠٢
٤٧ ـ للاطلاع على عرض ممتاز لقضية ابو زيد انظر
Mary Anne Weaver, “Revolution by Stealth,” *New Yorker*, June 8 1998.
48ـ سعد الدين ابراهيم (كلمة القاها في بيت الحرية ، واشنطن ، دي سي) ، ٢١ اكتوبر (تشرين الأول) ، ٢٠٠٢ .
٤٩ - Jon B. Alterman, “Egypt: Stable but for How Long?”, *The Washington Quarterly*, Volume 23, Number 4, Autumn 2000, p. 115.
٥٠ ـ سعد الدين ابراهيم (كلمة القاها في بيت الحرية ، واشنطن ، دي سي) ، ٢١ اكتوبر (تشرين الأول)، ٢٠٠٢. الاقتباسان السابقان ايضا من هذا المصدر.
٥١ - Rami Khouri, “Don’t stifle a rare Arab voice of moderation”, *Globe and mail*,July 5, 2000.
٥٢ - Claudia Winkler, “Egypt’s Sakharov”, *Weekly Standard*, July 31, 2002, p. 1 of online version. Download at www.weeklystandard.com.
٥٣ ـ للاطلاع على هذه الرسالة انظر الموقع www.memri.org. وانقر على Reform in the Arab Muslim World ثم انتقل الى October 15, 2000: Liberal Arab Intellectuals Call on President Mubarak to Free Dr. Saad Al-Deen Ibrahim.
٥٤ ـ تلقيتُ شهادات من عدة نساء. لأسباب لا تخفى على القارئ لا تريد هؤلاء النساء كشف هوياتهن.
٥٥ ـ أمير طاهري
Amir Taheri, “The Arab Role”, *National Review Online*, December 20, 2002.

56- عزت مجيد كما ينقل عنه توم فريدمان
Tom Friendman, “Breaking the Circle”, *New York Times*, November 16, 2001.
أخذ فريدمان الاقتباس مما يسميه "صحيفة ذي نايشن *The Nation* الباكستانية الشعبية".
٥٧ ـ محمد علي جناح (في اول خطاب له بصفته الحاكم العام لباكستان) ، ١١ اغسطس (آب) ، ١٩٤٧.
٥٨ ـ احمد ، حديث في تورنتو ، ١٣ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢.
٥٩ - Akbar Ahmed and Lawrence Rosen, “Islam and Freedom of Thought,” www.islamfortoday.com (archived), p. 2.
٦٠ ـ برويز مشرف كما ينقل عنه الموقع www.bbc.co.uk, 16 فبراير (شباط) ، ٢٠٠٢.
٦١ - Akbar Ahmed, “Reforming the Madrassah,” www.beliefnet.com (archived), p. 1.
٦٢ ـ زبغنيو بريجينسكي ، لو نوفيل اوبزرفاتور *Le Nouvel Observateur* ، 15 ـ ٢١ يناير (كانون الثاني) ، ١٩٩٨ ، ص ٧٦.
٦٣ ـ الرئيس ايزنهاور كما ينقل عنه نعوم تشومسكي
Naom Chomsky, “Drain the swamp and there will be no more mosquitoes”, *The Guardian*, September 9, 2002, p. 1 of online version.
٦٤ ـ “Donahue”, MSNBC, August 2, 2002.
٦٥ ـ الملك فهد كما ينقل عنه جون ايسبوسيتو
John Esposito, “A Response to ‘The place of Tolerance in Islam’, *Boston Review*, February/March 2002, p. 2 of online version.

الفصل السادس

بطن الاسلام الرخو

منذ زمن ليس ببعيد، تناولتُ موضوعَي الله والمثليين خلال اسبوع للمكاشفة يفصح فيه الأفراد عن حقيقة توجههم الجنسي أُقيم في جامعة شمال اميركية (١). وكان منظوري في معالجة الموضوعين منظورا عالميا شاملا ينطلق من المسيحية وصولا الى اليهودية والاسلام. وكانت القاعة قد غصت بالحاضرين من معتنقي هذه الديانات ، دون ان يتميز أحد منهم على نحو خاص. مجموعة واحدة فقط حضرت منظَّمة. فان جمعية الطلاب المسلمين (ام اس أي) أرسلت كتيبة من الاعضاء انتشروا في ارجاء القاعة. وكانوا جميعهم وقوفا بحيث كلما رفعتُ عيني عن الملاحظات التي أمامي ، واينما أدرتُ وجهي تلتقي نظراتي بطلعة الاسلام الحقيقية ، ذات القسمات المتجهمة.

في الجلسة المخصصة للأسئلة والأجوبة ، طرحتُ سؤالا على جمهوري من الحاضرين. إذا كان الاسلام هو "السراط المستقيم" فلماذا توجد طرق ملتوية في الممارسة العملية؟ لماذا لا تستطيع صديقتي من الشرق الأوسط ان تُسمي الاسلام قوة تقدمية مغتنمةً مثل هذه الفرصة لتتولى بنفسها تصميم حجابها ، في حين تبعث لي صديقة اخرى ببطاقة بريدية من باكستان تظهر فيها نساء داخل شوالات سوداء بالكاد فيها شق للنظر أو التنفس؟ (تقول البطاقة التي طُبعت في زمن حكومة طالبان ، بجذل: "تحيات من بيشاور!"). كان مرامي من ذلك ، الاشارة الى ان الاسلام ليس صريحا في كل الأمور كما يُقال للمسلمين عادة.

تلك النقطة ضاعت في ما أعقب ذلك من هرج ومرج. هتف عضو في

جمعية الطلاب المسلمين متسائلا من مؤخرة القاعة ، "لماذا الاختلاف في الممارسة؟ لأن الباكستانيين ليسوا مسلمين حقيقيين. فهم مهتدون ، والاسلام نزل على العرب". هنا ادار افراد عصبته من الجنوب اسيويين رؤوسهم بعيدا عني باتجاهه وقد بدا عليهم الارتياع والأذى مما سمعوه. لقد انهارت أمام انظاري الكتيبة المعادية للمثليين التي ارسلتها جمعية الطلاب المسلمين.

في اليوم التالي راسلتني باكستانية بالبريد الالكتروني. أرادتْ ان تعتذر لأنها كانت مع الطلاب الذين حاولوا تخويفي. قلتُ ، لاضير فردَّت ، بل كل الضير. فهي إذ جرَحَها تشكيك زميلها العربي في اسلامها أمضت الليل في التفكير. وقد أكدت قائلة ، "اني احتفظ بحقي في تحدي المثليين ولكن عليّ ان اقول أني لم اشعر بالارتياح الى القيام بذلك بمحاولة استفزازك. ففي قرارة نفسي أعرفُ ان الحجة تستحق مقابلتها بالحجة. وأنا ببساطة لم اعرف كيف اختلف مع "القيادة المركزية"". في مراسلات لاحقة بالبريد الالكتروني أوضحت انها تعني القيادة المركزية "العربية". كما تساءلتْ ما إذا كان سيجري التعامل مع العنصرية العربية في جمعيتها الطلابية.

أنا كان عندي التساؤل نفسه طيلة سنوات عملي في برنامج "تلفزيون شاذ". فان عددا يفوق الحد من المشاهدين المسلمين تهجموا على هويتي الروحية لأسباب عرقية محضة. والرسالة المفضلة عندي من "عربي غيور" عمَّدتني بصفة "سحاقية خنزيرة كذابة" لأن "فلاحة هندية" مثلي لن تفهم الاسلام. ارحموني يا ناس. لم يفهم هذا العربي ان حياتي في فترة المراهقة كانت مشبعة بالعروبة حتى أني عندما كان الأطفال يعيِّروني بأصلي الباكستاني مستخدمين كلمة "باكي" التحقيرية ، كنتُ أتصدى لهم بالقول أني في الحقيقة عربية. وعلى المشاهد الذي سمَّاني "خنزيرة"

اكتفيتُ بالرد ان لحم الخنزير حرام علينا نحن المسلمين ، فهل يُعقَل ان نكون خنازير؟ الشيء الوحيد الذي كان بحاجة الى "تقويم" فيه هو شتائمه التي يطلقها في غير محلها.

في حينه لم أدرك المغزى الأعمق للقضية. اما الآن فاني ادركه. ذلك ان المسألة تتعلق بامتياز المؤسس. فحين يدَّعي العرب بامتياز تحديد اجندة الاسلام ، يسلطون الضوء على كيف حل التخويف محل الفكر. وإذ فَقَدَ العقل العربي القدرة على التفكير بوضوح فقدها معه العقل المسلم ايضا ـ كأن على المسلمين كافة ان يسيروا (أو يعرجوا) في خطى متساوقة مع أتباع العقيدة الأوائل. "نحن لسنا أذكياء بما فيه الكفاية" (٢) ، هو التفسير الشائع في عموم العالم الاسلامي لسبب ان المسلمين الآخرين لم يتمكنوا من تخطيط اعتداءات ١١ سبتمبر (ايلول). كما تحتل المؤامرات الصهيونية مكانة متميزة في اللغط حول مَنْ هو الفاعل. وينبغي ألا نستغرب من انتشار هذه النظريات انعكاسيا في الشرق الأوسط حيث اسرائيل هي العدو اللدود. ولكن الاقتناع بأن اليهود كانوا وراء ١١ سبتمبر (ايلول) يسري بثقة أكبر في باكستان واسيا الوسطى والمجتمعات الاسلامية الكبيرة ، التعددية تقليديا في جنوب شرق آسيا حيث لا مكان للاحقاد العربية كي تترك بصمتها على الاسلام ، إلا إذا كان المسلمون ، كما سبق ان قُلت ، قبيلة عربية أكثر منهم أُسرة عالمية(٣).

في القبيلة العربية ، على الأفراد من الفئات الدنيا ان يدينوا بالولاء المطلق لشيوخها. وعلى الامتثال يتوقف احساس الفرد بالهوية ، إن لم يكن بالأمن. لعل هذا هو السبب في ان النزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ، وهو حرب اقليمية بكل المعايير الوطنية ، أصبح محكا لوحدة المسلمين في العالم. فان تقويم الحقائق تقويما مدروسا ليس خارجا عن الصدد

فحسب بل وغير مُستحَب ايضا. واتخاذ الجانب المأمون ، احتراما للروابط القبلية ، هو الأهم. الصحافي المخضرم فريد زكريا يؤكد ما اذهبُ اليه في كتابه الصادر عام ٢٠٠٣ ، *The Future of Freedom* ("مستقبل الحرية"). فهو يقول: "ان مسلمي اندونيسيا ، الذين قبل ٢٠ عاما خلت لم يكونوا يعرفون أين تقع فلسطين ، متشددون الآن في دعمهم لقضيتها. ويمتد النفوذ العربي حتى الى مضمار العمارة. ذلك ان العالم الاسلامي جمع دائما في أبنيته بين المؤثرات العربية والسمات المحلية ـ من هندوسية وجاوية وروسية. ولكن يجري الآن تجاهل الثقافات المحلية في اماكن مثل اندونيسيا وماليزيا لأنها لا تُعتبر اسلامية بما فيه الكفاية (أي ليست عربية)" (٤).

لعلها العقلية الصحراوية هي التي أوجدت النزعة الذمية dhimmitude ، متبدية بالقمع المنهجي لليهود والمسيحيين في بلاد المسلمين. لماذا عامَلَ المسلمون بعض الأقوام ، حتى في ذروة تسامحنا ، بوصفهم أدنى منزلة؟ ما الذي أفضى الى وثائق تمييزية مثل "عهدة عمر"؟ لا بد ان يكون شيء أكثر من القرآن ، الذي يبيح محبة غير المسلمين. فما الذي رجح كفة التعصب؟ دعوني اقترح الآتي: لا مكان للمساواة في الصحراء إذا أُريد الحفاظ على تراتبية القبيلة سالمة.

لعل قبضة القَبَليّة الصحراوية هي السبب في ان الانتحاريين الفلسطينيين يعتمدون على العطايا التي يقدمها الحكام المستبدون العرب (٥). فان ابوية الصحراء تعني توزيع المكارم التي يمنُّ بها شيخ القبيلة. وعلى هذا الصعيد "نحتاج الى كثير من النقد الذاتي" ، كما قال لي الدكتور اياد سراج من صالون منزله المزخرف في غزة في يوليو (تموز) عام ٢٠٠٣. والدكتور سراج مؤسس منظمة لعلاج الأمراض العقلية في غزة the Gaza Community Mental Health Programme وهو

ايضا فلسطيني دفعت صراحته ياسر عرفات الى اعتقاله. يتحدث الدكتور سراج باستفاضة عن ما أنزله الاسرائيليون على انفسهم من احساس بالخوف والذنب يحيلهم الى ظالمين ، ثم يتبرع بشيء عن شعبه هو فيقول: "أعرفُ ان لدينا الكثير من الأمراض النفسية psychopathology . فهذا مجتمع ذكوري لا دور فيه للمرأة ، ولا وجود لحرية التعبير ، بل هناك جو خانق من التخويف....ان هذه بنية قَبَليَّة يُعدُّ الاختلاف فيها خيانة. لم نتوصل بعد الى حال من المواطنة في البلدان العربية يكون الأشخاص معها متساوين امام القانون. وهذا أمر خطير للغاية".

وأنا اصدِّق ذلك. فان رجاء شهادة لم يتمكن من الافصاح عن ما يدور في ذهنه في رام الله لأن الشبكة الاخطبوطية من العلاقات الاجتماعية تسحق الفرد ، كما يعترف هو نفسه. والاشخاص يجدون انفسهم مربوطين ، بهذا القدر أو ذاك ، في سلسلة لا حيز يُذكر فيها لحلقة ضعيفة ـ لصوت معارض. ويخاطر المرء بحياته عندما يغني خارج السرب لأن مصيره ليس بيده على الاطلاق. انه مُلك القبيلة. وشرف المرء ليس شرفه وحده ، والخروج عن الصف يجلب العار على أقاربه وفي احيان كثيرة على العشيرة كلها.

ولعل شخصية الاسلام الصحراوية هي السبب في ان بالامكان اغتصاب المرأة في باكستان لغسل ما لحق بالعشيرة من عار ، حتى وإن لم تكن هي المسؤولة عن تلطيخ شرف العشيرة بل أحد آخر. فلأن المرأة هي مُلك عائلتها يكون اغتصابها عارا على العائلة ، ما يجعل من المرأة بيدقا مناسبا في الخصومات الثأرية بين العائلات.

بعضكم سيحتج ، "ان هذا ليس اسلاما. فالقوانين المعمول بها في

باكستان، مثلها مثل القوانين السارية في العالم الاسلامي برمته ، تجمع بين التقاليد الدينية والتقاليد غير الدينية!" قد يكون في هذا شيء من الصواب ، وعندئذ يغدو السؤال: هل يمكن اقتلاع معايير الصحراء من الاسلام؟ إذا كان ثمة إمكان كهذا ، وفقط بإمكان كهذا ، سيكون لدينا بصيص أمل بالاصلاح.

أتحداكم وأنتم تفكرون في ذلك ، ان تجيبوا عن السؤال الآتي: لماذا يكون من الصعوبة بمكان انتشال الاسلام من العادات المحلية ـ العادات القَبَلية ـ إذا لم يكن ثمة شيء قَبَلي بعمق في الدين نفسه اساسا؟ فان لكل دين نماذجه الانعزالية ، له قبائله في الروح والعقل. ولكن ما يجب اماطة اللثام عنه في الاسلام هو بُعدُه الصحراوي القبلي الذي يرتقي بفعل رص الصفوف الى مستوى غير معقول.

جابر عصفور كاتب مصري يُبدي ارتياعه إذ يرى زحف "اسلام الصحراء" على ما في بلده من تقليد في التبادل الصاخب بالأخذ والرد. وهو يشير الى ان اسلام الصحراء يتعارض مع ما في "حياة "الحارة" من تعددية ومساومات ، إذ انه متعصب" (٦). وعلى غرار بدو القرن السابع الذين كانوا يرون في كل منعطف ثأرا يتربص بهم فان الاسلاميين الذين يستوحون حياة الصحراء يرتابون فورا بـ"الآخر" وحتى يضمرون له الكراهية. و"الآخر" هو اليهود ، والغربيون ، والمرأة التي يقول عصفور ان ثقافة الصحراء تعدُّها "مصدرا للغواية والشر" (٧). وهو يزعم ان اموال النفط التي تدفقت على العربية السعودية اسهمت في اشاعة عادات الصحراء القاسية. دون شك. ولكني اعتقد ان هذه العادات حددَّت شكل الاسلام زمنا أطول بكثير مما نريد الاعتراف به.

تسليمة نسرين ، وهي كاتبة نسوية وطبيبة أُبعدت من بلدها بنغلاديش ،

اعطتني مثالا ملموسا على ما عاشته قبل ان يُصيب السعوديون ثراءهم بزمن بعيد. قالت نسرين: "قيل لي في طفولتي ان الله بكل شيء عليم. وكل شيء يعني كل شيء". إذاً ، ينبغي ان يكون الله عليما باللغة البنغالية ، أليس كذلك؟ فسألتْ نسرين والدتها ، "لماذا عليّ والحال هذه ان أُصلّي بالعربية؟ عندما أُريد ان اتكلم الى الله لماذا يتعين عليّ ان استخدم لغة غيري؟" والدتها لم تقدم اسبابا بل كليشهات معهودة. "استظهرت من القرآن لأن الحديث يذهب الى انك عندما تموت يأتيك مَلَكان يسألانك اسئلة من الروح ، ويتعين ان تكون الاجابات بالعربية وإلا فان قبرك يطبق عليك بقسوة. لماذا لا يعرف هذان المَلَكان اللغة البنغالية؟ يبدو وكأن الله احتل عقول المسلمين ، كأنه غزاها" (٨). وجزاء تحدياتها للاحتلال الديني في سن البلوغ أُجبرت نسرين على الهرب من وطنها في عام ١٩٩٤. وهي الآن تعيش في مكان غير معروف في السويد.

احترام والدتها للغة العربية يُعيد الى الأذهان احترام السيد خاكي وعدد لا يُحصى من المسلمين لها. أنا لم أفهم قط ـ هذا الاحترام وليس فقط اللغة نفسها. هل يُشعر المسيحيون بعضهم بعضا بالدونية لجهلهم باليونانية ، اللغة الأصلية التي كُتب بها "العهد الجديد"؟. مر زمن لم يكن بالوسع فيه ممارسة شعائر الديانة المسيحية إلا باللغة اللاتينية ، الأمر الذي كان يحمي سلطة رجال الكهنوت في الفاتيكان. المسلمون ليس لديكم فاتيكان. ولكن ثم ماذا؟ فأنا ، شأني شأن تسليمة نسرين ، قيل لي ان اتواصل مع الله بلسان سيان عندي ان يكون حتى يونانيا. لماذا ينبغي ان تكون العربية لغة لا تُعوَّض؟ قطعا ان كلمة الله الاولى التي نزلت على النبي كانت "اقرأ!" ، والعربية هي ما قرأه. ولكن ، كما قلتُ سابقا ، كان محمد أُميا. وما هذا بخافٍ على المسلمين. وقدرته على القراءة بمشيئة الله كانت تشير الى تحقق معجزة لا الى سمو لغته الأم.

يبدو لي ان الامبرياليين الثقافيين العرب يتنافسون مع الله على لقب "العلي القدير". والقرآن يصر على انه "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم" (٩). فلماذا ، إذاً ، يتعين على المسلمين ان يركعوا باتجاه مكة خمس مرات في اليوم؟ أليس في هذا ما يُشير الى خنوع للصحراء؟

سمُّوني سطحية ، ولكن بالامكان تلمس القَبَلية الصحراوية حتى في ما يُقال للمسلمين ان يرتدوه من ملبس. فان ملايين النساء المسلمات خارج الجزيرة العربية ، بما في ذلك الغرب ، يتحجبن. وهن يقبلن بأن التحجب فعل يدلُّ الى الخضوع الروحي. انه اقرب الى الاستسلام الثقافي. هل تعرفون من أين حصلت النساء الايرانيات على تصميم الشادور الذي ساد بعد الثورة ـ العباءة التي لا تكشف حتى عن خصلة من الشعر؟ من ملا كان يقود الشيعة في لبنان (١٠). فكان الشادور سلعة تم استيرادها برسم جمركي باهظ. وفي حين ان القرآن يقضي بتحجب نساء النبي فانه لا يفرض ابدا مثل هذه الممارسة على النساء كافة. وإذا أردتم الحق ، لماذا ينبغي ان يفرضها؟ فالحجاب يحمي المرأة من رمل الصحراء وحرارتها ـ وما هي بمشكلة ملحة خارج الجزيرة العربية والصحراء الكبرى في شمال افريقيا والفلاة الاسترالية. وهذا يعني ان باستطاعتي ان ارتدي كنزة ذات ياقة ضيقة وقبعة من النوع الذي يعتمره لاعبو البايس بول لاستيفاء شروط الحشمة التي يأمر بها الدين. وأن أتحجب "لأن هذا ما يُفترَض بي أن افعله" انما هو بمثابة انتصار لموضة عرب الصحراء الذين اصبح لباسهم التقليدي أكثر الرموز موثوقية في كيفية الظهور بمظهر المسلمة التقية. قولوا لي هل المطلوب من الله ان يعمل كما تعمل مجلة "برادا" Prada المتخصصة بالازياء؟

ان محاكاة سكان الصحراء بملبسهم أو لغتهم أو صلاتهم لا تعني

بالضرورة الالتزام بكلام خالق الكون. ولكن أنَّا لك ان تعرف ذلك وقد اقترن نشر الاسلام بالخرافات على مر القرون. وهذه الخرافات أحالت المسلمين من غير العرب الى عملاء لأسيادهم العرب ـ زبائن يجب ان يشتروا ما يُباع لهم باسم "التنوير" الاسلامي.

وعندي فان اشد ما يثير الحنق من هذه الخرافات هو "الجاهلية" ، الانحطاط الاخلاقي الذي يُقال انه كان سائدا قبل ظهور الاسلام. وقد تصفحتُ مؤخرا عند احد الأقارب في تورنتو كتابا يشير الى الفترة السابقة على الاسلام بوصفها "عصر الجاهلية" ـ وقد كُتبت العبارة بحروف كبيرة (١١). صحيح ان الجزيرة العربية في القرن السابع كانت غارقة في بحر من التحلل والعنف استحث ضرورة انبثاق عقيدة توحيدية. ليس عندي خلاف مع ذلك. ولكن القرآن لا يتحدث عن التخلف الأخلاقي إلا في سياق التاريخ "العربي". واللغز المحيِّر هو ان العرب افترضوا ان الأقوام غير العربية التي قهروها كانت جاهلة اخلاقيا على اختلافها. وجرى تعليم المقهورين عمليا انه إذ احاط القرآن الفترة السابقة على ظهور الاسلام بظلام دامس فان أي معارف قبل مجئ محمد هي بمثابة كفر وزرُه على كاهل كل مسلم خارج الجزيرة العربية بقدر ما هو على كاهل أهلها. هذه الخرافة هي ما حوَّل والدة تسليمة نسرين الى روبوت ديني تستظهر العربية بوزر الآثم.

في. أس. نايبول ، مَثَله مثل فريد زكريا ، رأى العواقب على نطاق أوسع. فقبل سنوات تذكَّر نايبول رحلاته في ايران وباكستان وماليزيا واندونيسيا. وإذ اعترف بنضالاتها ضد المستعمرين الاوروبيين فانه سرعان ما اكتشف انه "ما من استعمار كان شاملا مثل الاستعمار الذي جاء مع دين العرب....فقد كان من مقومات دين العرب ان كل ما سبقه خطأ وضلال وهرطقة: لم يكن هناك متسع في قلب هؤلاء المؤمنين

وعقلهم لماضيهم قبل محمد" (١٢). وأنا قد استمعتُ الى مسلمين ليسوا بالقلائل يشطبون على نايبول بوصفه عنصريا. وثمة في هذا مفارقة لأن النقطة التي يطرحها تساعد على توضيح السبب في أني عندما كنتُ اتعلم في المدرسة الدينية ، لم اسمع أي شيء بالمرة عن المصادر اليهودية والمسيحية للعديد من التقاليد الاسلامية. فالاعتراف بهذه المؤثرات يعني ان العالم لم يكن غارقا في ظلام الجاهلية قبل الاسلام ، وان المسلمين العرب استعاروا ممن سبقوهم ، وانهم هجائن بذمتهم دَيْن للآخرين وليسوا ثوريين انقياء. ولكن قول هذا كله يشكل تحديا للقبيلة. وهذا غير وارد بأي حال من الأحوال ، اليس كذلك؟

ربما كان واردا. فكروا في السؤال "التابو" ما إذا كان القرآن كلام الله من البداية الى النهاية. فخلال العقود الاولى من الاسلام ، احرز العرب الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي لهضم الدين الجديد ، نجاحات عسكرية باهرة عالميا بإسم الله. ومن الجائز ان القرآن تطلَّب أن يُجمَع على عجل لمواجهة ضغوط بناء الامبراطورية. وفي مبحث ريادي بعنوان What is the Koran? "ما هو القرآن" روت مجلة اتلانتيك مونثلي الشهرية *Atlantic Monthly* قصة قائد عسكري عائد من اذربيجان. وحذر القائد العسكري خليفة محمد الثالث عثمان بن عفان بأن الذين دخلوا الاسلام حديثا بدأوا يختصمون حول ما يقوله القرآن. وناشد الخليفة ان يوقف هؤلاء عند حدهم قبل ان يشعلوا نار الفتنة مثلما اشعلها اليهود والمسيحيون من قبلهم. فأمر عثمان بتغيير جذري في التعامل مع القرآن على وجه السرعة. وصار المحفوظ من الآيات يُكتب والمتناثر من رقوق النص المقدس يُجمع لضمِّها كلها في صيغة واحدة من القرآن. وتقرر اتلاف النسخ "الناقصة" أو غير الرسمية من القرآن. سؤال: بعد أن أُقرت الصيغة النهائية بهذه العجالة على انها النص الكامل ، ماذا لو لم يكن هذا النص "كاملا"؟

من المنطقي ان تكون للقرآن نواقص. فان سرعة بناء الامبراطورية العربية كان من شأنها ان تبلور أولويات تضع الدين في خدمة الاستعمار وليس العكس. أليس من الجائز ان تكون بعض آيات القرآن تعرَّضت الى التلاعب لتحقيق مواعيد واهداف سياسية؟ أليس من الجائز ايضا ان المحاربين العرب ، الذين كانوا أكثر تآلفا مع عاداتهم الغليظة منه مع دينهم الجديد ، طعَّموا الاسلام الذي صدَّروه بالكثير من هذه العادات؟ ليس من الصعب ان نرى كيف ان المخزون الثقافي لعرب الصحراء ، كالحواجز القبلية ، سيظهر وكأنه الاسلام بوجهه الناصع. ولا هو بالصعب ان نتخيل كيف ان اسلاما يخدم الغرض سيصبح اسلاما طيعا ـ أقل طاعة لله منه للمحاربين في سبيله.

ولكن قبضة القَبَلية تراخت في القرون الاولى من الاسلام وازدهر الابداع. كيف نفسر العصر الذهبي الذي عاشته التجارة والمناضرة والتلاقح الثقافي؟ ما الذي انجب عالما وفيلسوفا منفتح القلب مثل الكندي الذي اعرب عن "كل الامتنان للأجيال السابقة من الأعاجم الذين لو لم يعيشوا ، لتعذر علينا نحن ، على ما فينا من حماسة ، أن نتمكن في زمن حياتنا من تجميع مبادئ الحق هذه....؟" (١٣) بإختصار ، أين كان موطن الصواب؟ أهو يا تُرى تصور مستقبل ما!

كان تراكم الانتصارات العسكرية يعني ان العرب شعروا بأن لديهم مستقبلا عظيما وآمنا ، الأمر الذي كان ، بدوره ، يعني ان لا داعي لأن يكون الاسلام جامدا أو متعنتا بلا مهادنة. الأفضل ، في الحقيقة ، ان يكون الاسلام مرنا ليمكن توطيد الامبراطورية المتسعة بوتائر متسارعة ، وادارتها. صحيح انه لم يكن من الممكن فصل الدين عن السياسة ، ولكن كان بالامكان فصل الإطلاق عن السُمعة. وادراك ان النزعة الإطلاقية لا تبني سُمعة قد يكون هو ما دفع امراء طموحين الى توظيف

خيرة العقول وقتذاك ـ من اليهود والمسيحيين ، بالطبع ، ولكن من المسلمين غير العرب ايضا. والمسلمون غير العرب هم الذين أبدعوا المجموعة الكاملة من الاعمال الفكرية في الشرع الاسلامي حتى مجئ العصر الذهبي وفي اثنائه. فقد ازدهرت نحو ١٣٥ مدرسة فكرية في مرحلة سابقة. ولعل العبرة من ذلك ان المسلمين العرب أوجدوا توازنا بين ماضيهم القَبَلي ومستقبل تعددي.

في هذه الحالة ثمة عبرة اخرى نستخلصها. فعندما فَقَدَ المسلمون العرب امبراطوريتهم نفضوا ايديهم ايضا من الموازنة بين الماضي والمستقبل ، بين القَبَلية والتسامح. واندحروا في معارك خاضوها ضد غير العرب من البربر الى المغول ، ومن الصليبيين الى الاتراك العثمانيين. وكانت هذه الهزائم مهينة للمحاربين العرب المخضرمين. ولكن الأنكى من ذلك ان عقولهم تلقت ضربات ماحقة. ففي القرن الثالث عشر يُروى ان المغول رموا ملايين المخطوطات في نهر دجلة "الذي تحول ماؤه اسود طيلة ايام بسبب ما سال فيه من مداد ودم" (١٤)، على حد تعبير مسلم استبدت به العاطفة. اما الصليبيون فقد لجأوا الى اشعال حرائق هائلة حيث قام الاساقفة ذات مرة بإضرام النار في نحو ٨٠ الف مجلَّد مترَعَة بالافكار. وثمة هنا استعارة مجازية للطريقة التي أخذ العرب ينظرون بها الى مستقبلهم: مستقبل غارق ، محروق أو مُصادَر. وقد كانو بحاجة الى بلسم شافٍ.

المجد الوحيد الذي يمكن ان يدَّعيه العرب بلا مراء هو مجد اللحظة التي ظهر فيها الاسلام. وأن يكون القرآن انبثق من قلب الجزيرة العربية ، بلغة العرب ، فان هذا كان يشير الى ان آيات "الختام" التي أنزلها الله ستكون مُلك مَنْ يمثّلون الجزيرة العربية الى الأبد. وما من أحد سواهم يستطيع أن يكون قريبا الى ذلك قرب العرب ، جغرافيا وروحيا. وهنا

تكمن العزة ، بل وحتى الخلاص ، بعد هذا السقوط المدوي. ولكن هذا البلسم كان قنبلة. وقد تردى التوازن ذو الأهمية الحاسمة بين الماضي والمستقبل ترديا مطردا الى استغراق دفاعي في الماضي - وعلى الأخص الى تعلق بلحظة التأسيس. وأنا اسمي ذلك نزعة "تأسيسية" (من التأسيس على غرار الاصولية من الأصل - foundamentalism مقابل Fundamentalism).

لقد كانت هذه "النزعة التأسيسية" وراء العديد من المآسي, فان رجال الدين ، الذين كان الاسلام ولي نعمتهم الحديثة ، اصبحوا عمليا سدنته. ومع غلق باب الاجتهاد بحلول القرن الثاني عشر ، كان المفتون قد أخذوا يبسطون سطوتهم لمراقبة الحقيقة. ومع تضييق الخناق على الحقيقة تعاظمت سلطتهم ليصبحوا اقرب الى الجنود منهم الى العلماء. وأصبح التجديد بكل اصنافه موضع شبهة الى ان تم تحريمه نهائيا. وباعتبارهم اوصياء على لحظة التأسيس عاد علماء الدين الى النصوص الأصلية "الكاملة"، الى القرآن والحديث ، دليلا على حظر السعي الى أي معرفة اضافية. ومن بين احاديث النبي التي راجت تحذيره من كل ما هو جديد بوصفه "كل محادثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار" (١٥).
يا لها من طريقة عظيمة لبناء المستقبل ، أليس كذلك؟

كان ينبغي ان يقتصر تكبيل التجديد على الجزيرة العربية إن كانت ثمة ضرورة لذلك اصلا. وبدلا من ذلك طاول الحُكم بتحريم التجديد ، المسلمين ابعد من الصحراء بكثير. ففي عام ١٥٧٩ مثلا تلقت اسطنبول مرصدا فلكيا. وفي عام ١٥٨٠ قضى علماء الدين بهدمه. ويلاحظ العالم المسلم مراد هوفمان ان جامعة الأزهر رغم صيتها الذائع "كانت قاصرة في مجال العلم". يا له من تراجع بالمقارنة مع بضعة قرون لا أكثر حين

كان الاسلام سيد العالم في علوم الفلك والرياضيات والطب والكثير غير ذلك. وان هذه الانتكاسة تزكّي ما ذهب اليه مَنْ بدأ تشغيل اول مطبعة في اسطنبول ـ والعالم الاسلامي ـ عام ١٧٢٨. إذ قال ابراهيم متفرقة في طلبه الموافقة على اقامة مشروع تجاري "ان من الهام أهمية حيوية للمسلمين ، الذين كانوا متقدمين على الغرب في العلوم ، أن لا يسمحوا لأنفسهم بالانكفاء". وبحلول عام ١٧٤٥ اضطر الى غلق مشروعه. فقد أفتى الملالي بمنع المطبعة.

ليس معنى هذا ان ابداع المسلمين توقف تماما. ففي مطالع القرن العشرين على سبيل المثال ، ايقظت أميرة فارسية ، لفترة قصيرة ، وعيا نسويا (أو وعيا قوميا ، على اية حال) اسفر عن تغيير شامل في دستور دولتها (١٦). وفي اصفهان بايران ، واغرا بالهند ، وفاس بالمغرب ، وسراييفو بيوغسلافيا ـ وكلها مدن كوزموبوليتانية حتى النخاع ـ لم تلق الدعوات الى التدين المتزمت استجابة تُذكر. كما ان هذه الدعوات كانت بلا معنى عند طوائف محدَّدة في الاسلام. وكما تؤكد كارين ارمسترونغ فان "الاسماعيليين ـ فرقة شيعية ـ كانوا يُدْعَون الى البحث عن الحقيقة اينما وجدت ، والصوفيين كانوا متفانين في حب النبي عيسى ، والفلاسفة ، بوحي من دراسة افلاطون وارسطو ، كانوا يبحثون عن شكل من الايمان أكثر شمولا" (١٧). ولكن كل هؤلاء الأشخاص والأماكن كانوا في الأطراف. فالبعيديون عن الصحراء لم يسيروا في الاتجاه العام. الجزيرة العربية هي التي كانت تمضي في هذا الاتجاه.

هاكم مثالا واحدا. في منتصف القرن التاسع عشر قام ملالي الصحراء بابتزاز الامبراطورية العثمانية وحملوها على اسقاط ثلاث قضايا ريادية تتعلق بالاصلاح الديني هي انهاء دور المسلمين في تجارة الرقيق الافريقية وتحرير المرأة من نير الحجاب والسماح لغير المؤمنين بالعيش

في ارض النبي. ولكن كبير علماء مكة اصدر فتوى على هواه ضد ما أشيع عن هذه التغييرات القادمة من اسطنبول. وقضى بأن منع الرق يتعارض مع "الشريعة المقدسة" ، والأكثر من ذلك...ان السماح للنساء بالخروج من دون حجاب وتسليم الطلاق بيد النساء ، وغير ذلك من الأمور يتعارض مع الشرع المقدس بصورته النقية....وانه بمثل هذه المقترحات أصبح الأتراك كفارا ، يجوز شرعا استعباد أطفالهم (١٨). وقام الأتراك رغم توجههم الاصلاحي بتهدئة الوعاظ وإرضائهم. وأكد لهم كبير المفتين في اسطنبول ما معناه ان بعض السفهاء الطامعين في مباهج الدنيا لفقوا أكاذيب غريبة وابتدعوا اباطيل مقرفة عن ما تقترفه الدولة العثمانية السامية ، "حفظها الله العلي القدير لنا..." (١٩) وأنا أشدد على جانب "الحفظ" لأن تحجير الاسلام هو اساسا ما يرمي اليه الاصوليون. وإذ تخلف المسلمون أكثر وراء الاوروبيين في الانجازات العسكرية والمادية ، تسارع زخم الاصولية.

كانت تلك هي المأساة التي توَّجت الهوس بلحظة التأسيس. وأصبح "تجديد" الدين تمرينا في النظر دوما الى الوراء. وأقصد "دوما" ـ ابتداء من القرن الرابع عشر عندما بدأت الامبراطورية الاسلامية تسقط بأيدٍ غير عربية. وكان أول المصلحين الشعبويين المفكر الدمشقي المعروف احمد بن تيمية الذي دان الغزاة المغول بوصفهم مرتدين ، لأن المغول رغم دخولهم الاسلام استعاضوا عن الشريعة بقوانينهم. وبرأي ابن تيمية لم يكن هناك خط فاصل بين الدين والدولة في زمن النبي محمد ، الأمر الذي يعني ان المغول هم من أهل البدع. وذلك أمر مرفوض. ومد ابن تيمية سوطه الى الفلسفة الاسلامية والصوفية الروحانية وحتى الاسلام الشيعي. فهي كلها بُدع ظهرت بعد وفاة النبي. ولعل المؤرخين منكم سيقولون ، "لكن ابن تيمية مات خارجا على القانون". وقد مات بوصفه نموذجا ترك ارثا يلهم ـ أو يحرض ـ من يأتي بعده من "المصلحين".

وهذا ما حدث بالفعل.

سأُعطيكم عيِّنة مما حدث. في الخمسينات والستينات من القرن الماضي استمد منحرف مصري يُدعى سيد قطب الالهام مباشرة من ابن تيمية. وقام الرئيس عبد الناصر باعدام سيد قطب ولكن بعد ايداعه السجن سنوات عدة. وكانت كتابات سيد قطب في السجن الوقود الذي ألهب الحركة الاسلامية الحديثة ، وخاصة جماعة "الاخوان المسلمين" ـ العصبة التي كان شعارها القرآن والمسدس ، كما ذكرتُ سابقا. وفي زمن أحدث سيطرت جماعة الاخوان المسلمين على نقابة المهندسين التي كان محمد عطا عضوا فيها.

وإذا كان هذا لا يشهد على تأثير ابن تيمية في العصر الحديث فإقرأوا الآتي: ان محمدا شقيق سيد قطب الذي يعيش في المنفى كان معلِّم اسامة بن لادن في المدرسة. وماذا تعلَّم بن لادن؟ من بين ما تعلَّمه ان نجم ابن تيمية سطع في زمن الغزو الأجنبي وانتقل الى مثواه الأخير مشيعا بالجماهير المعادية للمغول. وبعد سبعة قرون على رحيل ابن تيمية لدينا بن لادن بحملته ضد الأجانب الذين غزوا أرض النبي.

غزاة اليوم اميركيون. ورغم اعلان البنتاغون في عام ٢٠٠٣ ان غالبية القوات الاميركية ستغادر الاراضي السعودية الى قطر فان تلاميذ ابن تيمية يدَّعون ان عبور الحدود من جانب الى جانب آخر لا يطهِّر الجنود الاميركيين من ادران استعمارهم ـ قطر ستبقى دائما جزء من جزيرة النبي العربية. ويجب محاسبة الرياض على السماح للصليبيين بالمجئ اصلا. وثمة شيء آخر ايضا: عمد بن لادن الى تأجيج العواطف باطلاق نعت الصليبيين على الاميركيين ولكنه يتناسى ان هؤلاء "الصليبيين" احترموا حظر العربية السعودية على أي ممارسة علنية لشعائر الديانة

المسيحية. وفي عام ١٩٩٠ عندما زار الرئيس جورج بوش الأب القوات الاميركية المتمركزة في الجزيرة العربية وافق على ان لا يتلو صلاة عيد الشكر داخل البلاد. وتولى الرئيس قيادة القداس على متن السفينة الحربية "يو اس اس ناساو" في المياه الدولية.

ان يكون السعوديون اقاموا تحالفا مع "الشيطان الأكبر" فان هذا لا يؤكد عند بن لادن سوى عمق الدَنَس الذي بلغه البيت الابيض وبيت آل سعود. وإذ يتوجب قهر اميركا فلا بد من قهر مضيفيها السعوديين ايضا. ان مهمة بن لادن لا تقبل اللبس. فهو بتحرير المسلمين من البيتين الأبيض والسعودي انما يقدم آيات التكريم للحظة تأسيس الاسلام.

أهو من قبيل المصادفة البحتة ان بن لادن يمضي هذا القدر الكبير من وقته في المغارات ، مثلما كان النبي محمد يفعل بانتظار نزول الوحي عليه؟ كان بمقدور النبي ان يستمتع بالترفيات التي تضعها ثروة زوجته في متناوله ولكنه اختار أن يعيش حياة بسيطة. ومثله بن لادن الذي يصور نفسه شخصا زهد بثروته ليعيش حياة متقشفة. محمد تمرد على واحدة من اقوى قبائل مكة سطوة ونفوذا لينشر رسالته ضد الوضع السائد. وبن لادن انشق عن عائلته ذات الجاه والعلاقات الواسعة. محمد تحدى الأساس الأخلاقي الذي يقوم عليه اقتصاد برمته بادءا رسالته في مكة الناطقة بلغات متعددة كونها مفترق طرق تجارية حيث يستطيع التجار ان يعبدوا ما يشاؤون من الآلهة. ومدينة نيويورك عند بن لادن هي مكة قبل ظهور الاسلام ، والعاملون في مركز التجارة العالمي مقاتلون عن وعي في مسيرة النزعة المادية العلمانية كايديولوجيا تعبد البهرجة والعلامات التجارية البراقة. وهذا يدينهم بتهمة الوثنية والاعتداء على احادية الله. وتسري هذه الادانة مضاعفة على اليهود المسيطرين على المال.

وتستمر اوجه المقارنة في التشعب. فان ثورة محمد الأخلاقية قامت متزامنة مع ثورة تكنولوجية أتاحت بما اخترعته من سروج حديثة للجمال ، امكان السفر بوقت اسرع وتعاطي التجارة على نطاق اوسع ، وجشعا أكبر وفوارق اجتماعية أعمق. وكان محمد يغزو قوافل اعدائه لإطعام جيشه. وخزائن بن لادن لتمويل حملته اغتنت من زبائن اميركيين مدمنين ادمانا لا فكاك منه على النفط والافيون.

محمد احرز انتصارات عسكرية حاسمة بتكتيكات بدائية مثل حفر خندق حول مستوطنته ، ومباغتة اعدائه وتعويق خيلهم الأصيلة التي يستخدمونها في القتال. وفرسان بن لادن استخدموا المشارط للهجوم على قوة عظمى. النبي محمد اعتبر امته امة ملتزمة سياسيا لا ترسم حدودها إلا مشارف العقيدة. وبن لادن بث شبكة متعددة الجنسيات من الناشطين الذين يتخطون حدود الخرائط التي رسمتها امبراطوريات اجنبية. محمد كسب ولاء المسحوقين في مكة قبل ان تدرك النخب نفوذه وتدخل في دينه. والحق ان طريق بن لادن ما زال طويلا. ففي اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠١ خرج نصف مليون باكستاني مطالبين بالاعتدال. ولكننا لا نستطيع الاستهانة بجاذبية بن لادن وقد أظهر استطلاع للرأي اجرته مؤسسة غالوب في الشهر نفسه ان ٨٢ في المائة من سكان المدن الباكستانية يعتبرونه مناضلا من اجل الحرية (٢٠).

طروحات بن لادن قد يكون لها صداها بين المسلمين الساخطين على قادتهم الارذال الفاسقين. ويمكن لإعادته تمثيل لحظة التأسيس حتى ان تستجيب لتوق بين جماهير المسلمين الى الخلاص. ولكن "اصلاح" بن لادن ليس اصلاحا ، إن كانت هناك حاجة اصلا لقول ذلك. فان اسلامه يُديم الحلقة المفرغة من القمع التي وجد المسلمون انفسهم فيها ، باستثناء قلة منهم ، منذ زمن الفتوحات العربية. ولاهوته لاهوت قَبَلي يساوي

الوحدة بالامتثال ، مسلطا رهطا من المفسرين على التعليل الفردي المستقل. بن لادن لا يقدم أي شيء يقرب من الأجندة المناهضة للامبريالية. كل ما لديه هو مزيد من الدكتاتورية الآتية من الصحراء.

تأملوا أين ضربت رسالة بن لادن جذورها: العربية السعودية. فهو لم ينقلب إلا على قادتها وليس على البلد نفسه. ولهذا أهميته لأن وجود العربية السعودية ذاته يقوم على حلف بين المصالح الدينية والمصالح السياسية. ففي منتصف القرن الثامن عشر توجه زعيم قَبَلي اسمه محمد بن سعود الى "مصلح" ديني اسمه محمد بن عبد الوهاب للاتفاق على "زواج مصلحة" بينهما. واقترح ابن سعود على ابن عبد الوهاب أن يبارك مشروعه لبناء مملكة من شظايا في الجزيرة العربية مقابل اعلانه مرشدا روحيا للمملكة الجديدة. وإذ كان ابن عبد الوهاب طريدا قررت النخب ان لا مكان له في مدنها فقد قُبِل بالاتفاق. واسلامه "المصلَح" بتأثير ابن تيمية ، مارس تأثيره هو في بن لادن. واسلامه دين متقشف ـ مقطوع عن اصله الفكري ومشتبك بلا هوادة في حرب جهادية. وأباح التبرير الجهادي لشريك ابن عبد الوهاب السياسي ، قبيلة ابن سعود ، أن تغزوا اراضي الغير وتوسع المملكة على امتداد ٢٠٠ عام. وفي عام ١٩٣٢ نهضت الدولة السعودية الرسمية على انقاض الامبراطورية العثمانية. وبقي حلفها اللاديمقراطي تماما مع الملالي الوهابيين راسخا ، وكذلك التزامها بالجهاد. ومن خلال هذين الأمرين أتقنت العربية السعودية فن استعمار المسلمين.

أُريدكم ان تتخيلوا الصور التي تُنشر عن مناسك الحج كل عام. انها تجسيد للتعدد الثقافي بكل معنى الكلمة ، اليس كذلك؟ والآن اضيفوا الى هذه اللوحة حقيقة ان الملك السعودي يتبختر بوصفه خادم الحرمين الشريفين. وبلقبه المخلوع عليه كما لو بإرادة ألهية يدَّعي الملك تمثيل

المسلمين من كل لون وجنس ومذهب. ولكن الصورة الحقيقية ليست بهذا اللطف. ويمكن تلخيص معاملة الرياض للشيعة ، الذين يشكلون ثاني أكبر طائفة في الاسلام ، بحقيقة واحدة: طبقا للتعاليم الرسمية السعودية فان الشيعة هم مؤامرة يهودية. إذ يبدو ان يهوديا يمنيا تآمر مع يهود آخرين لشق الاسلام وزرع افكار تلمودية في عقول مسلمين اختلطت عليهم الأمور ، حتى اصبح المغرر بهم شيعة.

ان الشيعة بوصفهم فرعا انبثق عن اليهودية يكونون من أهل الذمة ، اليس كذلك؟ ومنطقيا ، فان هذا هو وضعهم في العربية السعودية. وقد أدلى مسلم اسماعيلي شيعي مؤخرا بشهادته امام الكونغرس الاميركي عما حدث عندما ضم السعوديون مدينته نجران. وقال علي اليامي انه "لم يتم اخضاع النجرانيين دينيا فحسب بل فقدوا الكثير من مصادر رزقهم ايضا. فقد صادر الحكام والامراء والقضاة الوهابيون اراضيهم الزراعية الخصبة. يضاف الى ذلك ان الوهابيين اخذوا يستحوذون عنوة على نصف ما ينتجه الاسماعيليون من مزارعهم وحيواناتهم..."(٢١) لاحظوا الاصداء الغريبة بين هذا المشهد وما قاساه الفلاحون اليهود في زمن محمد. فكل هذا "مباح" إذا كنتَ تعتقد ان المسلمين الشيعة هم يهود في الحقيقة (٢٢).

لا يمكن للشيعي ان يوكل محاميا في محكمة سعودية ، ولا يمكن لأحد أن يُعيَّن قاضيا إلا إذا كان وهابيا. والنتيجة الحتمية لهذه المعادلة البسيطة ان الشيعة في العربية السعودية يمثلون امام قضاة مقتنعين اصلا بأنهم هراطقة. أين هذا يا تُرى من الميثاق الاسلامي لحقوق الانسان الذي وقعته البلدان الاسلامية في القاهرة عام ١٩٩٠. فهو ينص على ان لكل انسان الحق في اللجوء الى القضاء وفي محاكمة عادلة ، كل انسان ، على ما يبدو ، إلا غير المسلمين. وبما ان الشيعة يهود....ياه ، ان العقل

يقف حائرا ازاء ذلك.

على الغرار نفسه لا يمكن للمرأة في المملكة ان تحضر في المحكمة حتى إذا كانت متمهة بجريمة قتل. ويوضح علي الأحمد ، المدير التنفيذي للمعهد السعودي الذي يوجد مقره في الولايات المتحدة ، ان للمرأة "الوضع القانوني نفسه الذي للسيارة" (٢٣). ومع ذلك لا يُسمح للمرأة بقيادة السيارة. وكلا الحقيقتين تعكسان حقيقة ان النساء اللواتي يشكلن ٥٧ في المائة من سكان العربية السعودية ، يُعَدن قاصرات دائما وابدا. ويشير الأحمد الى نقل المرأة من وصاية الأب الى وصاية الزوج أو الإبن. ويقوم المطوعة أو الشرطة الدينية بملاحقة هؤلاء القاصرات ـ البالغات باستمرار لفرض الالتزام الصارم بالشرع. ويشمل هذا عدم ارتداء اللون الأحمر في يوم الحب ـ فذلك جريمة تستدعي القبض على مرتكبها.

في مارس (آذار) ٢٠٠٢ تبدى معنى هذا الالتزام في عدم السماح للبنات بالهروب من الحريق الذي شب في مدرستهن قبل ان يرتدين عباءاتهن بكامل طولها. وبحسب التقارير الإخبارية السعودية نفسها فان ١٥ تلميذة لقين حتفهن وعشرات اصبن بجروح عندما أجبر افراد الشرطة الدينية الفتيات على العودة الى مبنى المدرسة المحترق لأخذ عباءاتهن ، التي تحولت الى اكياس لإحتواء جثثهن بالمعنى الحرفي للكلمة. وقال احد معارفي السعوديين معبرا عن الشك في صدق اقوال الشهود ، ان الصحف المحلية نشرت هذه القصة لمجرد إثارة المتاعب لوزير التعليم. كيف يمكن لصحافة تسيطر عليها الدولة ان "تثير متاعب"؟ الحقيقة هي ان هذا الحادث المروع أرغم الصحافيين السعوديين على تحدي الوضع القائم. وهم لديهم اسباب وجيهة للقيام بذلك: ما من بلد آخر في العالم يشترط على المرأة ان تغطي وجهها بحكم

القانون. وما من بلد آخر في العالم تصل به الفظاظة الى حد معاملة مواطناته بوصفهن مخلوقات مستنسَخَة من زوجات النبي محمد ـ النساء الوحيدات اللواتي يلزمهن القرآن بالتحجب.

هل تريدون معرفة المزيد عن مظاهر القَبَلية العفنة التي تفوح من العقد الاجتماعي في العربية السعودية؟ تمسك مقاليد السلطة حفنة من كبار الامراء. وهؤلاء هم الذين يصنعون السياسة ويوزعون العطايا على مافيا من الملالي يجب ان يضمن الأمراء ولاءهم لتفادي اندلاع ثورة عارمة. فهل ثمة ما يدعو الى العجب من التشويش بانتظام على المواقع التي تستخدمها منافذ الاخبار الغربية على الانترنت ولكن المواقع التي تبشر بالكراهية والعنف والارهاب يمكن الدخول عليها بسهولة من موطن النبي؟ هل ثمة ما يدعو الى الاستغراب من ان الرياض كانت ترفض التحقق من طبيعة عمل المنظمات الخيرية العاملة من الاراضي السعودية حتى باتت الاضواء الاعلامية ساطعة بحيث لم يعد بالامكان تجاهلها؟ هل يضيرنا في شيء ان السعوديين يخربون المباني التاريخية مثل الجوامع التي كان يستخدمها المسلمون الأوائل لأن هذه المعالم الخلابة يمكن ان تصبح صروح آلهة باطلة ـ مثل برجي مركز التجارة العالمي؟ وهل أن العربية السعودية لم تقر قط الاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر عن الامم المتحدة لأن حماية علماء الدين أولى من حماية المواطنين؟ في عام ١٩٤٨ لم ترفض اقرار الاعلان إلا الكتلة الشرقية وحكم الأقلية في جنوب افريقيا. ومنذ ذلك الحين انهارت الشيوعية ودخل الاصلاح الى جنوب افريقيا ، وفي هذه الأثناء رفعت العربية السعودية راية العولمة بإشهارها اسلاما اطلاقيا ، عقيما.

وها هي النتائج تأتينا تباعا من السودان وباكستان حيث كثير من المدارس الدينية لا تدرِّس إلا النص القرآني. ولا ريب انكم تعلمون بذبح

المسلمين غير العرب واستعبادهم في السودان ، الى جانب غير المسلمين. ولدى البحث عن نزعة قَبَلية من النمط البدوي في باكستان لا يمكن اغفال الآتي: ان البعض من غير المسلمين هناك يقعون تحت طائلة الإعدام لتجرؤهم على التلفظ بتحية المسلمين التقليدية ، "السلام عليكم" (٢٤). انها بادرة سلام اخرى مصيرها الرفض.

وإذا مضينا أبعد باتجاه الشرق نرى ان الاسلام الصحراي شوه افغانستان على صورة العربية السعودية الثيوقراطية. وفي عهد طالبان اعتمدت امارة افغانستان الاسلامية ، كما بات اسمها الجديد ، النموذج السعودي للشرطة الدينية والموقف السعودي في اضطهاد المرأة والشيعة ، وحتى النمط السعودي في تفجير المواقع الدينية الأثرية للحؤول دون عبادة الاصنام. وفي بنغلاديش ايضا تُستهدف تماثيل المسيحيين والهندوس والبوذيين بالتدمير. وبنغلاديش بلد ديمقراطي - على الورق. لنتعلم من بوذا الذي نُسفت تماثيله في وادي باميان: الجلوس بصمت والصلاة من اجل السلام لن يكونا كافيين لمكافحة اسلام الصحراء.

لقد وصلت الموجة الوهابية العالمية الى شواطئ اميركا الشمالية. أو لا تذكرون المعركة التي خضتُها لدخول مكتبة جامعي الفقيرة في ريتشموند ببريتش كولومبيا؟ وإذا بالطالبات يواجهن القيود نفسها في مدرسة اسلامية كبرى تمارس نشاطها في الولايات المتحدة بتمويل من السعوديين. أما التوجيه بالامتناع عن عقد صداقات مع اليهود فمن الواضح اني لم أكن الوحيدة فيه. وثمة مقطع مُقتَبَس مباشرة من كتاب مدرسي باللغة العربية وزعه السعوديون على التلاميذ المسلمين في اميركا يقول ان الكفار والوثنيين وأمثالهم من الآخرين يجب ان يكونوا مكروهين ومحتقرين....ويجب ان نبتعد عنهم ونقيم الحواجز بيننا وبينهم (٢٥).

الاسلام الصحراوي أخذ يجور على جنوب شرق آسيا ايضا. وكان الاسلام وصل الى تلك المنطقة عن طريق التجارة لا الفتوحات العسكرية. ولعل هذا هو السبب في ان مسلمي جنوب شرق آسيا تعايشوا تقليديا مع البوذيين والتاويين والمسيحيين والسيخ والهندوس والكونفوشيين ـ والنساء. ولكن الأموال القادمة من الشرق الاوسط أخذت تُحدث تغييرا متزايدا في هذا المشهد الذي كان سمة الوضع في ماليزيا واندونيسيا. وراحت القوانين والحريات ايضا تتحول. ففي عام ١٩٩٦ على سبيل المثال ، اعتقلت الشرطة ثلاث مسلمات شاركن في مسابقة ملكة جمال ماليزيا. ولم تكن عائلات الفتيات الثلاث سمعت بالفتوى الصادرة ضد مشاركة المسلمات في مثل هذه المسابقات. وعندما عرف اولياء الفتيات بالفتوى لم يصدِّقوا آذانهم لأن مثل هذا التحريم يتنافى وتقاليد بلد حقق نهضته على اساس التسامح.

ومنذ منتصف التسعينات قررت غالبية الولايات الماليزية تطبيق الشريعة التي تُجَرِّم الاختلاف مع أي فتوى. فهم إذا لم يصطادوك بتهمة التجاوز ، سيوقعون بك في شراك التخاذل. وان "قلة ضئيلة من المسلمين لديهم الشجاعة على وضع الاسلام موضع تساؤل أو تحديه أو حتى مناقشته في العلن" ، كما تكتب زينة انور ، عضو الشبكة النسوية الماليزية ، "شقيقات في الاسلام". وتضيف ان هؤلاء بُرمجوا اجتماعيا "للقبول بأن المراجع الدينية هي خير العارفين" (٢٦). زينة ، من الجهة الاخرى ، تريد ان تكون "امرأة ، مسلمة صالحة ، وتسمع موسيقى الفرقة بي ـ ٥٢ عاليا. فأنا لا أرى أي تناقض في ذلك" (٢٧).

الاسلام كما تفهمه زينة انور ليس هو الذي حمل مسابقة ملكة جمال العالم على الرحيل من نيجيريا في عام ٢٠٠٢. فتلك الفضيحة في الوقت الذي يكون من السهل الضحك عليها ، اسفرت عن موجة من احراق الكنائس

واوقعت اكثر من ٥٠ قتيلا. وقد تساءلتُ مع نفسي إن كان اسلام الصحراء بلغ هذا المدى من الانتشار. هل كان الانهجاس بلحظة التأسيس وراء إذكاء اعمال الشغب التي اندلعت ضد المسابقة؟ فان ملكة جمال نيجيريا فازت بمسابقة العام السابق مانحة بلدها حق تنظيم مسابقة العام التالي. وكان مسلمو نيجيريا يعرفون ذلك من البداية. ولم تبدأ اعمال الشغب إلا بعدما ألمح صحافي الى ان النبي محمد كان سيُستثار بالمسابقة ويتخذ الفائزة فيها زوجة له. تعليق وقح ولكن هل يستحق القتل والغوغائية؟ عندما يتمذهب الأشخاص على الاعتقاد بأن كل جانب من لحظة التأسيس مقدس يكون مصير العقيدة ان تغدو جامدة ، هشة ، لاانسانية. وفي هذه الحالة بلغت من اللاانسانية مبلغا حتى ان المتظاهرين المسلمين احرقوا مكاتب الجريدة المذنبة رغم اعتذارها ثلاث مرات. مسألة اخرى ذات اهمية: ان الصحافي الذي تطاول على النبي محمد كان قبل اسابيع من ذلك عنَّف المسيحيين واستحضر سيرة المسيح في سياق تعنيفه لهم. ولم يمت احد (٢٨).

ان الاعتداد بلحظة التأسيس يقتلنا ـ ويقتل كثيرين غيرنا أيضا. يا ناس ، مَنْ يهتم بمدى اقترابنا من لحظة التأسيس؟ فالهوس بهذه اللحظة ـ بل مجرد الالتفات اليها ـ مرض فتاك. وقد حان الوقت لأخذ العبرة من كمال اتاتورك. ففي عام ١٩٢٥ اعلن ، "اني ارفض رفضا قاطعا الاعتقاد أنه اليوم ، بحضور العلم والمعرفة والحضارة حضورا نيرا من كل النواحي ، هناك....رجال متخلفون حتى انهم يطلبون رخاءهم المادي والأخلاقي من توجيه هذا الشيخ أو ذاك" (٢٩). وقد أثبت اتاتورك انه صاحب رؤية بإبتعاده ، على وجه التحديد ، عن أي علاقة بلحظة تأسيس الاسلام. وهو لم يمارس لعبة النقاء لأنها لا يمكن ان تسفر إلا عن فائز واحد هو الملتحي الذي يختزل كل شيء الى ما سبق أن قيل وشوهِد وجُرِّب. وكان اتاتورك يعلم أن أي مجتمع لكي ينمو عليه ان يتيح امكان

ظهور فائزين عدة في ميادين عدة.

وقد تمخض رفضه لحظة التأسيس عن انبثاق الديمقراطية في تركيا. وهي رغم انكشافها لنزوات الجيش وتقصيرها في طائفة من المضامير الاخرى ، تبقى أكثر الديمقراطيات نضوجا في العالم الاسلامي. والمسلمون المؤمنون الذين يشاركون في حياتها السياسية يمكن ان يكونوا فائزين ايضا ـ ففي نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٢ انتخب الاتراك حزبا اسلاميا ليحكمهم. والآن الى نقطة اخرى لها مغزاها: ان شعبية الاسلاميين الاتراك لم تعتمد على معاداة السياسة الخارجية الاميركية أو التنديد باسرائيل ، بل تحققت بوعد توفير فرص العمل والقضاء على الفساد. واعرب الناخبون البحرينيون عن التفافهم حول هذه الاولويات تحديدا عندما توجهوا الى صناديق الاقتراع قبل شهر من ذلك ـ اول انتخابات في الخليج العربي تمكنت المرأة من الادلاء بصوتها فيها. وكان هؤلاء الناخبون يرون الى المستقبل لا الى الماضي فحسب (٣٠).

لو مُنحوا فرصة الكلام لقال كثير من المسلمين انهم لا يريدون الاستمرار في تكرار لحظة التأسيس. وهم يريدون قدْرا اقل من الطريق الذي قطعوه وقدرا اكبر من الطريق الذي ما زال يمتد امامهم. وعندما يهب الآباء الباكستانيون الغاضبون لمطادرة رجال الدين الذين يجندون ابناءهم للانخراط في نشاط اجرامي فان بالامكان تلمس لهفتهم على السير في الطريق الممتد امامهم (٣١). وعندما يصدر مسلمون اندونيسيون معتدلون كتابا بعنوان "الوجه الجديد للعلاقات بين الزوج والزوجة *The New Face of Husband-Wife Relations* محاولين التوفيق بين الاسلام وحقوق الانسان يكون واضحا ان مزيدا من المسافرين ، على قلتهم ، شرعوا في السير على الطريق الى امام (٣٢).

وعندما ينسحب المتشددون من برلمان ايران احتجاجا على نفوذ التجمعات الطلابية المطالبة بالاصلاح تعرف ان زخم المستقبل يزداد قوة. وعندا تنشر صحيفة "عرب نيوز" اليومية السعودية الناطقة بالانجليزية ، عمودا يسهب في وصف مدى تقدم الاسرائيليين اقتصاديا على العرب ، وعندما يصرخ هذا العمود ، "واجهوا الحقائق يا عرب" ، تعرف ان قبضة الكِعام الذي يكمم الأفواه تتراخى (٣٣) ، والصمت القَبَلي على وشك الانتهاء شأنه شأن الأوهام. وكما كتب وزير الخارجية الاردني مؤخرا في صحيفة نيوويرك تايمز فان "على القادة العرب ان يتخذوا أخيرا موقفا علنيا ضد التفجيرات الانتحارية" وفي الوقت نفسه جعل "الأنظمة السياسية والاقتصادية اكثر ديمقراطية" (٣٤).

وعندما يكتب صحافي لبناني ان الكرة في ملعب واشنطن لدعم "براعم الديمقراطية الغضة" التي تتفتح في الشرق الأوسط ، تعلم انه يدعو الى اصدار اعلان عالمي للاعتماد المتبادل (٣٥). وعندما ينضم مثقفون عرب الى وزارة الخارجية الاميركية في ادانة مسلسل تلفزيوني مصري معاد للسامية بصراحة ، تعرف ان للاعتماد المتبادّل فرصة طيبة. وكلما اشتد الضغط الدبلوماسي الذي يسلطه الغرب تعاظمت جرأة الأصوات الداخلية المطالبة بالتغيير.

يبدو لي ان الطريق الى امام يجب ان يواجه ثلاثة تحديات في وقت واحد ، الأول احياء الاقتصادات بتوظيف مواهب الجميع في العالم الاسلامي ، والثاني مكافحة جَدَب الصحراء باطلاق تأويلات متعددة للاسلام ، والثالث العمل مع الغرب لا ضده. وفي كل حالة يكون ما نقوضه هو القَبَلية البالية.

وهنا أكف عن أن اكون رافضة وأطلب تجنيدي في عملية اسمها "الاجتهاد".

هوامش الفصل السادس

١ ـ أنظر كلمتي في هذه المناسبة.

٢ ـ هذا ما يؤكده صديقي طارق فتاح الذي أمضى في الآونة الأخيرة بعض الوقت في باكستان وكان في احيان كثيرة يسمع مثل هذه الأقوال.

على الغرار نفسه يكتب طارق علي في كتابه *The Clashes of Fundamentalisms* "صراع الاصوليات": "التقيتُ كثيرا من اهلنا في مناطق مختلفة من العالم منذ ١١ سبتمبر (ايلول). وسؤال واحد يتكرر باستمرار: هل تعتقد نحن المسلمين اذكياء بما فيه الكفاية للقيام بذلك؟ وأنا دائما أُجيب ، "نعم". ثم اسأل مَنْ باعتقادهم المسؤول ، والجواب دائما هو اسرائيل". (ص ٣٠٥).

٣ ـ لقراءة مزيد من المواد عن هذه الموضوعة انظر

Shaikh, *Islam: The Arab National Liberation Movement* (Cardiff: Principality Publishers, 1995) and W. R. Clement, *Reforming the Prophet: The Quest for the Islamic Reformation* (Toronto: Insomniac Press, 2002)

٤ - Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: W. W. Norton, 2003), P. 145.

ملاحظ زكريا بأن المؤثرات العربية تحدِّد الاسلام الاندونيسي على نحو متزايد تؤكدها ترايسي دالبي

Tracy Dahlbi, “Indonesia: Living Dangerously,” *National Geographic*, March 2001

تكتب دالبي ، ان وردة حافظ وهي من كبار المدافعين عن فقراء المدن ،

"قالت لي ان عددا متزايدا من الموظفات اخترن الحجاب". والحقيقة ان الحجاب هو غطاء عربي للرأس يُباع للجماهير الاندونيسية (وبعض الصحافيين ، كما يبدو واضحا) على انه من مقومات الايمان الاسلامي.
انظر ايضا سايمون وينتشستر
Simon Winchester, *Krakatoa: The Day the World Exploded – August 27, 1888* (New York: HarperCollins, 2003)
يشير وينتشسر الى ان اندونيسيا "ادخلها العرب في الاسلام ، وهي ما زالت تتطلع الى الجزيرة العربية والعرب طلبا للارشاد الروحي" (ص ٣٢٦). وللاطلاع على مثال أخَّاذ يبين كيف تستطيع الجزيرة العربية ان تؤجج الحماسة الاصولية حتى عند الصوفيين المعروفين بصفاء هدوئهم ، انظر الصفحات ٣٣٠ ـ ٣٣٢.
٥ ـ في المقابلة التي اجريتُها في ٢ يوليو (تموز) ٢٠٠٣ مع الدكتور اياد سراج ، وهو محلل نفسي فلسطيني ومؤسس برنامج للصحة العقلية في غزة ، اشار الى القبيلة على وجه التحديد بوصفها مشكلة كبيرة في الثقافة الفلسطينية. "ان هذه بنية قَبَليَّة يُعدُّ الاختلاف فيها خيانة. لم نتوصل بعد الى حال من المواطنة في البلدان العربية يكون الأشخاص معها متساوين امام القانون. وهذا أمر خطير للغاية". المصدر: مقابلة مع الدكتور اياد سراج ، ٢ يوليو (تموز) ، ٢٠٠٣.

للاطلاع على فيديو كليب يظهر فيه الدكتور سراج وهو يثير هذه المسألة انقر هنا.
٦ ـ جابر عصفور
Jaber Asfour, “Osama bin Laden: Financier of Intolerant Desert Islam,” *New Perspectives Quarterly*, Winter 2002, p. 1 of online version. Download at

www.digitalnpq.org
٧ ـ يشير بعض المعلقين الى ان الخليفة الرابع علي بن ابي طالب دعا الرجال المسلمين الى الحذر من شرور النساء وان يكونوا متيقظين حتى تجاه النساء اللواتي يُقال انهن صالحات ، وعدم طاعتهن حتى في ما هو خير لكي لا يستدرجن الرجال الى ما هو شر. ويُفترَض انه اطلق هذا التحذير بعد معركة الجمل التي تتمثل المفارقة في ان عائشة زوجة الرسول هي التي قادتها.

٨ ـ مقابلة مع تسليمة نسرين ، تورنتو ، ٢٨ اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٢. [انظر النص الكامل].

٩ ـ القرآن ، ٢: ١١٥.

في مكان آخر يقول القرآن ان على المسلمين ان يتوجهوا صوب مكة عند الصلاة. أفي هذا تناقض؟ إذا لم يكن ثمة تناقض ـ إذا كانت الآية المكية هي الأصوب من الآية الاخرى ـ فما السبب في ذلك؟

١٠ ـ الملا المقصود هو موسى الصدر. انظر امير طاهري

Amir Taheri, “The Freedom to go Topless,” *Wall Street Journal*, December 6, 2006.

هذا هو ليس الشكل الوحيد من اشكال الاستعمار العربي الذي لاحظه الايرانيون. ففي كتابها الفكاهي الراقي

Persepolis: The Story of a Childhood (New York: Vintage, 2003)

توضح الفنانة مرجانة ساترابي رفض الكثير من الايرانيين لـ"الغزو العربي" (ص ص ٧ ، ٧٩)

١١ - Ja’far Subhani, *The Message* (City unknown: Islamic Seminary, 1984), p. 41.

يتباهى مؤلف الكتاب قائلا ان "من السمات المثيرة لهذا الكتاب انه

متحرر كليا من الهرطقات والقصص الملفقة التي فبركتها مصالح خاصة" (ص ١٨). وهذا سبب وجيه لأن نلاحظ ان عنوان احد فصول هذا الكتاب هو "مخططات اليهود الخطرة" الذي يفضح وجود "برنامج اسرائيلي" لترويج الخرافات والقصص التي من "تلفيق اليهود..." (ص ١٧٩). هكذا نقهر "عصر الجاهلية".

١٢ - V. S. Naipaul, “Our Universal Civilzation,” *The Writer and the World: Essays* (New York and Toronto: Knopf, 2002), p. 508.

١٣ ـ الكلام المنسوب الى الكندي مترجم عن الانجليزية من كتاب David C. Lindberg, *Theories of Vision from Al-Kindi to Kepler* (Chicago University Press, 1976), p. 18.

١٤ ـ محمد ايوب خان في مراجعته لكتاب "اين حدث الخطأ" *What Went Wrong* www.islamonline.net, June 16, 2002.

١٥ ـ مراد ولفريد هوفمان Murad Wilfried Hoffman, *Islam: The Alternative* (Reading, UK: Garnet, 1993), p. 32.

١٦ ـ الأميرة هي تاج السلطانة ويكتب برنارد لويس ان الاميرة التي درست الأدب الفرنس والأدب الفارسي في البلاط الملكي "اصبحت تدرك بحدة الفارق في وصع المرأة في الغرب ووضعها في بلاد فارس. وقد شجبت في كتاباتها التي غالبيتها من المذكرات وبعض القصائد ، ما أُخضت له مواطناتها من عبودية وبؤس". انظر *What Went Wrong? Western Impact and Middle East response* (Oxford, New York: Oxford University Press, 2002), p. 95.

١٧ - Karen Armstrong, A question of faith (review of Richard Fletcher’s *The Cross and the Crescent*), *The*

Guardian, March 1, 2003, p. 3 of online version.
١٨ ـ الشيخ جمال ، كبير علماء مكة ، كما ينقل عنه برنارد لويس في كتابه *What Went Wrong?* P. 92.
١٩ ـ عارف افندي ، كبير مفتي اسطنبول ، كما ينقل عنه برنارد لويس ، المصدر السابق ، ص ٩٣.
٢٠ - Richard Behar, "Pakistan: A Kidnapped Nation," *Fortune*, April 29, 2002, p. 3 of online version.
وفي يونيو (حزيران) ٢٠٠٣ اعلن مركز بيو للابحاث The Pew Research Center for the People and the Press نتائج استطلاع الرأي الذي شمل ٤٤ دولة. وتوصل الى "ان اغلبيات قوية في السلطة الفلسطينية واندونيسيا والاردن ـ وتقريبا النصف في المغرب ـ تقول ان لديها علىالأقل بعض الثقة بأن يفعل اسامة بن لادن "الشيء الصحيح في ما يتعلق بالشؤون الدولية". ويقول ٧١ في المائة تماما من الفلسطينيين ان لديهم ثقة باسامة بن لادن في هذا الشأن ـ متخطيا حتى شعبية ياسر عرفات! انظر الاستطلاع على الانترنت Views of a Changing World 2003 في الموقع hppt://people-press.org.

٢١ ـ الدكتور علي هـ. اليامي ، شهادة امام الكونغرس الاميركي ، ٤ يونيو (حزيران) ، ٢٠٠٢ ، ص ٢ من الملاحظات المنطوقة.
٢٢ ـ يعتقد الشيخ محمد صالح المجاهد ان الشيعة يهود. ومؤخرا اصدر هذا الملا ـ نفسه الذي حذر من الافراط في الضحك ـ فتوى ضد الشيعة. انه على الأقل يرتقي الى مستوى رؤيته لإسلام لا مكان فيه للفرح.
٢٣ـ علي اليامي ، شهادة امام الكونغرس الاميركي ، ٤ يونيو (حزيران) ٢٠٠٢ ، ص ١ من الملاحظات المنطوقة.
٢٤ - Nicholas Kristof, "Watch What You Say," *New*

York Times, June 21, 2001.

٢٥ - Dr. Abdulla Al-Tarekee, *A Muslim's Relations with Non-Muslis, Enmity omr Friendship*, p. 28

طبع هذا الكتاب معهد العلوم الاسلامية والعربية في اميركا الذي يوجد مقره في فايرفاكس بولاية فرجينيا. لمزيد من المعلومات انظر الوثيقة الموسومة "السعوديون ينشرون لغة الكرهية في الولايات المتحدة" Saudis Spread Hate Speech in U.A. الصادرة عن المعهد السعودي ومؤسسة الدفاع عن الديمقراطية ، ٩ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢.

٢٦ ـ زينة انور

Zainah Anwar, "Modern and Moderate, Islam," *Asiaweek*, September 16, 1997, p. 34.

٢٧ ـ زينة انور كما ينقل عنها انتوني سبايث

Anthony Spaeth, "Trouble in Purdah," *Time International*, April 8, p. 2 of online version.

٢٨ ـ يكتب الداعية الكندي لحقوق الانسان كين ويوا Ken Wiwa "ان السيدة دانيال انتقدت في مقالة في الصحيفة بتاريخ ٧ سبتمبر (ايلول) الكنائس المسيحية بسبب "غضها الطرف" عن الانحطاط الاخلاقي والاجتماعي في البلد". وكتبت انه "إذا عاد المسيح ماذا سيقول لهؤلاء الذين يدَّعون اعتناق اسمه؟" انظر

, "Jihad versus Miss World," *Globe and Mail* November 30, 2002, p. 2 of online version.

٢٩ ـ كمال اتاتورك كما ينقل عنه ديفيد ريمنك

David Remnick, "The Experiment: Will Turkey be model for Islamic Democracy?" *New Yorker*, November 18, 2002, p. 51.

٣٠ ـ انظر من بين مصادر اخرى

Patrick Graham, “Troubled Turkey goes to polls,” *National Post*, November 2, 2002 and Tom Friedman, There is Hope,” *New York Times*, October 27, 2002.

٣١ ـ خالد دوران

Khalid Duran,”Muslim world at a crossroads,” *Washington Times*, January 4, 2002.

٣٢ ـ انظر مراجعة للكتاب بقلم كريم رسلان

Karim Raslan,”Indonesia’s moderate Islamists,” *Foreign Policy*, July-August 2002, Issue 131, pp. 77-79.

٣٣ ـ محمد عمر العمودي

Mohammed Omar Al-Amoudi,”Face the facts, Arabs,” *Arab News*, May 29, 2002.

٣٤ ـ مروان معشر

Marwan Muasher, “A Path to Arab Democracy,” *New York Times*, April 26, 2003.

٣٥ ـ سعد مهيو

Saad Mehio, “A specter is haunting the Middle East democracy,” *The (Beirut) Daily Star Online*, October 1, 2002.

الفصل السابع

عملية اسمها الاجتهاد

قد يبدو من المثير للسخرية ان شخصا ليس لاهوتيا أو سياسيا أو دبلوماسيا (باي معنى للكلمة) تكون لديه الجرأة للتعليق على ما يمكن عمله من اجل اصلاح الاسلام. وكنتُ في بعض الأحيان أشعر بالصلف لمجرد التكفير في ذلك ـ ولكن فقط في بعض الأحيان. فأنا لا اكترث بـ"معرفة مكاني". ولا بد ان يأتي التغيير من مكان ما ، فلِمَ لا يأتي من مسلمة شابة لا مصلحة لديها ، عاطفية أو خلافها ، في الدفاع عن الوضع القائم؟

اليكم ما حققتُه حتى الآن. يُبدي المسلمون باستمرار قُدرَة على الحط من قَدْرِ المرأة والأقليات الدينية. فهل تمكن معالجة هاتين العلتين في وقت واحد؟ لقد أمسكتُ بما يكفي من حبال النجاة التي يمدها القرآن والتاريخ للاعتقاد بإمكان الاصلاح. وعلى سبيل المثال ، ان لدى المسلمين علاقة غرام تمتد قرونا مع التجارة ، الشيء الذي اثار اهتمامي لسببين. أولا ، ان التجارة أسهمت دائما في تزييت العجلات نحو اقامة علاقات طيبة بين المسلمين واليهود والمسيحيين. ثانيا ، ليس ثمة في القرآن ما يحرِّم على المرأة دخول عالم المال والأعمال. خلاصتي الأولية من ذلك ان الرأسمالية الواعية دينيا والمدفوعة نسويا قد تكون السبيل الى الشروع بإصلاح الاسلام اصلاحا ليبراليا. ولكن هل خَطَر ببال احد سواي أن فكرة كهذه يمكن ان تتكلل بالنجاح؟

ذات عصر يوم في اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٢ شاهدتُ حلقة من برنامج اوبرا وينفراي*The Oprah Winfrey Show* تناولت الوضع

المزري للمرأة المسلمة في انحاء العالم. وأعطت اوبرا فرصة الكلام على الهواء لإمرأة واجهت الموت رجما واخرى تَشوَّه وجهها برشقة حامض حارق ، وثالثة قالت انها في مجتمعها تساوي قيمة حذاء ـ لا أكثر ولا أقل. تساءلت اوبرا بصراحة امام الكاميرا ، "ماذا بإمكاننا ان نفعل؟"

انتقل المخرج الى زينب صلبي ، احدى ضيفات اوبرا في برنامجها. قالت صلبي ، "أعرفُ امرأة افغانية قالت انها بمائة دولار تستطيع ان تفتح مشروعا يحقق عائدا...." وتوجهت صلبي التي ترأس مجموعة عالمية للدفاع عن حقوق المرأة ، الى مشاهدي التلفزيون وهي تتحدث عن المرأة الافغانية صاحبة المبادرة التجارية مناشدة اياهم ان يساعدوها "على تعلم القراءة والكتابة لكي لا توقّع اوراق [التنازل عن حضانة الاطفال] ، ساعدوها على ان تعرف حقوقها لتتمكن من ان تقول لزوجها أو شيخ [قبيلتها]: "لا ، لا تستطيعون ان تفعلوا بي ذلك". ساعدوها على خوض معركتها!" (١) واقترحت صلبي على النساء في الغرب ان يستثمرن في حصافة النساء التجارية في العالم الاسلامي. واشارت الى انه عندما يكون لدى المرأة مال كسبته بعرق جبينها فالأرجح انها ستبدأ بانجاز المهمة الحاسمة متمثلة في مراجعة وضعها.

عندي ، كانت هذه اللحظة التلفزيونية صرخة استغاثة ولكنها كانت ايضا تتعلق بالكرامة ـ وفي النهاية بالاصلاح الديني. وإذ تبدأ المرأة المسلمة بالمراجعة فانها تتحول من كونها رمزا لـ"شرف" العائلة الى كائنا بشريا له كرامته.

"الشرف" يقتضي التضحية بفرديتِكِ لصون سمعة زوجِكِ ووالدِكِ واخوتِكِ ومكانتهم ومستقبلهم. ولكن أن تضعي هذا الوجود موضع تساؤل فان هذا يعني انكِ لستِ مُلكا مشاعا. انكِ ملك نفسكِ تعملين بإسمِكِ

وتعبرين عن افكارِكِ وتنقلينها بصوتِكِ. فأنتِ عندك كرامتِكِ. وأجمل ما في الأمر ان النبي محمد أراد دائما للمسلمين ـ أن نتجاوز القبيلة بنوازعها الانعزالية العصابية على نحو وبائي ، النوازع ذاتها التي احالت الجزيرة العربية في القرن السابع ارضا يبابا من اللامساواة والعداوات والعنف. وبإطلاق مواهب المرأة في العمل التجاري نستطيع نحن في القرن الحادي والعشرين أن نسهم في تحويل الشرف الى كرامة وبذلك اصلاح الطريقة التي يُمارَس بها الاسلام.

ان دعم سيدات الأعمال سيكون الهدف الأول لعملية "الاجتهاد" التي ستكون حملة لاطلاق عملية التغيير في الاسلام.

لا أرشح نفسي زعيمة لهذه الحملة التي لم تر النور حتى الآن. وفي الحقيقة لا اعتقد بأن يكون هناك قائد واحد لها. فان تحرير العالم الاسلامي من قيوده مجهود طموح يتطلب طائفة من الحلفاء بينهم غربيون ، حتى وإن اقتصر الهدف على توجيه ضربة الى النزعة القَبَلية. وتتطلب الآمال المعقودة رؤية عابرة للثقافات. و١١ سبتمبر (ايلول) تذكير ساطع بما يمكن ان يحدث عندما نبتعد عن مشاكل "الآخرين" ، حيث العبرة ان للمواطَنَة العالمية الصالحة منافعها الكبيرة للأمن الداخلي. وشاء الغربيون أم أبوا فما عليهم إلا قبول هذه الحقيقة.

ونحن علينا ان نقبلها **الآن** لأن المسلمين العرب يتوالدون بوتائر متسارعة. فان حوالي ٦٠ في المائة من سكان الدول العربية هم دون سن العشرين بالمقارنة مع ٢٩ في المائة في اميركا (٢). وكثير من المسلمين العرب يحملون شهادات جامعية لكن غالبيتهم بلا أمل في ايجاد فرصة عمل. وانتم تعرفون ان هذا ليس بالنبأ الطيب. فالعاطلون غالبا ما ينساقون وراء منظمات راديكالية تعِد بطعام مجاني ونشاط ذي هدف

ومتنفَّس للغضب. جيل واحد آخر والمتوقع ان ان تزداد اعداد المسلمين العرب بنسبة ٤٠ في المائة ـ من نحو ٣٠٠ مليون اليوم الى ٤٣٠ مليونا في عام ٢٠٢٠ (٣). وكل مَنْ يحرم هؤلاء الشباب من المشاركة في الحياة الاقتصادية والمدنية سيحرِّض على درجة من الفوضى قادرة على اجتياح مناطق شاسعة من الكوكب. ان الانفجار السكاني العربي مشكلة الغرب بقدر ما هو مشكلة الشرق الاوسط.

قال نصف الشبان العرب الذين استطلعت الامم المتحدة آراءهم في عام ٢٠٠٢ انهم يريدون الهجرة ، وانه يتطلعون بشوق الى الغرب (٤) ، وبشوق كاف حتى ان استراليا قامت في عام ٢٠٠٠ بحملة تثبيط في الشرق الاوسط وآسيا الوسطى لتحذير مَنْ يعتزمون ان يصيروا مهاجرين غير شرعيين من خطر التماسيح والأفاعي والحشرات التي يمكن ان يلتقوا بها عند وصولهم (٥). ولكن الغرب ، للأسباب نفسها ، لا يستطيع التقدم من دون مهاجرين. فان سكان الاتحاد الاوروبي واميركا واليابان وكندا واستراليا يشيخون بوتائر متسارعة ولا يتمتعون إلا بقدر ضئيل من الخصوبة. وهذه المناطق تحتاج الى عمال جدد للحفاظ على مستوى النزعة الاستهلاكية عاليا وتدفق الضرائب متواصلا على خزينة الدولة وتمويل الخدمات الاجتماعية مكفولا ـ لا سيما للمسنين. باختصار ، ان الغرب بحاجة الى المسلمين.

ما لا يحتاجه الغرب هو المزيد من أضرَاب محمد عطا. فان الطالب في هامبورغ والخاطف في ١١ سبتمبر (ايلول) هضم القرآن الذي أُطعِم اياه بالملعقة كما كان يهضم درسا في البرمجة الالكترونية. ورغم تربيته العلمانية باعتدال وشهادته الجامعية المصرية بالهندسة ومواصلة دراساته العليا في المانيا بدا محمد عطا عاجزا (أو غير راغب) عن وضع مفسِّري الاسلام الاوتوقراطيين موضع تساؤل.

مع ذلك يحتاج الغرب الى مسلمين يطرحون الاسئلة الصعبة ، وخوض "عملية الاجتهاد" في الخارج سيكون ذا اهمية مركزية لهذا الهدف. فلماذا الانتظار حتى يظهر ملايين آخرين من المسلمين على نقاط التفتيش الاسترالية والبريطانية والالمانية والشمال اميركية؟ أو ليست هي مسألة امنية ابتدائية أن المسلمين المتجهين الى هذه الاماكن يصلون اليها وهم اصلا يعرفون ان بالامكان ممارسة الاسلام بطرق تستكمل التعددية لا تخنقها؟ كيف ، إذاً ، نحقق الاصلاح في العالم الاسلامي ـ من دون ان نصبح مستعمرين ثقافيين؟

تبدأ "عملية الاجتهاد" بتمكين المزيد من النساء المسلمات من ولوج عالم المال والأعمال. ومنذ الثمانيات يؤكد محمد يونس ان العالم الاسلامي قادر حقا على انجاب سيدات اعمال بوضع الحد الأدنى من تمويل المشاريع التجارية في متناولهن. وكان يونس ، وهو اقتصادي من بنغلاديش ، أسس مصرف "غرامين". و"غرامين" تعني "قرية" باللغة البنغالية ، ومصرفه يقوم بتسليف مبالغ بسيطة للاشخاص الذين يعدُّهم المقرضون مخاطر مالية يجب تفاديها في كل الاحوال ـ وخاصة الفلاحين المعدمين الذين غالبيتهم من النساء. وبحسب المعطيات التي نشرتها المنظمة المعنية بقضايا التنمية
Nonsense Guide to International Development فان "٣١ مليون شخص ، ثلاثة ارباعهم من النساء وثلثاهم يُصنَّفون في عداد "افقر الفقراء" ، تلقوا قروضا بسيطة في اكثر من ٤٠ بلدا" منذ افتتاح مصرف "غرامين" (٦). وقام المصرف بتمويل مشاريع تصنع كل شيء ، من مستحضرات التجميل والشموع الى الخبز والمظلات والشبكات الواقية من البعوض ، وحتى الهواتف المحمولة. وماذا عن نسبة سداد هذه القروض؟ ٩٨ في المائة يعود الفضل في جزء كبير منها الى ضغوط السكان الذين يمارسونها على اقرانهم وامثالهم من السكان في القرى

للحفاظ على سمعة الجماعة ناصعة. وهذه طريقة أسلم لتوظيف النوازع القَبَلية مما اعتادت عليه غالبية النساء المسلمات. قارنوا هذه النسبة في سداد القروض بنسبة الـ ١٠ في المائة هي نسبة استرداد القروض التي يتباهى بها مصرف التنمية الصناعية البنغلاديشي ، وهو مصرف لا يتعامل إلا مع الأشخاص الذي لديهم ممتلكات (٧). لا مجال للمقارنة.

وعليه ثمة فكرة يمكن ايرادُها هنا: تصوروا لو ان الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي وكندا واستراليا واليابان وغيرها من البلدان الغنية الحليفة شنت "عملية اجتهاد" بتحويل جزء من ميزانيات امنها القومي الى قروض لتمويل مشاريع صغيرة تُمنح الى نساء مبدعات في سائر انحاء العالم الاسلامي.

ان هذا لا يُعدُّ امبريالية ، والقروض لن تُفرَض على احد بل ستُمنح للنساء اللواتي يرين حاجة مطلوبة في مجتمعاتهن ويعتقدن انهن قادرات على تلبيتها بالشطارة. وكمثال على ذلك خذوا القروية التي اوحت ليونس بتأسيس مصرف "غرامين". فهي إذ كانت تعمل في حياكة اعواد الخيزران لصنع مقاعد منها ، أبلغت يونس انها لكي تبتاع موادها الأولية عليها ان تقترض المال من التاجر الذي يشتري منتوجها النهائي. ولأنها تعتمد على قروضه كان بمقدوره ان يحدد السعر الذي يدفعه عن مقاعدها ليكون ما تحققه من دخل يومي قرشين فقط. ما هو الامبريالي في تزويد النساء بموارد لانهاء عبوديتهن؟ تذكَّروا ايضا ان التقليد الاسلامي زاخر بالاصوات التجارية (٨). ويقول احد الامثال القديمة "حج مقبول وذنب مغفور وبيع موفور". فالتجارة والدين متداخلان حتى ان هناك نظرية في القرآن تحدد متى يمكن للدائنين ان يطالبوا بما اقرضوه ـ فقط عندما يكون المستلف حقق ثروة جديدة ، وليس لحظة واحدة قبل ذلك.

من حسن الحظ ان للقروض البسيطة تاريخا يؤكد سدادها عموما ، واميركا على الاقل ، تعرف ذلك. ففي كل سنة على امتداد اعوام من رئاسة بيل كلنتون كانت الولايات المتحدة تقدم مليوني قرض من هذه القروض الى البلدان المحتاجة. وكما كتب كلنتون في احد اعداد مجلة نيو بيرسبكتفز كورترلي *New Perspectives Quarterly* عام ٢٠٠٠ فان "هذين المليوني قرض ينبغي ان تزداد الى خمسين مليونا" في سائر انحاء العالم (٩). وكلنتون يدعم قيمة هذه القروض الصغيرة لأنه رأى فاعليتها بين اصحاب محلات التجميل في ارياف ولاية اركنسو ومربي الماشية الافارقة على السواء. وفي منتصف الثمانينات وظف كلنتون جهود يونس لاقامة مشروع على غرار مصرف "غرامين" سماه "صندوق النيات الحسنة" Good Faith Fund هدفه مساعدة سكان منطقة باين بلافس في اركنسو. وبعد سنوات قليلة وبالاستناد الى مئات من قصص النجاح الاخرى ، صدر كتاب بعنوان

Give Us Credit: How Muhammed Yunus' Micro-Lending Revolution Empowered Women from Bangladesh to Chcago.

آها ، ولكن هل تريد البلدان الاسلامية ايا من ذلك ، أم ان كلنتون يشتط في ما يفترضه؟ يبدو انه تحادث مع ارناندو دي سوتو ، وهو اقتصادي رُشح لجائزة نوبل لفت انتباه اندونيسيا وباكستان والجزائر ومصر (١٠). وأبدت حكوماتها اهتماما بإختصاص دي سوتو ، وهو احياء "رأس المال الميت" في الاقتصادات الراكدة. ومن الامثلة على رأس المال الميت مثالان هما النشاطات التجارية التي تُمارَس في السوق السوداء بعيدا عن سلطة القانون وقوانين الضريبة ، والممتلكات المأهولة بأشخاص ليس لهم حق واضح في قطع الاراضي التي يعيشون عليها. وفي كلا الحالتين يتعلق الأمر بإصول وموجودات لا يستطيع الفقراء تسجيلها باسمهم قانونيا لأن مثل هذه العملية تتطلب الكثير من الاجراءات الرسمية البيروقراطية وتستهلك الكثير من الوقت والتكاليف. وقد اظهر

دي سوتو ان التخلص من الروتين الحكومي سيحرر طاقات الفئات الدنيا ويطلقها للقيام بشيء بناء حقا. إذ يمكن لمَن يسكنون في هذه الأراضي بصورة غير قانونية ان يحصلوا على ضمانات يقدمونها مقابل منحهم قروضا عقارية لبناء حياة اكثر استقرارا. ويمكن للنشاطات التجارية التي تتعامل بالنقد وحده ان تتوسع لتصبح شركات مشروعة تسهم بقيمة مضافة. وبذلك تستطيع الحكومات ان تجد مداخيل خاضعة للضريبة. ويربح الجميع ، لا سيما النساء والاطفال. فهم عادة الذين يبقون في البيت لحراسة الارض التي لا يملكون ما يثبت عائديتها لهم. والرجال يجب ان يتوجهوا الى العمل. ولكن عندما تكون الارض مسجَّلة تستطيع النساء بيع ما لديهن من بضاعة في السوق ، مثلا ، ويستطيع الاطفال ان يذهبوا الى المدارس. وبعدما طبقت بيرو افكار دي سوتو ارتفع عدد تلاميذ المدارس بنسبة ٢٦ في المائة (١١). ولا غرو ان عددا من الحكومات في البلدان الاسلامية اخذت الآن تدعو دي سوتو لاطلاعها على فكرة او فكرتين من افكاره ، وان ألف رجل حضروا للاستماع الى محاضرته في دبي. ولكن رسالته تجد صداها الايجابي خارج حدود المؤسسة الرسمية.

في صيف ٢٠٠٢ نشرت الامم المتحدة أول تقرير لها عن التنمية البشرية في البلدان العربية *Arab Human Development Report* . وحمَّل التقرير الذي تولى العرب انفسهم تنفيذ ابحاثه وصوغ نصه ، الحكومات العربية مسؤولية التفريط بطاقات نصف سكانها ، أي النساء. وفي الحقيقة ان "تمكين المرأة" كان واحدا من ثلاثة "نواقص" شخصها التقرير ، وكان النقصان الآخران في "المعرفة" و"الحرية". ويمكن لمعالجة النقص الأول ان توسع نطاق المعرفة والحرية. فان مساعدة المرأة على تحقيق استقلالها المالي جمعيا سيعزز محاولاتها التي كثيرا ما تكون سرية للتحرر من أُميتها. ولن يتعين على المرأة تصديق ما ينقله الرجل من وصايا إذا كان بمقدورها ان تتوصل الى استنتاجاتها هي عن

ما يتضمنه القرآن. كيف أعرف ان لدى المرأة مصلحة في النهوض بعملية التفسير لنفسها؟ ان افغانيات مسنات ، بعضهن لاجئات ، يتعلمن الآن في مدارس تديرها نساء اصغر سنا وكنَّ يديرنها سرا في زمن حكم طالبان. وقالت عجوز لزائرة اميركية موضحة لماذا تتعلم القراءة: "أريد ان اعرف إن كان صحيحا بحق ما يقول الملا انه موجود في القرآن" (١٢).

لنفترض ان هذه المرأة ، بوصفها سيدة اعمال ، تمتلك رصيدا احتياطيا. سيكون لديها في هذه الحالة سبب اضافي لتعلم القراءة. وفي آية نادرا ما يُشيعها الأئمة بين الطبقات المتوسطة والأدنى ، يجيز القرآن للمرأة ان تتفاوض حول عقد الزواج بما يستجيب لشروطها الشخصية. وتقول الآية ، "وإن امرأة خافت من بعْلِها نشوزا أو إعراضا فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صُلحا والصلح خير وأُحضِرَت الأنفُسُ الشُح وأن تُحسِنوا وتتَّقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا" (١٣). واليوم يمكن لشروط المرأة الشخصية في الزواج ان تتضمن الآتي: "لا يجوز لزوجي ان يضع اصبعا عليَّ أو على اموالي ضد ارادتي. وإذا فعل سأعدُ ذلك "نشوزا أو إعراضا" وسيكون من حقي تطليقه". يا له من حافز لتحويل ذلك القرض من اجل تمويل مشروع بسيط الى نجاح حقيقي. ومَنْ يحاول الاستحواذ عليه سيواجَه بنص قرآني لا يستطيع دحضه وباتفاقية عُقدت قبل الزواج لا يمكن للقضاة الالتفاف عليها بسهولة.

سيجني الرجل فوائد مباشرة من "عملية الاجتهاد" لأن المبادرة الفردية على نطاق واسع في مجال المال والاعمال من شأنها ان تشجع الاستثمارات الاجنبية. ومن المؤكد أن يؤدي رفد المشاريع المحلية برؤوس اموال من الخارج الى تقليل الاعتماد على ايجاد فرص عمل في الجيش أو قوى الأمن او الجهاز البيروقراطي الحكومي ـ الغيتوات

الوظيفية الثلاثة التي يتكدس فيها كثير من الرجال المسلمين حاليا. ويدرك ريتشارد هاس ، مدير تخطيط السياسة في وزارة الخارجية الاميركية ، مدى ارتباط كرامة الرجل بكرامة المرأة. ففي ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٢ قال هاس امام حشد في واشنطن ان المجتمعات البطرياركية (الأبوية) التي تكون المرأة فيها خاضعة للرجل هي ايضا مجتمعات يكون فيها الرجال خاضعين لرجال آخرين (١٤). وما كان بمقدور غلوريا ستاينم ان تطلع بقول أحسن. فالاستثمار في سيدات الاعمال قد يكون خير فرصة امام الجميع لكسر الاحتكارات المؤسساتية التي تُثري رجال الدين ومموليهم على حساب بسطاء الناس.

ان "عملية الاجتهاد" تبدو عملية واعدة بوصفها مقاربة لتطبيق اسلام ليبرالي. ولكن الوعد يمكن ان يتعثر وفي النهاية ان يتعطل ما دامت مواثيق "حقوق الانسان" الاسلامية تخص الرجل بامتياز الانفاق على الأسرة ومسؤولية رعايتها حارمة المرأة من حق الكسب بعملها هي. ولكن يبقى عليّ الاعتقاد بأن الازدهار أو وعد الازدهار يمكن ان يهز الاجماع على ان الرجل يجب ان يكون هو المعيل. اسمحوا لي ان اوضح كيف يمكن للحاجة الى كسب الرزق ان تحفز على نشوء نمط جديد من التفكير.

سأبدأ بموضوعة تثير الأسى. في عام ١٩٩٧ قتل اسلاميون ٥٨ سائحا في الاقصر بصعيد مصر. وحدثت هذه المجزرة بعد سنوات من اعمال القتل بحدود أضيق ـ استهداف سياح بريطانيين هنا وبضعة المان هناك ، والاعتداء على سائح أو اثنين من تايوان. كانت مجزرة الأقصر القشة التي قصمت ظهر الجمل لأن قطاع السياحة المصري أُصيب بنزيف كلفه ملياري دولار نتيجة اعمال القتل هذه. وهنا انقلب موقف الرأي العام المصري ليقف ضد الارهابيين مؤيدا قانون الطوارئ المفروض منذ ١٦

عاما للجم المتشددين الدينيين بلا رحمة. ومما يؤسف له اعمق الأسف ان قانون الطوارئ علاه الصدأ حتى بات هراوة بيد الطامعين بالسلطة السياسية ولكن هذه ليست هي النقطة التي أُريد توصيلها ، بل الآتي: ما أن صار الارهاب يهدد الاقتصاد حتى صار المصريون يهددون الارهابيين.

عندما تتاح الفرص لتحسين نوعية الحياة للجميع من خلال اطلاق روح المبادرة التجارية عند النساء فان تغييرا يمكن ان يطرأ على اولويات البشر ـ من القَبَلية الى التجارة ، ومن شرف الزوج بوصفه المعيل الأوحد الى كرامة المعاملة المتساوية بين الرجل والمرأة. لعلي أُغالي في التفاؤل ولكن قطاع السياحة يمكن ان يفسِّر السبب في ظهور بوادر تعامل متكافئ بين الاسرائيليين والمصريين في سيناء. فان علاقات طيبة نسبيا تربط بين المسلمين واليهود هنا شاهدة على ان التجارة يمكن ، الى حد ما ، ان تصنع عقودا اجتماعية أكثر مرونة.

مع ذلك فأنا لا استهين بقدرات اولئك الذين يعتنقون اسلام الصحراء على المناورة والاستغلال. وهذا يعني ان مساعي الاصوليين لإيغار القلوب تتبدى بمعالمها الرئيسية في موقع على الانترنت عن وضع النساء في ظل القوانين الاسلامية Women Living Under Muslim Laws وهو شبكة تجمع ناشطين من اجل حقوق الانسان. يقول الموقع ان الاصوليين "استخدموا تكنولوجيا الاتصالات استخداما فاعلا للغاية...فان اشرطة كاسيت سمعية بسيطة زهيدة الكلفة تُسجَّل عليها مواعظ تتضمن شتائم ضد المرأة وضد قيم المساواة والاستقلال الذاتي التي يُفتَرَض انها قيم غربية ، وتحرِّض على العنف وفي الحالات المتطرفة حتى على قتل الخصوم ، أغرقت الشوارع والاسواق في عدة مجتمعات مسلمة. وتُذاع هذه الاشرطة على متن الحافلات العامة ومن

مكبرات الصوت المبثوثة في الجوامع وعلى الراديو" (١٥).

كما تُبَث على شاشة التلفزيون المتاح على نطاق واسع مثل قناة "المنار" اللبنانية المرتبطة بحزب الله والمرخص لها باجازة اصدرتها الحكومة اللبنانية منذ عام ١٩٩٧. والحقيقة ان مهمة قناة "المنار" ـ "تعزيز الدور الحضاري للأمة العربية والاسلامية" ـ تمضي الى دعم مهاجمة اليهود بوصف ذلك من تكتيكاتها المفضلة. ويحمل موقع القناة على الانترنت برنامجا عنوانه "انقلاب الصورة" يتناول التربية الاعلامية ، أو هكذا يبدو ، الى ان يخوض في تفاصيل الوصف المقدَّم عن البرنامج: يراقب برنامج "انقلاب الصورة" كل وسائل الاعلام السمعية ـ البصرية والصحافة الصهيونية الناطقة بالعبرية فاضحا بذلك حال الحرب العسكرية الصهيونية وحقائقها الخفية (١٦). يُضاف الى ذلك ان البرنامج من انتاج وتقديم "معتقل سابق في سجون اسرائيل". اسمعوا! على الاقل هناك حياة بعد التعذيب الصهيوني. وآخر مرة اطَّلعتُ على الموقع وعد بإضافة قسم للتسوق. من الواضح ان التجارة لا يمكن ان تكون الجبهة الوحيدة لمكافحة الاصوليين.

سيتعين ان يكون الاعلام خطا آخر من خطوط المجابهة في عملية "الاجتهاد". ولكن بدلا من سرد "قصة اميركا" على نحو أفضل ، الأمر الذي اثبت كونه خليطا متفجرا من الغرور والشطط ، ما رأيكم لو اخذ الغرب على عاتقه تمويل منافذ اعلامية تبث للمسلمين قصص سيدات اعمال مسلمات من مجتمعاتهم؟ يرأس ديفيد هوفمان ادارة انترنيوز نتورك Internews Network وهي منظمة غير ربحية تساعد وسائل الاعلام في انحاء العالم. ويشيد هوفمان بدعم اميركا لوسائل الاعلام المحلية في الاتحاد السوفياتي السابق. ولاحظ هوفمان في مجلة فورين افيرز *Foreign Affairs* بعددها لشهر مارس (آذار) ٢٠٠٢ انه

"عموما استفاد اكثر من ١٦٠٠ مذيع و٣٠ الف صحافي ومهني اعلامي من برامج التدريب والمعونة التقنية برعاية الولايات المتحدة. واثمرت هذه الجهود انبثاق اكثر من ١٢ شبكة تلفزيونية وطنية تصل الى ما يربو على ٢٠٠ مليون مشاهد. ونتيجة لذلك فان لدى مواطني كل مدينة من مدن الاتحاد السوفياتي السابق قنوات متنوعة يمكن الاختيار من بينها" (١٧).

ماذا لم تضافرت جهود ائتلاف غربي من المسلمين وغير المسلمين لتمكين النساء في العالم الاسلامي من امتلاك محطات تلفزيونية محلية وادارتها؟ ماذا لو قادت اوبرا وينفراي هذا الائتلاف؟ اوبرا تعرف الاحساس بالاغتراب ولا تسمح لصورة الضحية بشلها وهي ، قبل كل شيء ، تتخذ موقفا متحمسا لصالح تعليم المرأة والطفل. وحضور اوبرا ذاته سيكون صفعة قوية للرجال الذين يريدون الاستئثار بكل ما له قيمة في البلدان الاسلامية. وكما قال رجل ذكي لاوبرا خلال برنامجها عن المرأة المسلمة ، "شئتِ ام أبيتِ فانكِ تكونين عاملا مساعدا". اوبرا لم تمارِ في ذلك. وعلى اية حال فان اطباق استلام البث التلفزيوني الفضائي تنتشر في عالم الاسلام. وما فعلته المطبعة للاصلاح البروتستانتي ـ ارخاء الخناق على المعرفة ـ يمكن ان تفعله القنوات التلفزيونية غير التجارية للاسلام.

يمكن ان نبدأ بداية متواضعة بالوسائل المجرَّبة والحقيقية للبرامج الاذاعية. فأولا ، سيحمي الراديو هويات الأشخاص في السنوات الاولى الحرجة من عملية "الاجتهاد". إذ ليس كل واحد يريد ان يكون معروفا (ومستهدَفا) في الشوارع بوصفه الشخص الذي قال ان النبي محمد اعلن ان النساء شريكات الرجال لا خاضعات لهم. وبعض المسلمين لا يريدون ان يكونوا معروفين بتبادلهم الحكايات عن خديجة زوجة محمد الاولى

المحببة لديه ـ كانت تاجرة عصامية ثرية تكبره ١٥ سنة **وهي التي طلبت يده**. ويُقال ان محمدا ، حتى بعدما أسلم لمشيئة الله ، بنصيحة من خديجة أساسا ، استمر في اخذ مشورتها. هذه القصص قد تكون هذرا ، نتاج اساطير أو تكهنات أكثر منها وقائع من التاريخ. ولكني واثقة من اني لست وحدي بين المسلمين في التعطش الى سماع مفكرين احرار يناقشون بصراحة صدق هذه القصص ووجاهتها على الهواء. وتقول الدكتورة عائشة إمام ، وهي داعية من اجل حقوق الانسان في نيجيريا ، ان من الضروري ضرورة حاسمة ترويج نقاشات كهذه "ليكون عند الأشخاص الذين شعروا بعدم ارتياح بالغ من الطبيعة المحافظة لقوانين الشريعة الجديدة ، اساس يستطيعون ممارسة النقد المشروع بالاستناد اليه عوضا عن الشعور بعدم امتلاكهم ما يكفي لتمكينهم من الكلام" (١٨). بكلمات اخرى ، ان استقصاء الشكوك يمكن ان يعزز الثقة ، بما في ذلك ثقة سيدات الأعمال. والتعبير عن الشك يؤكد امكانية الوقوف بوجه القبيلة. وإذا تفادت أي مبادرة "اصلاحية" زرع الشك فانها ستكون شهادة بأن الاسلام دين لا لقساة القلوب فحسب بل ولخائري النفوس ايضا ـ اولئك الذين ليس لديهم الجرأة على التساؤل ولا المنافذ لممارسة التساؤل.

لماذا التوجه الى الاسلام اصلا؟ انه سؤال تطرحه تسليمة نسرين التي تؤمن ايمانا راسخا بأن الاصلاح لن ينطلق إلا عندما يتراجع الدين. وبقدر تعلق الأمر بها فان على المسلمين ان يستعيضوا عن القوانين الدينية بقوانين مدنية تفصل الجامع عن الدولة فصلا تاما. ولكن هل يتعين على البلدان المسلمة ان تحاكي البلدان اليهودية ـ المسيحية كيما تكون انسانية؟ اولئك الذين يجيبون بالايجاب لديهم تحدٍ ثانٍ عليهم مواجهته: الحقيقة هي ان الاسلام يشكل أحد اركان الهوية لملايين النساء. وفي الوقت الحاضر يمكن لإخراج الدين من المجال العام ان يشكل خطوة

أكثر من بعيدة عن الواقعية بل خطوة قد تكون ذات مردود معاكس ايضا.

لرفعت حسن ، برفيسورة الدراسات الدينية في جامعة لويسفيل ، خبرة مباشرة هنا. وهي توضح انه "لو سألتَ امرأة افغانية "هل تؤمنين بحقوق انسان كونية؟" لنظرت اليك نظرة خالية من أي تعبير. ولو سألتَها "هل تؤمنين بالله؟" لأجابت "نعم". ولو سألتَها "هل تعتقدين ان الله هذا يريد لك ان تتعرضي الى الضرب والتنكيل؟" لفهمت ذلك فورا وقالت ، "كلا" (١٩). فلنكن عمليين. هل نريد من النساء المسلمات ان يدافعن عن بعض حقوقهم الانسانية على اقل تقدير ، أو ، بحكم العيش في ظل قوانين لا دينية ، هل نريدهن ان يشعرن بكونهن مغتربات ، منبوذات ومغدورات؟

حتى النساء المتعلمات لا يتفقن بالضرورة مع علمانية نسرين الدوغمائية. وقد التقيتُ مؤخرا مسلمة شابة في مؤتمر دستوري في اوتاوا. وكانت هذه المسلمة التي تعمل محامية في وزارة العدل ، هاجرت الى الغرب لممارسة ديانتها ممارسة ذات معنى اكبر. وهذا يعني عندها ان يكون لديها خيار ارتداء الحجاب ـ خيار مكفول في اميركا الشمالية ولكنه مرفوض في وطنها تونس الذي منع التحجب في الاماكن العامة في اطار حملة من اجل "التحديث".

لقائي مع هذه المحامية دفعني الى التفكير في التوازن الذي تنطوي عليه اشاعة الديمقراطية في العالم الاسلامي. وهذا يكاد يكون مضادا لحدس العقل العلماني فتابعوا بانتباه ما اقول. ان هذه المحامية التي اعربت عن موقفها برأسها وليس فقط بقدميها عندما نزحت من بلدها ، اثبتت انه حتى بين المسلمين الشباب المتعلمين تبقى حرية التعبير عن العقيدة من الآمال

الكبيرة المعقودة على الديمقراطية. وقمع الاسلام من اجل "التقدم" هو اشبه بالطغيان. وعندما تفرض بلدان مثل تونس وتركيا اسوارا بين الحياة الروحية والعالم المادي ينتهي بها المطاف الى تشويه سمعة الديمقراطية العلمانية نفسها (٢٠). وحينذاك يستطيع الاصوليون ان يحتجوا قائلين ان الأجندة السياسية الحقيقية هي ليست الانفتاح بل "الغربنة". وهنا تكمن المعضلة: فالاصوليون يستغلون بمهارة احباطات الناس الذين ارتجَّت حياتهم بممارسات انظمة حكم ارادت تطبيق العلمانية. وكثيرا ما يسفر اجراء انتخابات في مثل هذه الأجواء عن تمثيل اوسع لقوى اسلام الصحراء. و"باي باي ايتها الديمقراطية".

قبل ان تكون للديمقراطية قدمان تقف عليهما في البلدان العربية المسلمة يتعين تعريف هذه البلدان على تنافس الافكار. وكما كنتُ أُجادل فان التفسيرات البديلة للاسلام يمكن ان تكون مقنعة حتى على المستوى الرمزي ذي الأهمية القصوى ، هذا إذا تمكنا من نشر التفسيرات البديلة ومناقشتها وابدائها واعادة ابدائها ـ واشاعتها.

اني اقدِّر اصرار تسليمة نسرين على ان العلمانية هي الأمل الوحيد. فهي لا تعتقد ان بالامكان اعادة توكيد قيمة الاسلام من دون تكريس مسحة التفوق الضارة فيه. وأنا اسمع ما تقول نسرين. ولهذا السبب استشرتُ علماء انثروبولوجيين وسوسيولوجيين ونفسيين ولاهوتيين وملحدين ـ أي نعم حتى هؤلاء ـ حول الطريقة التي يمكن للبشر ان يكبحوا بها نزوعنا الى الانتصار بدلا من التعايش. وفي اوائل عام ٢٠٠٢ حاولتُ القيام بتجربة. ففي مذكرة مزيفة الى ياسر عرفات نشرتها احدى الصحف القومية ، طرحتُ مقاربة لتقاسم الأرض تتيح للفلسطينيين المسلمين ان يحتفظوا بكرامتهم وهويتهم وعزتهم. وقد أشرتُ الى ان "الهجرة" كناية بنزوح النبي محمد الشهير من مكة الى المدينة ، تُترجَم الى "إبتغاء

الحماية بالاستقرار في موطن غير موطن المرء" (٢١). وكانت القبائل اليهودية عاشت زمنا طويلا في المدينة ولكن غالبيتها تقاسمت مناطقها مع النبي محمد وانصاره. وانا أُناشد ياسر ان يقرأ صفحة من التاريخ. ألن يكون من باب المعاملة بالمثل تقاسم فلسطين مع اليهود الذين هاجروا ، مثلهم مثل المسلمين الأوائل ، بحثا عن الحماية من التحامل الدموي ضدهم؟ حسبتُ اني في بداية الطريق نحو تحقيق اختراق.

في اليوم التالي ظهرت رسالة في الصحيفة من مسلم مرموق في تورنتو. كتب هذا المسلم ن "ان الهجرة تعني طلب الحماية بالاستيطان في مكان غير مكان المرء بدعوة من سكان المكان الجديد ، أي ليس بالقوة. والآنسة منجي أغفلت هذا الاشتراط الأخير لطرح محاجَّتها" (٢٢). وكان يشير الى ان بعض قبائل المدينة دعت النبي للتحكيم في نزاعاتها جاعلة المدينة مكانا مناسبا يتوجه اليه لدى هروبه من بطش مكة. وكان مقصده الأكثر مكرا ان العرب لم يدعوا اليهود الى العيش بينهم في فلسطين وبالتالي لا يمكن سحب مقارنة الهجرة على هذه الحالة.

في اليوم التالي على نشر هذه الرسالة رد يهودي على المسلم قائلا ، "لإولئك المسلمين الذين يعلنون انهم كانوا في المنطقة قبل اليهود يجب تذكريهم بأن ابراهيم وسارة كانا يعيشان في الخليل عندما توفيت سارة قبل زمن طويل على مجئ النبي محمد" (٢٣). وبطريقة أو اخرى فنحن جميعا لنا الحق ، اليس كذلك؟ وأنا أحسبُ نفسي على هذه الجماعة.

ولكن إذا كنتَ أنت على حق هل يتحتم ان أكون أنا على خطأ؟

طرحتُ هذا السؤال على ديفيد هارتمان ، وهو من اكبر حاخامات

اسرائيل. فأجاب بسؤال آخر. "هل أن حيويتي ، هل ان حياتي تهديد لحياتك؟" قبل ان استطيع الإجابة تبرع الحاخام هارتمان بها موضحا ، "يعني ، أنا أحبُ ان أسمع المسلمين يتلون الصلاة. فهي توقظني في الساعة الرابعة فجرا ولكن في سبيل التعددية سأتنازل عن نومي. وفي يوم الأحد تقرع أجراس الكنائس فأقول "حسنا ، واصل القرع يا هذا"" (٢٤).

وهنا فتحتُ عيني على شيء - ان الدين هو احد الاسباب وراء صمود اسرائيل بوصفها ديمقراطيةً متعددة الأديان وسط ديماغوغييها انفسهم وبحر من الانظمة الاستبدادية العربية. واليهودية ، بخلاف الاسلام والمسيحية ، لا تسعى الى هداية الآخرين لاعتناقها. وهي لا تدَّعي الكونية. وبحكم قوانينها ذاتها لا تستطيع التبشير بتعاليمها. والأرجح ان يميل المسلمون الى القول باستهجان ، "هذا لأن اليهود هم "الشعب المختار" والشعب المختار لا يحتاج الى ان يثبت جدارته. ومهما حدث ، سواء أطبقت السماء على الأرض أو حدث الطوفان فان خلاصهم مضمون في الجيب". أنا اعتبر ذلك سوء فهم مأساويا. فاليهود يعتقدون انهم شعب مختار ولكن ليس من اجل التمتع بالزبيب في الجنة. فهم مختارون ايضا لتحمل اعباء في هذه الدنيا ، ونيابة عن الانسانية جمعاء. وما إذا أثبت اليهود قدرتهم على تحمل هذه الأعباء بمسؤولية فان هذا سيقرر إن كانوا يستحقون الخلاص. وبدلا من ان يكون الخلاص مضمونا "في الجيب" فانه يكمن في التحلي بالمسؤولية. ولكن ما معنى ذلك؟ لا يسعني إلا نقل الاجماع بين يهود التيار السائد: ان تكون مسؤولا يعني ان تقاوم الغطرسة القَبَلية.

واليهود بوصفهم بشرا يحوِّلون الغطرسة احيانا الى فن رفيع - أو على الأقل الى فن هابط. فأنا اقرف من مجانين الضفة الغربية الذين يضيئون

مستوطناتهم المبنية على قمم التلال بمصابيح نيون على شكل نجمة داود. وأنا اشعر بالاشمئزاز من رفض حكومة شارون المتعنت اعتقال المجرمين الذين يقيمون مستوطنات غير شرعية. ولا ادَّعي الدفاع عن اولئك اليهود الذين يشعلون النار بأغصان قطعوها من اشجار زيتون سقاها الفلاحون العرب بعرقهم منذ عشرات السنين ، ويعتكفون في مدارس دينية حيث يُحظر عليهم دراسة مواضيع تمتد من علم الفلك الى الفلسفة التي ألهمت عبقرية ابن ميمون. ولكن ضعوا نصب اعينكم ان هؤلاء الأشخاص لا وزن لهم يُذكر في الديانة اليهودية العصرية. فهم يثيرون السخط ويتنامون عددا ولكنهم قطعا لا يشكلون التيار السائد.

اليهود الذين ينتمون الى التيار السائد ، بمن فيهم يهود بارزون ، يمضون احيانا ابعد من نداء المسؤولية ـ دون اعتراف منا نحن المسلمين. ففي اجتماع حاشد لتأييد اسرائيل في ابريل (نيسان) ٢٠٠٢ ، سلم بول وولفويتز ، نائب وزير الدفاع الاميركي ، غصن زيتون رمزيا الى الفلسطينيين. وولفويتز ، المعروف بكونه من الصقور المحافظين ، أقر بأن "فلسطينيين ابرياء ايضا يعانون ويموتون بأعداد كبيرة". سخر منه الحاضرون. ولكن ما الذي فعله ادغار أم. برونفمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي؟ كتب الى صحيفة نيويورك تايمز بتواضع جم. وقال "ان اولئك الذين زعقوا بازدراء ينبغي ان يستحوا وأن تُفتح اعينهم على مقطع من الهغَّادة [من قصص عيد الفصح عند اليهود]....حيث يوبخ الله الملائكة لهتافهم فرحا بغرق المصريين خلال ملاحقتهم بني اسرائيل الذين عبروا البحر الاحمر. وقال لهم الله ، "ان هؤلاء ايضا ابنائي" . والفلسطينيون يموتون في هذه الحرب الدائرة في الشرق الاوسط. فان عواطفي مع اسرائيل وشعبها بكل تأكيد ولكننا يجب ان ندرك جميعا ان الفلسطينيين ايضا شعب" (٢٥).

العهد نفسه للاعتراف بـ"الآخر" يمكّن كبير الحاخامات الارثوذكسيين اليهود في بريطانيا ، جونثان ساكس ، من الكتابة عن "كرامة الاختلاف". هل قلتُ الكتابة عنها؟ بل الأدق ان أقول تأليف كتاب عن الموضوع. وباسلوب ساكس النثري فان "الله يخلق الاختلاف. وبالتالي فاننا في "المختلِف" نلقى الله" (٢٦). وعند الحاخام ساكس فان "التحدي الديني الأسمى هو رؤية صورة الله في واحد ليس على صورتنا" (٢٧). اعترفُ بأن ساكس سحب البساط من تحت اقدام الحاخامات الارثوذكسيين المتطرفين وخاصة بقوله ان اليهودية لا تملك الكلمة الأخيرة بشأن الحقيقة. وكان ساكس اعاد النظر في بعض مواقفه تحت الضغط الذي مورس عليه. ولكن اعادة النظر لم تمتد الى كل مواقفه ، ليس الى المواقف القائلة بقدسية الاختلاف. وفي الحقيقة ان الحاخام ساكس يعمل منذ سنوات على تشجيع المسؤولية اليهودية تجاه "الآخر" محتفظا طوال الوقت بمقعده رئيسا ليهود بريطانيا الارثوذكسيين.

لماذا هذا الاستطراد عن الانسانية التي تتيحها الديانة اليهودية؟ لأنه في الوقت الذي اتوقع من عملية "الاجتهاد" ان تثير احاديث بين "اهل الكتاب" الثلاثة فان هذه الحوارات الثلاثية لن تسفر عن نتيجة إلا إذا كانت مدفوعة بالانفتاح التلمودي. ولا أعني التلمود نفسه بل الموقف الذي عبر عنه بكل بلاغة الحاخام هارتمان بقوله ان رب ابراهيم هو نفسه "رب المفاجأة والتجديد" ، أي رب لا يمكن التكهن بمشيئته.

أهذه فكرة ابشع من ان تُطاق عند غالبية المسلمين؟ انها فكرة اقترحها رئيس وزراء ماليزيا السابق. ففي مؤتمر اسلامي عالمي عقد عام ٢٠٠٢ في كوالالبمور زلَّ لسان مهاتير محمد الى القول بأن قيادة الاسلام لا يمكن بعد الآن ان تأتي من العرب لأن العرب ، بالحصيلة النهائية ، لا يعرفون كيف يخاطبون غير المسلمين ، ولكن المسلمين الاسيويين

يعرفون كيف يخاطبونهم ، كما ألمح (٢٨). المفارقة ان مهاتير كشف عن تعرضه هو للمؤثرات العربية بتحميل اليهود مسؤولية الازمة المالية في ماليزيا والوقوف موقف المتفرج من انتشار قوانين الشريعة في بلده. من حسن الحظ ان ماليزيا ليست مهاتير ولا اندونيسيا المجاورة ، اكبر البلدان الاسلامية سكانا في العالم ، حيث شجب ملايين عملية التفجير التي نفذها اسلاميون في منتجع بالي. والحقيقة انه كان دائما على شعوب جنوب شرق اسيا ان تمارس الاسلام في اوطان متعددة الاعراق (صينية وهندية وملاوية) ومتعددة الاديان (بوذية ومسيحية وهندوسية واسلامية).

الشيء نفسه يصح على شعوب آسيا الوسطى. ففي كازخستان وهي بلد ذو غالبية مسلمة اقتُطِع من الاتحاد السوفياتي السابق ويحكمه نظام سلطوي ، تتعايش نحو ١٠٠ جماعة عرقية. وهناك ما زالت العلمانية باقية والصوفية المتسامحة منتعشة. وفيها توافد اليهود مؤخرا لحضور مؤتمر استضافته الحكومة ـ مؤتمر اختتم اعماله ببيان مشترك بين اليهود والمسلمين من اجل السلام. وهناك هنأت الصحيفة الرسمية الناطقة بالانجليزية الأزواج بمناسبة يوم الحب (٢٩). فنحن لم نعد بين كثبان الرمل السعودية. وإذا كان قلب الاسلام اقوى من نظام القيم السائد في صحراء الجزيرة العربية ، واقوى منه على نحو مستدام ، فان للمسلمين الآسيويين فرصة البرهنة على ذلك بمواصلة محادثتهم مع "رب المفاجأة والتجديد".

لدي اشتراط آخر بشأن الحوار بين الأديان. فايا يكن المشاركون ، يمكن لمثل هذه المناظرات ان تقع ضحية تزييف واحتيال. خذوا قضية محمد سيد طنطاوي ، شيخ الأزهر ، وما ادراك ما الأزهر بسمعته التي لا تُضاهى. فان فريد زكريا يصف الأزهر بأنه "اهم مركز لاسلام التيار

السائد في العالم العربي" (٣٠). والى جانب كون طنطاوي المسؤول الاول في الاسلام السائد فهو ايضا راعي "منتدى الديانات الثلاث" الذي يتخذ من بريطانيا مقرا له. والمنتدى منظمة هدفها مساعدة المسيحيين واليهود والمسلمين على تحقيق التفاهم المتبادل بينهم. يبدو الأمر لطيفا ولكن دعونا نجلوا الخطابية وننبش ما تحت السطح. ففي موعظة في ابريل (نيسان) ٢٠٠٢ ترجمها معهد الابحاث الاعلامية في الشرق الاوسط وصف طنطاوي اليهود بأنهم "اعداء الله وابناء الخنازير والقرود" (٣١). وفي مؤتمر عقد عام ١٩٩٩ حول الطاقة النووية في مصر حض الشيخ المسلمين على "امتلاك اسلحة نووية ردا على التهديد الاسرائيلي" وقطع عهدا بأنه "إذا كانت لدى اسرائيل اسلحة نووية ستكون اول المهزومين لأنها تعيش في عالم لا خوف فيه من الموت" (٣٢).

هذه الاقوال ينبغي ان لا يُستهان بها كنباح بلا انياب من رجل اوصله المستنقع الفلسطيني الى الجنون. فحتى عندما كانت عملية السلام لم تزل على قيد الحياة اطلق طنطاوي تعليقات مماثلة. وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٩٨ اجرت قناة "الجزيرة" مقابلة مع الشيخ الذي كان قد اجتمع مؤخرا بكبير حاخامات اسرائيل في لقاء بالقاهرة اثار زوبعة في الصحافة المصرية. وتساءل مقدم "الجزيرة" إن كانت هناك فائدة من مثل هذه اللقاءات.

نعق طنطاوي مؤكدا فائدة مثل هذه اللقاءات واشار الى انه هاجم الحاخام واثبت له ان الاسلام هو دين الحق....وباعتقاده ان كل من يرفض اللقاء مع العدو ليصفعه في وجهه ، جبان طالما ان في مثل هذا اللقاء ما يخدم الاسلام (٣٣).

أهذه هي نظرة شيخنا ذي الكف المتحرقة شوقا لتوجيه الصفعات ، الى رعايته لمنتدى الديانات الثلاث؟ باعتبارها فرصة لإنزال اللطمات بمزيد من اليهود؟ أم ان مثل هذا الموقف يُراد به اسماع الآذان العربية فقط؟ لستُ متأكدة. فبعد الاجابة عن سؤال أول مني قطع "منتدى الديانات الثلاث" خط الاتصالات عندما سألتُ لماذا يُقبل طنطاوي صاحب اللسان المسموم راعيا للمنتدى (٣٤). وايا يكن من امر فان رب طنطاوي ليس رب التجديد بل رب الخداع. وأنا من بين آخرين ، لستُ مسيحية بما فيه الكفاية كي "أُدير الخد الآخر". وعلى مَنْ يُريدون اصلاح الاسلام ان يخوضوا كفاحا مع الخداع لتحقيق شيء ما في الواقع. وهذا يتطلب المضي ابعد من الحوار بين الاديان.

استطيع ان اتخيل عالما يسوده "العمل المباشر" بين الاديان. وعلى رأس القائمة في هذا العمل هو ضرورة اجراء مناظرة لا مهادنة فيها حول العربية السعودية ، بؤرة الخداع. وينبغي ان تجري هذه المناظرة في الجامعات حيث يصطف طلاب واساتذة في طوابير بانتظار دورهم لتشريح اسرائيل ـ ولكنهم يسمحون للسعوديين بالافلات من خلال كلامهم المعسول بلسان مزدوج. فان "التجمع العالمي للشباب المسلم" ، وهو منظمة ذات تمويل سعودي ، يوزع كراسات في جامعات مختلفة في اميركا الشمالية. ويتغنى واحد من هذه المنشورات عنوانه "حقوق الانسان في الاسلام" بكل ما تبيحه الدولة الاسلامية مشيرا الى انه لمجرد انك تستطيع "التمتع بحق الاحتجاج على الطغيان" فان من حقك ان تفعل ذلك. ويشيد الكراس بالحريات الاربع عشرة المتاحة مثل "الحماية ضد الاعتقال الاعتباطي". ولكن إذا كنتَ مستهدَفا عن سابق اصرار لأنك مسلم شيعي فأنت في هذه الحالة "لم تُعتقل بصورة اعتباطية" ، اليس كذلك؟ فان العربية السعودية ، كما سبق أن بينتُ ، تضطهد المسلمين الشيعة بلا وازع من ضمير.

لنستطلع حرية اخرى من الحريات التي يحتفي بها الكراس ـ "المساواة امام القانون". ولكن إذا كان القانون نفسه يبيح التمييز على اساس العقيدة أو التكوين البيولوجي فان هذا هو ما يُحدِّد "المساواة". وهكذا هي الحال في العربية السعودية حيث يحظر القانون على المرأة ادارة أي مشروع تجاري تملكه وحيث المرأة شخص قاصر ـ ما يعني انه حتى إذا اعلنت الرياض ، بقدرة قادر ، منح حق التصويت لسائر البالغين السعوديين فان هذا الحق سيبقى حكرا على الرجل. وأخيرا اقرأوا ما يقوله "التجمع العالمي للشباب المسلم" نفسه عن المرأة: "لا يجوز اضطهاد المرأة ، و....يُحتَرَم شرف المرأة وعفتها في كل الاحوال". لحظة رجاء. ان الهوس بالشرف هو اضطهاد بذاته ولذاته. وما نقرأه في الحقيقة هو اعتداء على الكرامة يبرر نفسه بنفسه. وهذه الأحابيل تُمارَس تحت عنوان "حرية الضمير والمعتقد" وكذلك "حماية المشاعر الدينية" ـ وهما حريتان أُخريان يشهرهما التجمع العالمي للشباب المسلم ويُشهِّر بهما اسلام الصحراء. اما الطلاب والاساتذة الذين يعتبرون انفسهم مفكرين نقديين لأنهم يستطيعون مواجهة الصهاينة فان عندي لهم تحديا: ان يواجهوا ممثلي السعودية الذين يُشهد لهم بإتقان المنطق المغلق بإحكام.

للنفوس الأشد صلابة بين المسيحيين واليهود والمسلمين من طلاب الجامعة ، يمكن ان يعني العمل المباشر بين الأديان "حَجًّا ابراهيميا" الى مكة. فان ابراهيم لم يكن الجد الأعلى لكل هذه الاديان فحسب بل كان ، على نحو لائق ، النبي الذي قام (مع ابنه اسماعيل ، على ما يُعتَقَد) بتجديد الكعبة ـ ذلك المكعب الأسود الذي يدور حوله قسم كبير من مناسك الحج. فهنا يُقال ان النبي محمد حطم اصنام مكة الوثنية ولكنه انقذ الصليب من الانقاض. أتقولون ان المسلمين وحدهم الذين يجوز لهم الصلاة في الكعبة؟ فمَنْ هو المسلم؟ لقد استرقيتُ السمع على محادثة بين الاديان عبر شبكة الانترنت مؤخرا ، واكتشفتُ وجود انفتاح على هذا

السؤال. وقال مشارك في هذه الدردشة يُدعى عاصم لآخر يُعرَف باسم ماتكابي ، "رغم انك ، بوصفك يهوديا ، لستَ مسلما بمعنى ممارسة شعائر الاسلام كنمط حياة نظامي ، فاني اعتبرك مسلما بمعنى تسليم نفسك لله ورغبتك في طاعته. لذا فان الفكرة القائلة اني اقرب الى اليهودية وانتَ اقرب الى الاسلام نظرا لايماننا بإلاله الواحد الذي أنزل وحيه على ابراهيم ، قد لا تكون فكرة بعيدة كل هذا البعد عن اصابة الهدف!" (٣٥) مثل هذه النقاشات التي سيوحي بها حج ابراهيمي الى مكة ، يمكن ان تضفي روحا كونية على مكة ـ عولمة تتبرك بها القدس وروما وجنيف (الرحم الروحي للبروتستانتية). وإذا كانت لمكة خصوصية بحيث لا يُمكن ان تُطعَّم بوجود غير مسلمين فليس لدي إلا سؤال واحد: لماذا؟

ايا يكن رد فعل السعوديين على الحج الابراهيمي سيتعين عليهم في النهاية ان يكونوا صادقين. فالموافقة على هذا الحج وفي الوقت نفسه الابقاء على اجراءات التأشيرة ـ وسيلة مفضَّلة تتيح للمملكة ان تُبقي الستار مُسدَلا على نفسها ـ لن يكون موقفا مقنعا. وسيُطالَبون بالتخلي عن مخاتلتهم ، المرة تلو الاخرى. وسيتولى المطالبة طلاب جامعيون شحذوا حاستهم في فرز الترهات من الكلام بالمناظرات التي خاضوها في الحرم الجامعي حول العربية السعودية.

سأقول ما هو أعظم: في تخطيط الحج الابراهيمي ينبغي ان يتواصل طلاب اميركا الشمالية مع الطلاب الايرانيين. فان نسبة مدهشة من الشباب الايراني متمردون فكريون. وبدلا من ان تكون لافتاتهم بحرا من الشعارات التي تهتف بسقوط اميركا فانها غالبا ما تهتف بسقوط "الاحتكار" (الذي يعنون به احتكار رجال الدين للأخلاق). ويستمع الشباب الايرانيون الى الاذاعة الاسرائيلية توخيا للتوازن ، ويجعلهم

توافر شبكة الانترنت في متناولهم بمعدلات عالية ، اكثر تواصلا مع العالم الخارجي من المسلمين الآخرين (٣٦). كما انهم ، كونهم شيعة ، لا يشعرون بالحاجة الى اسباغ الشرعية على الأسياد السنة الذين يحكمون العربية السعودية. ولا يعني هذا ان آيات الله الايرانيين لا يتعاطون الارهاب من النمط السعودي. فان كثيرين منهم يتعاطونه ، وحزب الله يشكرهم ، كما استطيع القول بثقة. ولكنهم آيات الله الذين يعلن طلاب ايران عصيانا عارما غير عنيف في الغالب ضدهم.

في الحقيقة ان صديقة في التاسعة والعشرين في ايران هي التي بعثت لي بالبريد الالكتروني رسالة مارتن لوثر كنغ من "سجن في برمنغهام" ولم اكن قد قرأتُ الرسالة من قبل. وقد كتبت صديقتي مقدمة لها بهذه المشاعر: عندما يتردد اصحابك ذوو العقول المتفتحة في اميركا الشمالية في فضح العربية السعودية خشية الاساءة الى المسلمين ، ذكّريهم بليبراليي برمنغهام الذين ارادوا من مارتن لوثر كنغ ان يكف عن اثارة توتر لا داعي له في مدينتهم. فقال لهم كنغ ، "لا بد ان اعترف بأني لستُ خائفا من كلمة "توتر". فقد عارضتُ بشدة التوتر العنيف ولكن هناك نوعا من التوتر البنَّاء اللاعنفي ، اللازم للنمو. ومثلما شعر سقراط بضرورة ايجاد توتر في العقل ليتمكن الأفراد من النهوض محطمين عبودية الخرافات وانصاف الحقائق ، الى العالم الحر للتحليل الخلاق والتقويم الموضوعي فاننا يجب ان نرى الحاجة الى مشاكسين لا عنفيين لخلق توتر في المجتمع من النوع الذي يساعد الرجال على النهوض من الأعماق السحيقة للتحامل والعنصرية الى الذرى السامية للتفاهم والأخوة" (٣٧). وأنا اتضرع ان يكون لعملية "الاجتهاد" مثل هذا التأثير.

انظرو ، إذاً ، الى البعض من قنابل عملية "الاجتهاد" ـ اسئلة اساسية

جريئة سيتعين طرحها علنا:

· في المناظرات حول المرأة: هل يمكن أن يُستخدَم إله عتادا ضد نصف عباده ، ان يكون محبوبا بحق؟ هل الحب مهم اصلا؟
· في المناقشات حول الاعلام: هل يمكن لتوفر الكتب ان يلجم الآلهة الخاوية ممثلة بالنزعة المادية والتلفزيون الهابط؟ لماذا لم يترجم العالم العربي بأسره خلال الألف عام الماضية ، إلا بقدر ما تترجمه اسبانيا كل عام؟ هل السبب انه كلما زاد اطلاع الناس على مفاهيم اجنبية زاد احتمال قيامهم بمراجعة مفاهيمهم ذاتها؟ ومن الجهة الاخرى لماذا لا تُغرق مصر الاسواق الغربية بالترجمات الانجليزية لعمل جابر عصفور "ضد التعصب" *Against Fanaticism* أو عمل علي سالم "رحلة الى اسرائيل" ، وكل منهما نموذج لامكانية التسامح بين المسلمين؟ هل رفض الناشرون الغربيون كلهم هذه المخطوطات؟
· في المحادثات مع العربية السعودية حول "الحج الابراهيمي": لماذا يمنع السعوديون ممارسة الشعائر المسيحية في اراضيهم في الوقت الذي يمولون مركزا للتفاهم بين المسلمين والمسيحيين في واشنطن؟ مَنْ على وجه التحديد بحاجة الى هذا "التفاهم"؟ ما هي الدروس التي طبقها السعوديون في بلدهم من هذا المركز؟

أنا لا أقول ان مثل هذه القنابل ستمحو الاوتوقراطيات بموجة كاسحة واحدة. ما اراهن عليه هو نتيجة تراكمية طويلة الأمد. فعندما تتعرض تقصيرات الحكومة وتردي الخدمات العامة بسبب نقص التمويل الى انتقاد دافعات الضرائب اللواتي يتوقعن محاسبة لقاء ما يدفعنه من جيوبهن ، وعندما يُفضَح التمييز المتعمد ضد المرأة والاقليات الدينية وتشكيلة متنوعة من "الآخرين" بالشجاعة المتزايدة على طرح الاسئلة بصوت عال ، فان من المحتم ان يكون المسلمون أفضل استعدادا للانتقال الى الديمقراطية.

اني اتضرع من اجل النتيجة النهائية: انه بمرور الزمن ستقوم عملية

"الاجتهاد" بتشجيع المجتمع الدولي على تشخيص مصادر الابادة الجماعية ووقفها ـ مصادر قد تكون مرتبطة بالدين (٣٨). والى ان نجري تحقيقا شاملا لن نعرف الى أي مدى غرس المذهب الوهابي بذور العنف العرقي أو الطائفي في السودان المحتل عربيا حيث مكث اسامة بن لادن قبل ان ينتقل الى افغانستان. ولكننها نعرف ما فيه الكفاية للتحري. فان مليوني انسان قُتلوا في السودان ، كما يذكر تشارلس جايكوبس من المجموعة الاميركية المناهضة للعبودية American Anti-Slavery Group . "وشُرِّد عشرات الالوف ، وجرى تجويع ١٠٠الف....بالاكراه" (٣٩). لماذا تستمر هذه الفظائع؟

حتى الآن ما من وكالة دولية طُهِّرت من مواطن الخلل فيها ومُدَّت بضياء العدالة ليمكن تفادي اقتراف جرائم كراهية على نطاق هائل. ونظرا الى ان الامم المتحدة تعمل بروتوكوليا أكثر من عملها مبدئيا ، مع معاملة الأنظمة القمعية بوصفها مكافئة اخلاقيا للأنظمة الديمقراطية ، هل تعمد الامم المتحدة الى احراج العربية السعودية باجراء تحقيق في الوهابية؟ أشك في ذلك. اما المحكمة الجزائية الدولية التي شُكلت حديثا فالمقرر لها ان تكون انفعالية لا فاعلة. وعلى اية حال فابتداء من ربيع ٢٠٠٣ واجهت المحكمة ٢٠٠ شكوى رُفعت على جرائم ضد الانسانية. لماذا يجب ان تُعيِّن المحكمة مدعيا عاما للتحقيق في الوهابية في وقت لم توقع الولايات المتحدة ولا العربية السعودية على الانضمام الى المحكمة؟

فرصتنا الأحسن للحؤول دون وقوع اعمال قتل مدفوعة ببواعث دينية قد تكون الآن بتطبيق النظام القضائي في بلداننا نحن. وفي وقت كتابة هذه السطور قاضت المحاكم الجزائية البريطانية بنجاح رجل دين درس في السعودية واقام في لندن ، بتهمة التحريض على قتل اليهود والهندوس

والاميركيين (٤٠). وهذه اول ادانة من نوعها في انجلترا وينبغي ان لا تكون الأخيرة.

أعترف بأن اللجوء الى المحاكم يوحي بعض الاحيان بالنحيب نحيبا لا يقل فتكا عن قوة السلاح. ففي فرنسا ، كما ذكرتُ في مطلع هذه الرسالة ، حاولت اربع مجموعات مسلمة مقاضاة الكاتب ميشال اولبيك لأنه صرح لمجلة ادبية ان الاسلام اكثر الأديان "غباء". وقال اولبيك: "عندما تقرأ القرآن تنفض يدك يأسا. الكتاب المقدس ، على الأقل ، جميل لأن لدى اليهود موهبة ادبية سامية" (٤١). وكان من دواعي ارتياح كل ذي رأي بأي شيء ان القاضي اسقط هذه الدعوى في النهاية. الصحافية الايطالية اوريانا فالاتشي خاضت معركة مماثلة من اجل حرية التعبير بعد نشر مقالها اللاذع "الغضب والكبرياء" *The Rage and the Pirde* . وفيه تحمل بشدة على المهاجرين المسلمين ("انهم يتناسلون بكثرة") وعلى مضيفيهم الاوروبيين ("الايطاليون كفوا عن انجاب الاطفال ، يا لهم من بلهاء") (٤٢). ولم تسفر القضية المرفوعة ضدها عن نتيجة.

أنا باقتراحي توجيه اتهامات جنائية ضد السعوديين لا أفعل سوى محاكاة اولئك الذين أرادوا تكميم اولبيك وفالاتشي ونسرين ورشدي ، اليس كذلك؟ اعوذ بالله. فان تحدي السعوديين لا يمت بصلة الى إسكات الاسلام بل السماح لأكثر من لون بأن يزدهر في الصحراء. وتحديهم يمكن ان يساعد على الحؤول دون وقوع جولة جديدة من اعمال الابادة الجماعية في معرض الدفاع عن امن كثير من الدول. فكيف يجوز تفسير القرآن ـ وكيف لا يجوز تفسيره ـ اصبح شغل الجميع.

سيكون هناك فرع من عملية "الاجتهاد" لاميركا والدول الاوروبية

الكبرى. وفي مجرى تنفيذ العملية معا سيقطع الجانبان شوطا بعيدا نحو ردم الفجوة بينهما. وقد اعلن رئيس الوزراء الفرنسي السابق ليونيل جوسبان في تصريح مدوٍ: "نعم لاقتصاد السوق ، لا لمجتمع السوق" (٤٣). وستعمل عملية "الاجتهاد" من اجل تحقيق التوازن بين السوق والمجتمع. ومن خلال تشريف المسلمات بوصفهن سيدات اعمال متواضعة ستؤيد حملة "الاجتهاد" المبدأ الاخلاقي لمناهضي رأس المال الكبير متبديا في شعار "كل ما هو صغير جميل". وستركز عملية "الاجتهاد" على بسطاء الناس المحليين لا على الشركات الصناعية العملاقة لتميز بذلك بين الحاجة والجشع. وهي ستُعطي المسلمين مستقبلا يستحق العيش من اجله لا ماضيا يستحق الموت في سبيله. ألن تكون هذه الدوافع والأهداف مبعث اطمئنان لليساريين الأشداء في الاتحاد الاوروبي؟ فالحقيقة الماثلة في ان العديد منهم يكرهون الرأسمالية ينبغي ان لا تكون ذات شأن. ولماذا ندع الارستوقراطيين الايديولوجيين يسرقون الفرصة من المسلمين؟ أليست مثل هذه الأنانية بمثابة استعمار جديد يضع رغبات نخبة بعيدة فوق مصلحة الملايين؟ ان البنك الدولي صاحب البنية المترهلة ، يبدو متجاوبا مع اهداف عملية "الاجتهاد" وقال نيكولاس ستيرن عندما كان كبير اقتصاديي البنك ، "ان المساواة المتزايدة بين الجنسين ذات اهمية مركزية لفكرة التنمية بوصفها حرية". وحين تشارك المرأة "تبين الدلائل ان التعليم والصحة والانتاجية والقروض والحكومة تعمل كلها على نحو افضل" (٤٤). باختصار يكون هناك فساد أقل.

النساء في العالم الاسلامي ، الحكومات الغربية ، المسلمون ذوو التفكير الحر ، اليهود والمسيحيون من ذوي الارادة الطيبة ، الطلاب ، الناشطون الاجتماعيون ، البنك الدولي ، اوبرا: يمكن لعملية "الاجتهاد" ان تكون متعددة الأوجه ، ولكنها كي تتواصل بلا هوادة ستحتاج الى موارد

اميركا. وهنا يأتي دور السياسة في عالم النفط.

كثيرون منا يحلفون بأغلظ الأيمان ان واشنطن تميِّع مطالبتها بالديمقراطية في العالم العربي الاسلامي لا لشيء سوى ضمان تدفق امدادات النفط. وحتى إذا كان هذا صحيحا ، ليس من الضروري ان يحدّ النفط من دعم الولايات المتحدة لعملية "الاجتهاد" ، طالما تستمر اميركا في الحصول من خارج الشرق الاوسط على كميات من الطاقة اكبر بكثير مما تحصل عليه من الشرق الاوسط ، ومادامت هناك وفرة من مصادر الوقود البديلة. السياسة الواقعية في عالم النفط تنطوي على اكثر من ذلك بطبيعة الحال. فهناك المأزق المتمثل بسياسة التعامل مع الرياض.

ما أعنيه ان واشنطن في ورطة مزدوجة. فمن جهة سيلغي قطعُ عائدات النفط السعودية بصورة درامية سلطة الملك متجسدة في كونه ولي نعمة رجال الدين وصاحب الفضل في غيرها من الامتيازات الاخرى. ولو انهار هذا الحلف بين ليلة وضحاها لأعطي الملالي الراديكاليون الذين اصلا يزبدون ويرعدون ضد الغرب ، انتصارا خطيرا ـ وذريعة لأن يصيروا حتى اشد راديكالية. ومن الجهة الثانية يتعين على واشنطن ان تسقي الصحراء بالافكار والنشاط الاقتصادي ، حتى إذا فعلت ذلك شيئا فشيئا. والتقاعس عن العمل ليس من شأنه إلا ان يهدد الاميركيين وسواهم من غير المعروفين مستقبلا وذلك مع نضوب ما لدى العربية السعودية من احتياطات نفطية ، وهي احتياطات آخذة في النضوب قطعا. فمنذ عقد الثمانينات هبط دخل الفرد في المملكة من ٢٣ الف دولار الى سبعة آلاف دولار سنويا. ولقاء تمتعهم بامتياز غسل الصحون في العربية السعودية يدفع المسلمون البنغلاديشيون الى الرياض الفي دولار (اربعة اخماس رواتب السنة الاولى) لرفد خزينة الحكومة المتناقصة (٤٥). ويرفض

الكثير من الشباب السعوديين مزاولة الأعمال اليدوية ولكن مهاراتهم الفكرية لا تواكب مسيرة التقدم لأن مدارسهم ما زالت اسيرة الدراسات الدينية. والمجتمع السعودي المعتمد اعتمادا مفتعلا على المحروقات المستخرَجَة من طبقات الأرض المتحجرة لم يعد بمقدوره ان يبقى متحجرا. ولا اميركا قادرة على تحمل ذلك التحجر. وعملية "الاجتهاد" ما ان تنطلق ستتمكن من تنويع الاقتصاد السعودي بما يحقق للجميع مكاسب في الكرامة والأمن والاستقلالية. ويشمل هذا المرأة التي ستهز مبادرتها المطلوبة في عالم المال والاعمال ، اسلام الصحراء من جذوره.

ليس من الضروري ان تكون العربية السعودية نقطة البداية لتنفيذ عملية "الاجتهاد" بل عراق ما بعد الحرب يمكن ان يكون نقطة البداية بإسم التحرك تدريجيا. فتاريخيا بلغ العراقيون اعلى المستويات من حيث معدلات التعليم في الشرق الاوسط. وتاريخيا ايضا ، كانت هذه المنطقة تتقبل مشاركة المرأة في المجتمع. ولكن إعداد دستور واجراء انتخابات لن يكونا كافيين لاستنهاض الكبرياء الثقافي والاقتصادي سلميا. وخلق الثروة يتسم بأهمية حاسمة لاستدامة أي ديمقراطية جديدة لأن طبقة من المستثمرين في الاقتصاد تستطيع الدولة ان تجني ضرائب من عائد نشاطها ، وحدها التي ، بدورها ، ستفرض على الدولة ان تبني مؤسسات تستجيب لما يريده الشعب (٤٦).

ليكن شيء آخر ماثلا في الاذهان: ان الوباء النازي تفشى في البداية عن طريق الانتخابات الحرة. واستغل ادولف هتلر شعور الالمان بالمهانة الذي تفاقم بالخراب الاقتصادي بعد الحرب. ونحن لا نستطيع ان نسمح للعراق ببلوغ هذه الحال ، التي من السهولة ان يبلغها. ليس المهم ان حزب البعث اتخذ من الحزب النازي نموذجا له. فأنا اكثر انهجاسا

بصورة فوتوغرافية نُشرت على الصحفة الاولى من جريدة "دون" *DAWN* الباكستانية خلال مرحلة التحضير لعملية "حرية العراق". اظهرت الصورة مجموعة من الفلسطينيات المبتسمات وهنَّ يمزقن ارنبا ابيض اربا اربا في اطار تدريباتهن للدفاع عن العراق والاسلام ، والدم يقطر من اياديهن بالمعنى الحرفي للكلمة (٤٧). ما يمكن للمرأة ان تحققه سيكون بناء اكثر بما لا يُقاس لو قُدِّر لعملية "الاجتهاد" ان ترى النور.

في هذه الأثناء هناك فئة اخرى في موقع يتيح لها ان تؤكد الامكانات المتاحة لاصلاح الاسلام: انها المسلمون في الغرب. فنحن لدينا ترف التمتع بالحريات المدنية وخاصة حرية التعبير ، لتغيير الميول القَبَلية. فهل نستخدم الرافعة التي تمثلها هذه الحرية؟ هل يتحدانا ما يكفي من غير المسلمين ان نفعل ذلك؟

هوامش الفصل السابع

١ - Zainab Salbi, “Oprah,” October 7, 2002 ويمكن الاطلاع على المنظمة التي تنتمي اليها صلبي Women for Women International في الموقع www.womenforwomen.org

٢ - Eric Boehlert, “The Arab baby boom,” www.salon.com, October 18, 2001.

٣ - *United Nations Arab Human Development Report 2002* (New York: UNDP/RBAS, 2002), p. 37.
تقرير التنمية البشرية في العالم العربي الصادر عن الامم المتحدة عام ٢٠٠٢.

٤ ـ المصدر السابق The Arab World: Let the Numbers Speak, p.3

٥ - Peter Stalker, *The Non-Nonsense Guide to*

International Migration (Toronto: Between the Lines, 2001), p. 3.

٦ - Maggie Black, *The Non-Nonsense Guide to International Development* (Toronto: Between the Lines, 2002), p. 66.

٧ ـ المصدر السابق Maggie Black, p. 65

٨ ـ رغم ان طارق علي ماركسي فهو يقر في عمله "صدام الاصوليات" *The Clash of Fundamentalisms* بأن [الاسلام] "منذ البداية اعتبر التجارة المهنة الشريفة الوحيدة" (ص ٢٩). والحق ان القرآن نفسه يقدس التجارة عمليا بالآية القائلة: "يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل إلا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا انفسكم إن الله كان بكم رحيما" (٤: ٢٨).

٩ - Bill Clinton, "The Struggle for the Soul of the 21st Century," *New Perspectives Quarterly*, Spring 2002. Download at www.digitalnpq.org

١٠ ـ للاطلاع على مزيد من المعلومات انظر Herman de Soto, *The Mystery of Capital: Why Capitalism Triumphs in the West and Fails Everywhere Else* (New York: Basic Books, 2000)

١١ ـ حديث مع بيتر شايفر Peter Schaefer المدير التنفيذي لمعهد الحرية والديمقراطية Institute for Liberty and Democracy (مكتب واشنطن) ، ١٢ فبراير (شباط) ٢٠٠٣.

١٢ - Elaine Kamarck, "Freedom through Islam," *Toronto Star*, February 15, 2002.

١٣ ـ سورة النساء الآية ١٢٨.

١٤ - Richard Haass, "Towards Greater Democracy in

the Muslim World" (Speech to the Council on Foreign Relations, Washington, D. C.), December 4, 2002, p. 6 of notes.

١٥ - www.wluml.org
found under "Part One: The Context of our Struggle"

١٦ - تلفزيون المنار www.manartv.com .انقر على "Programs" ثم على "Perspective"

١٧ - David Hoffman, "Beyond Public Diplomacy," *Foreign Affairs*, March-April 2002, Volume 81, Issue 2, p. 5 of online version.

١٨ - Dr. Ayesha Imam on "Metro Morning," CBC Radio (Toronto), December 3, 2002.

١٩ - Riffat Hassan رفعت حسن كما تنقل عنها الين كامارك
Elaine Kamarck, "Freedom through Islam," *Toronto Star*, February 15, 2002/

٢٠ ـ في تركيا شكت مسلمات لمنعهن من دخول قاعات الدرس في الجامعة وحتى من دخول البرلمان بسبب اختيارهن التحجب. للاطلاع على مزيد من المعلومات انظر
Julie Salamon, "Seeking a Global Faith in the details," *New York Times*, May 9, 2002.

٢١ ـ نقلتُ هذه الترجمة من عمل البير حوراني
Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (New York: Warner Books, 1991), p. 17.
اقرأ مذكرتي المزيفة الى عرفات كاملة.

٢٢ ـ محمد المصري (رئيس المؤتمر الاسلامي الكندي)
"Another Leaf," *Globe and Mail* letters, February 6,

2002.

٢٣ - Sheila Dropkin, “Wake Up Arafat,” *Globre and Mail* letters, February 7, 2002.

٢٤ ـ مقابلة مع الحاخام ديفيد هارتمان ، القدس ، ٩ يوليو/تموز ٢٠٠٢.

٢٥ - Edgar M. Bronfman, “The Boos: A Mideast Moment,” *New York Times* letters, May 14, 2002.

٢٦ - Rabbi Jonathan Sacks, *The Dignity of Difference: How to Avoid the Clash of Civilzations* (London, New York: Continuum, 2002), p. 59

قد يحتفي ساكس بالاختلاف أكثر من غالبية الزعماء اليهود الارثوذكسيين الآخرين ولكنه ليس وحده الذي يقبل بالاختلاف. فان رئيس بلدية القدس اوري لوبوليانسكي ، وهو يهودي ارثوذكسي متطرف ، رفع شعار "عش ودع غيرك يعيش". وقد فاز لوبوليانسكي. وكان رئيس البلدية لوبوليانسكي عند كلمته عندما دافع عن مهرجان المثليين والسحاقيات الذي اقيم في القدس عام ٢٠٠٣. وقام بتذكير المحتجين المحافظين ان "لكل مهرجانه" مضيفا ، "أنا نفسي سأخرج للمشاركة في مهرجان آخر". وهذا من حقه تماما. انظر تقرير صحيفة تورنتو ستار في ٢١ يونيو/حزيران ٢٠٠٣:

Mitch Potter, “Cavalcade of rainbow flags raises tension in Jerusalem,”, *Toronto Star*, June 21, 2003.

٢٧ ـ الحاخام جونثان ساكس Jonathan Sacks مصدر سابق ، ص ٦٠.

٢٨ ـ هذا ما نقله لي طارق فتاح ، الذي كان مندوبا عن مدينة تورنتو في مؤتمر كوالالمبور.

٢٩ - Lily Galili, “Liberal Islam in Asiatic dress,” Ha’arzdaily.com February 23, 2003.

٣٠ - Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: w. w. Norton, 2003), p. 136.

٣١ - "MEMRI Special Report – Arab Antisemitism," No. 9, November 1, 2002.

طلبتُ من خبير في اللغة العربية الفصحى ان يدقق مرتين في الترجمة التي نشرها هذا المطبوع MEMRI ومقارنتها بالأصل.

كما لاحظ المطبوع اياه انه في "مارس/آذار ٢٠٠٣ اصدر معهد البحوث الاسلامية في جامعة الأزهر توصية بعدم وصف اليهود بـ"القرود والخنازير". وكان الاجتماع الذي أُعدَّت التوصية فيه برئاسة اكبر مرجع ديني في الاسلام السني ، شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي". ولكن لاحظوا ان هذه لم تكن إلا توصية ضد استخدام هذه النعوت ـ وليست قرارا ضدها. أين الفتاوى عندما نحتاجها؟ للاطلاع على المزيد انظر:

Yigal Carmon, "Harbingers of Change in the Antisemitic Discourse in the Arab World," MEMRI Inquiry and Analysis Series – No. 135. Download at www.memri.org

٣٢ - MEMRI Special Dispatches Series – No. 59, November 19, 1999.

طلبتُ من خبير بالعربية الفصحى تدقيق ترجمة MEMRI وقارنتها مع الأصل.

٣٣ - MEMRI Special Report- No. 2, February 8, 1998

٣٤ ـ بعثت بأول مراسلاتي بالبريد الالكتروني الى المنتدى في ٢٢ فبراير/شباط ٢٠٠٣ وكانت مراسلتي الثانية ، التي ما زالت بلا رد ، في ٢٤ فبراير/شباط.

في تلك المراسلة الالكترونية اليكم ما كتبته الى سدني شبتون Sidney

Shipton منسق منتدى الديانات الثلاث: "لا بد أن اعترف بما اعتراني من إرباك لكون اسم الشيخ طنطاوي أحد الرعاة. فاستنادا الى معهد الابحاث الاعلامية في الشرق الاوسط ، يطلق الشيخ تعليقات تحريضية جدا ضد اليهود (وليس فقط ضد اسرائيل) منذ عدة سنوات ـ خلال عملية السلام [عملية اوسلو] وبعدها. وفي عهد قريب هو ابريل/نيسان الماضي [عام ٢٠٠٢] نُقل عنه ان اليهود "اعداء الله ، وابناء الخنازير والقرود". ونظرا لطبيعة العمل الذي ينهض به منتدى الديانات الثلاث ، استاءل لماذا يقبل المنتدى ان يكون احد له مثل هذه الآراء من رعاته؟ إني اتساءل بروح الانفتاح واتطلع الى ردكم". وهو رد لم يصلني حتى الآن.
٣٥ ـ موقع المنتدى الابراهيمي للشرق الاوسط ، ١١ سبتمبر/ايلول ٢٠٠٢
Middle East Abrahamic Forum [ندعوكم للاطلاع على الموقع].
٣٦ ـ في الحقيقة كثيرا ما أشير الى الموجة العارمة من مستخدمي شبكة الانترنت لفتح مواقع يسجلون فيها افكارهم وآراءهم بوصفها سبب النفوذ المتزايد الذي تحققه الاحتجاجات الطلابية المطالبة بالديمقراطية.
٣٧ - Martin Luther King Jr. “Letter from Birmingham Jail,” April 16, 1963. Download at www.nobelprizes.com
٣٨ ـ للاطلاع على المزيد حول هذا الموضوع انظر
Anthony W. Marx, *Faith in Nation: Exclusionary Origins of Nationalism* (ondon and New York: Oxford University Press, 2003). A good primer is provided by Alexander Stille, “Historians Trace an Unholy Alliance: Religion and Nationalism,” *New York Times*, May 31, 2003.

٣٩ - Charles Jacobs, “Why Israel and not Sudan, is singled out,” *Boston Globe*, October 5, 2002.

٤٠ ـ رجل الدين المقصود هو عبد الله الفيصل.

٤١ - Michel Houellebecq, *Lire*, September 2001, p. 4 of online transcript. Download at www.lire.fr.

٤٢ - Oriana Fallaci, *The Rage and the Pride* (New York: Rizzoli, 2001), p. 137.

٤٣ ـ ليونيل جوسبان (كلمة القاها في مركز السياسة الخارجية) ، لندن ، ٢٣يوليو/تموز ١٩٩٨.

٤٤ - “Women Key to Effective Development,” World Bank issues press backgrounder, December 6, 2001. انظر ايضا *Engendering Development 2001, World Bank Research report.*

٤٥ - Peter Stalker, *The No-nonsense Guide to International Migration*, p. 50.

٤٦ ـ يتفق مؤلفو تقرير الامم المتحدة حول التنمية البشرية في العالم العربي مع هذا الرأي. وفي الفصل المتعلق بالحاكمية العربية وتنظيم المواطنين قواهم للتفاوض يقول مؤلفو التقرير "ان حكومات عديدة كانت في السابق توفر فرص عمل مضمونة ودعومات وغيرها من الحوافز الاخرى. اما اليوم فان الضغوط الاقتصادية حدَّت من قدرتها على تقديم مثل هذه الاعانات ، وان الحكومات تحتاج بصورة متزايدة الى الاعتماد على عائدات الضرائب للقيام بوظائفها ، وهذا يعطي للمواطنين قوة أكبر من اجل التفاوض ليكون لهم صوت اكبر في الحكم".

٤٧ - *DAWN*, December 21, 2002 [View the photo]

الفصل الثامن

الحمد للصدق والأمانة

قال لي سلمان رشدي في مقابلة معه في عام ٢٠٠٢ ، "أذكرُ تسلمي اعدادا هائلة من رسائل مؤثرة للغاية بعث بها قراء مسلمون لرواية "الآيات الشيطانية" ، وخاصة من مسلمات أعربن عن شكرهن لي على فتح باب ، كما تعرفين" (١). إي والله اعرف. فقبل اسبوع من ذلك نظمت نساء مؤتمرا للمسلمين المتعطشين الى الاصلاح في منطقة تورنتو. وكانت غالبية المشاركات لا يرتدين الحجاب ، ولا حتى شكلا جذابا منه. ولكنهن كن حريصات ما فيه الكفاية على الاسلام بحيث حضرن صباح يوم رائع من ايام السبت لمناقشة ما تواجهه العقيدة الاسلامية ـ وموقعهن فيها.

وقف شخص مشاغب على المنصة. وتساءل خالد ابو الفضل ، البروفيسور في جامعة كاليفورنيا ، لوس انجيليس ، الذي تبنى كلابا سائبة تحديا للملالي اللؤماء قائلا ، "لماذا أحتاجُ الى ٣٠ الف كتاب في مكتبتي؟ ألأن كل كتاب منها يقول الشيء نفسه تماما؟ فالطريقة التي نعامل بها نحن المسلمين تراثنا الفكري كبيرة الشبه بالكتب التي تؤكد كتابا تلو الآخر "الحقيقة البسيطة" متمثلة بالاسلام ، وكفى الله المؤمنين شر القتال". فالعلماء المسلمون اليوم "لا بد ان يكونوا اشد ما عرفته البشرية تبلدا وأكثر ما انجبته ابتعاثا على الملل لأن كل واحد منهم يستطيع ان يقول "سأكتبُ الأشياء نفسها على وجه التحديد التي قيلت على امتداد السنوات الستمائة الماضية" (٢).

اطلق الحاضرون ضحكات خافتة. وفي الطريق الى مقعد شاغر اومأتُ

الى صديق مسلم ، مثلي كان يعاشر صبيا يهوديا يرتدي القلنسوة التقليدية. وقبل أن أجلس في مقعدي تبادلتُ العناق مع تركية بوسنية لم أرها منذ تزوجت من مكسيكي ذي تربية كاثوليكية. وهما الآن عضوان في حلقة من المسلمين الصوفيين في مدينة مكسيكو ستي. لقد كان هذا جمهورا من المستبعَد أن يعمد الى طرد البروفسيور الفضل في اي وقت قريب.

أُخِذ الفضل بهذه التظاهرة من مشاعر المحبة وقرر ان يهتك كل الاستار فتساءل ، "هل عرفتُم ذات يوم حضارة تنمو على اساس القاسم المشترك الأصغر؟ حضارة يمكن ان تكون آمنة بأيدي مغفليها بدلا من عباقرتها؟ فالحضارة يبنيها الفنان والأديب والقدرة على صنع الجمال والموسيقى واساليب تعبير جديدة. والحضارة تتقدم حين تكون هناك مكافأة لا فتوى ، على أصالة الفكر!". أردتُ أن ابدأ موجة من الهتاف ولكن إذ كان جميع الآخرين في حال من الانتشاء تمالكتُ اعصابي بممارسة شكل من اشكال "الجهاد الداخلي".

شيء واحد ازعجني. فلو تفوه بالكلمات الكفاحية التي قالها الفضل شخص غير مسلم لدُقت عنق المتحدث بالمعنى الاستعاري للكلمة ـ لا على ايدي المتشددين (فهؤلاء لا يكترثون بالاستعارات) وانما على ايدي غالبية المعتدلين الحاضرين في القاعة. والحق انه ليس ثمة ما هو اسلامي تحديدا في ذلك. فعندما يكون بمقدور الكوميدي الاميركي الأسود كريس روك ان يطلق كلمة "نيغر" "niger" ذات اليمين وذات الشمال خلال نمرته ولكن المطربة جينفر لوبيز تثير ضجة لاستخدامها الكلمة نفسها دون أي معنى تحقيري وراءها ، لا يكون المسلمون وحدهم المنشغلين بخفايا سياسة "التمثيل". ولكن لماذا لا يمكن للتمثيل الصحيح ان يعتمد على قيم مشتركة بدلا من اوجه شبه سطحية في لون البشرة عند

السود والتوجه الجنسي عند المثليين والدين عند المسلمين؟ أحسبُ ان غالبية النساء اللواتي استمعن الى الفضل ذلك اليوم سيَسحَقن كل من يأمرهن بإرتداء زنار على فساتينهن. لماذا ، إذاً ، يريد أي منا ان يفرض قوالب الصوابية على غير المسلمين؟

أم ان غير المسلمين يمارسون الرقابة الذاتية؟

كان لديَّ سبب للتفكير في هذا السؤال قبل ايام على كلمة الفضل. فان صديقا (لنسمه اليكس) كان يزيِّن المركز الطلابي لجامعة تورنتو بعلامات رُسمت عليها اشكال اصابع تشير الى اعلى والى اسفل لمساعدة الطلاب الجدد في معرفة الاتجاهات الصحيحة. وكان اليكس الذي صمم هذه العلامات على كومبيوتره يتباهى برسم الاصابع دون استخدام اللون الابيض. ففي احدى العلامات كان الاصبع اسود وفي علامة اخرى كان رماديا (اقرب ما حققته طابعته الى اللون الأسمر . وعندما أراني اليكس العلامات ابتسمتُ مشجعةً ، ثم ذكر مقالة في صحيفة ذلك اليوم عن التطرف الاسلامي في الدنمارك (٣). وشجب الصحيفة قائلة انها "تقوم بتنميط المسلمين كافة".

بعدما قرأتُ المقابلة اعربتُ عن اختلافي مع اليكس وقلتُ "أعتقد انهم يسلطون الضوء على اشياء مقلقة حقا". وعلى الفور اتفق مع استيائي من استغلال بعض المسلمين لليبرالية الدنمارك ، ومن سكوت الغالبية الذين يشكلون الاسلام السائد على سلوكهم. وتذكَّر اليكس احصائية في المقالة تقول ان المسلمين يستهلكون ٤٠ في المائة من الاعانات الاجتماعية التي تقدمها الدنمارك رغم انهم يشكلون ٥ في المائة فقط من السكان. وهذا أمر مقلق لأنه عندما تدفع الدولة لكي يعيش مارقون ، يتوفر لهم الوقت من اجل اعداد خططهم وتنفيذها. لا استطيع القول إن كانت الاحصائية

دقيقة ولكن من الواضح انها كدَّرت اليكس. ومع ذلك فهو في حرصه على عدم الاساءة الى المسلمة التي في داخلي اتهم الصحيفة بالتعدي صحفيا. لقد كان تدليس اليكس "غير المؤذي" يضاهي انعدام الصدق والأمانة عند ما لا يُحصى من المسلمين.

إذا كنتَ من امثال اليكس فأرجوك ان تسمع. هناك اكثر من طريقة واحدة لاستغلال الاسلام. بعض المسلمين يستغلونه سيفا وهم اوغاد لقيامهم بذلك. ولكن مسلمين لا يقلون عن هذا البعض ـ أو حتى أكثر ـ يستغلون الاسلام درعا ، وهذا مدمِّر ايضا. فهذه الدرع تحمي المسلمين من مراجعة الذات وغير المسلمين من الذنب. وكثيرا ما يخاطب المسلمون غير المسلمين واعظين اياهم ، "لا يحق لكم وضع ديني موضع تساؤل. فانكم لن تفهوا الاسلام ابدا". (من بين المعاني المتعددة لهذا القول: أنا كمسلم لا أشعر بالثقة ، لا أُريد ان افهم من اين "انت") "لقد مارستم العرقية بحق شعبي في السابق وستعمدون الى تصويرنا مجددا على اننا "مصدر إشكال" (الفحوى: نحن المسلمين لا قدرة لنا ، وهذا ما علَّمني استاذي في موضوع الدراسات الثقافية).

رأيتُ هذه اللعبة مرات كثيرة حتى غدوتُ بارعة في وصفها. ولذا سأقولها بلا تزويق: منذ بداية شبابي والمسلمون في الغرب يرضعون حليب الجهل العام بالاسلام نائحين في مطالبتهم بالاعتراف لهم بالأحقية في كل الأحوال وبأي ثمن. وقد لاحظ معلقون آخرون ذلك. فحتى قبل ١١ سبتمبر (ايلول) كتبت الصحافية البريطانية ياسمين علي باي براون "ان الفكرة القائلة بأن مجتمعنا مجرد تعاهد بين جماعات على عدم التدخل ، ليست فكرة خاطئة فحسب بل وفكرة مستحيلة ايضا. فنحن جميعا مرتبطون ببعضنا بعضا بالضرورة" (٤). وعليه يجب ان نلقي الدرع جانبا ونقبل بالحق الطبيعي لأي مجتمع منفتح ، وهو ان من الجائز

لنا ان نطرح اسئلة على بعضنا بعضا ، احيانا اسئلة محدَّدة ، واحيانا اسئلة تُثار في العلن.

بهذه الروح ينبغي ان لا نسمح لوصفات التعدد الثقافي ان تخدِّر عقولنا اكثر مما فعلت. ولكن هذا ما نفعله. وعلى سبيل المثال ان مشروعا بعنوان "المسلمون في الساحات العامة الاميركية" يشيد بالخيمة الواسعة التي تستظل بها الجمهرة الواسعة من الناخبين المسلمين في الولايات المتحدة. ويزمِّر موقع المشروع على الانترنت انه "ابجديا ، يمتد اعضاؤنا من الالبان والافغان والجزائريين من جهة الى اليمنيين والزنجباريين من الجهة الاخرى. وما يدعو الى ارتياح البعض منا حقيقة ان احساسا جديدا بالتضامن الاسلامي يتبلور...هنا في الولايات المتحدة" (٥). فالانقسامات القديمة تتبدد والوحدة تنبثق من التعدد. ان مشروع "المسلمون في الساحات العامة الاميركية" يروي حكاية نضج من النمط الكلاسيكي.

سوى ان هناك مشكلة واحدة: ففي آخر نظرة على موقع المشروع يظهر ان مجلسه الاستشاري لا يضم امرأة في عضويته. يضاف الى ذلك ان المشروع نشر في موقعه ، صور ٢٥ "زعيما وطنيا مسلما" تنادوا للمشاركة في فريق عمل ذي مهمة محدَّدة شكَّله المشروع ، ولم تكن هناك امرأة بينهم. لا يهمني وجود اعداد متساوية من الجنسين من باب المظاهر فقط ولكن شكواي تتعلق بعدم اتخاذ خطوات ضرورية لتقويض الاسلام القَبَلي. وازاء السجل البائس للعالم الاسلامي المعاصر في مجال حقوق الانسان ، التي تشمل حقوق المرأة ، فان سؤالي هو الآتي: غياب المرأة يعني نقص التعددية ونقص التغيير. هل نبه أحد هؤلاء المسلمين في الساحات العامة الاميركية الى الثغرة الكبيرة في "تنوعهم" أم ان تنبيههم سيُفسد جَدَل المتمهرجين بتعددهم الثقافي؟

أُريد ان اسوق مثالا قديما آخر يبين كيف يجري تنويمنا نحن في الغرب بمسكنات التعدد الثقافي. ففي عام ١٩٩٤ القى نائب رئيس الوزراء الماليزي حينذاك انور ابراهيم محاضرة في جامعة جورجتاون بعنوان "الحاجة الى حوار حضاري". واعترف انور الذي أُودع السجن لاحقا بأن "الجهل والظلم والفساد والنفاق والانحطاط الاخلاقي متفشية تماما في المجتمعات الاسلامية المعاصرة" (٦). ولكنه حذر من "ان "المستهلك الساذج لما تنشره وسائل الاعلام الجماهيرية اليوم سيخرج بانطباع مفاده ان العالم الاسلامي ليس مأهولا إلا باصوليين متشددين وخطرين". والحقيقة ان الحضارة الاسلامية "انتجت الكثير من قصص الحب". واورد انور كمثال على ذلك قصة "مجنون ليلى. وقال "ان القصة تروي ان هذا الشاب كان موضع استهزاء وسخرية لهيامه بحب البنت لأن ليلى كانت بنظر العالم بشعة في مظهرها الجسدي. وردا على ذلك كان الشاب دائما يجيب: "لكي يرى المرء جمال ليلى يحتاج الى عين مجنون"". آو ، ليلى الدميمة وجدت الحب ـ يا له من حدث زاخر بالمعاني الروحية السامية.

وإذ أُخاطر بإفساد رومانسية هذه اللحظة أتساءل: هل عند ليلى خيار البقاء عازبة على ان تتزوج من مجنون؟ هل يُسمح لها بالرحيل عن البلاد من دون موافقته؟ هل تستطيع ان تختار المهنة التي ترغب فيها؟ هل تستطيع ان تزاول مهنة ما اصلا؟ هل طرح غير المسلمين الذين استمعوا الى المحاضرة أياً من هذه الاسئلة؟ انور ابراهيم ما كان ليذوب تحت وطأة الاستجواب. فهو يريد الالتزام بحقوق الانسان ، وهذا ما أخاف زعيمه ، رئيس الوزراء الماليزي الذي رماه في السجن لاحقا لإسكاته. لماذا هذا الأدب الجم تجاه قصص حلوة يمكن ان تنمّ عن حقائق بشعة؟

ملحوظة لغير المسلمين: تجرأوا على افساد رومانسية اللحظة. فعندما يصر المسلمون على "أننا انظمة ديمقراطية بطريقتنا الخاصة" ليس عليكم إلا ان تطرحوا سؤالا واحدا: ما هي الحقوق التي تتمتع بها**حقا** المرأة والأقليات الدينية؟ لا ريب في انكم سوف تسمعون في معرض الرد ان على الغرب ان يلقي نظرة فاحصة على الطريقة التي يمتهن بها المرأة من خلال الأثداء الاصطناعية وتصغير البطن بالشد والسحب من اجل ان تكون مقبولة اجتماعيا. موافقون ، فعلى الغرب ان يلقي نظرة متمعنة. ولكني طيلة سنوات عملي ناشطة نسوية في الغرب لم التق قط فتاة تبرَّأ منها والداها لأنها رفضت ان تحشو صدرها بأثداء مصنوعة من مادة السليكون ـ ولكن آباء عدة رفضوا بناتهم لمقاومتهن ختان البضر. وغير المسلمين لا يسدون خدمة للعالم بالتزام جانب الصمت الأخلاقي ما أن يبدأ المسلمون بالحديث. تجرأوا على افساد اللحظة.

إسألوا ادعياء الفكر من آخر زمن ـ الناشطين من اجل السلام مثلا ـ لماذا يتحالفون مع شخصيات معينة ويتوقعون منا ان نصفق لهم. ففي يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٣ عندما كان مجلس الأمن الدولي يناقش سبل نزع اسلحة صدام حسين ، تابعتُ احتجاجا نظَّمه مناهضو الحرب في تورنتو. الخطيب الأخير في ذلك اليوم ـ قائد فريق الأحلام المناهض للحرب ، إذا شئتم ـ ينشر صحيفة تُسبِّح بحمد الثيوقراطية من النمط الايراني (٧). وكان علي ان اتساءل ما إذا كان للجماهير المزمِّرة والمصفِّرة والمصفِّقة الحق القانوني اصلا في التجمع لو حقق أمثاله مراميهم. عصر ذلك اليوم نفسه في واشنطن دي. سي ، اعطى مناهضون للحرب ، الكلمة الى رجل دين مسلم كان قد اعلن في اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠١ "ان الصهاينة في هوليود ، والصهاينة في نيويورك والصهاينة في دي. سي" يتآمرون ضد المسلمين (٨). وإذا كان على الولايات المتحدة ان تعيد النظر في تحالفاتها فان على الغربيين التقدميين ان يحذوا حذوها ولكن

المرء لن يعرف زيف بعض الشراكات ما لم يتجرأ على إفساد اللحظة بالسؤال.

إسألوا عن الأموال التي تتبرعون بها للأعمال الخيرية. فطبقا لموقع "النساء في ظل القوانين الاسلامية" هناك "وكالات مانحة" لا يُعرف عددها تقوم دون ان تدري بتمويل مدارس دينية ومكاتب للعمل الاجتماعي يديرها اصوليون. والاصوليون بدورهم ، يشددون "الضغط على الرجال لحضور الجوامع وعلى النساء للتحجب". وهم يعملون من اجل "الغاء المدارس المختلطة وتحريم العلوم والألعاب الرياضية والفنون على الفتيات ، وتدريس مناهج تربوية تشجع على كره الآخرين" (٩). ولا تنخدعوا بالاسماء المحايدة في الظاهر. فان مؤسسة الاحسان الدولية The Benevolent International Foundation ومنظمة الرحمة للاغاثة الدولية the Mercy International relief Organization ومؤسسة الاغاثة العالمية Global Relief Foundation ـ كلها اسماء وديعة ، وكلها مشتَبَه بضلوعها في اعمال ارهابية اسلامية (١٠). ثم هناك منظمة الرعاية الانسانية الدولية Human Concern International وهي جمعية خيرية اسلامية تتخذ من اوتاوا مقرا لها. وتمكَّن مديرها الاقليمي لباكستان الذي كان في حينه مواطنا كنديا يُدعى احمد سعيد خضر ، من اقناع كنديين مسلمين لفترة من الوقت بالتبرع بمجوهرات وشيكات "للتخفيف من معاناة الانسانية". ويبدو انه لم يخطر ببالهم قط ان هذا الشخص قد يكون ناشطا كبيرا في شبكة "القاعدة" . وبعد ان القت السلطات الباكستانية القبض على خضر بسبب مشاركته في مؤامرة لتنفيذ عمليات تفجير في عام ١٩٩٥ قررت منظمة الرعاية الانسانية فصله. وفتح خضر ، فور اطلاق سراحه ، جمعية خيرية منافسة باسم لا يقل وداعة هو "المنظمة الدولية للمشاريع الصحية والتعليمية" Health and education Projects

International. اني لا احثكم على الكف عن تقديم التبرعات بل احضكم على الكف عن الوثوق بأن تبرعاتكم تذهب الى مَنْ يستحقها. تجرأوا على إفساد اللحظة.

انتم تغتبطون لملاحقة السياسيين بالاسئلة الصعبة ، اليس كذلك؟ فهذا عمل لا يُخيفكم بقدر ما تُخيفكم محاسبة المسلمين ، اليس كذلك؟ حسنا. إذا كنتَ مواطنا اميركيا ، كيف تعرف ان الدولارات التي تدفعها كضرائب لا تذهب لتمويل كتب مدرسية تروج العدوان في افغانستان ، مثلما كانت تفعل خلال حقبة ريغان بواسطة الوكالة الاميركية للتنمية الدولية؟ هل استنطقتَ نائب منطقتِك في الكونغرس لتزويدك بالمعلومات؟ وإذا كنتَ تعيش في النرويج هل تعلم ان مدارس تعليم اللغة الانجليزية التي تُديرها ولايتُك (تديرها من جيبك) تقوم احيانا بعزل النساء المسلمات عن الرجال المسلمين والتخلف بذلك عن تثقيف هؤلاء المهاجرين بأبسط مقومات التعددية ، وهو التعليم المختَلط؟ وأنتم يا سكان هولندا ، كيف تضمنون ان شبكة الارسال الاسلامية الهولندية لم تعد تزود محطتكم التلفزيونية العامة ، نيدرلاند ١ ، بمواد تقطر كراهية ، كما فعلت في ١١ سبتمبر (اليول) ٢٠٠١؟ ولسكان كندا اقول انكم ينبغي ان تعرفوا ان مجموعة ممولة من الحكومة الفيدرالية هي Toronto Response for Youth (TRY) ، نظمت بمناسبة الذكرى السنوية الاولى لاعتداءات ١١ سبتمبر (ايلول) ورشات عمل حول ضرورة التسامح. ولكن المجموعة نسبت الصور النمطية التي تروجها وسائل الاعلام عن المسلمين وغيرهم الى "شركات يديرها في الغالب ذكور قوقاز أو يهود"؟ أهذا موقف مناهض للعنصرية؟ ولمن؟ لأليس وعلي في بلاد العجائب؟ هل نستطيع ان نحاول انفاق اموالنا على مساع أكثر أمانة؟

بعضكم قد يتبرم مع نفسه قائلا ، "ولكن الحقيقة ان بيضا ويهودا يديرون

كل الشركات متعددة الجنسية التي تملك وسائل الاعلام. فهل قول الحقيقة يجعلنا عنصريين؟" (١١) بصرف النظر عن الرجل الأسود المدعو ريتشارد بارسونز الذي يشغل منصب الرئيس التنفيذي لشركة تايم وارنر ، واوبرا وينفراي وسوني ميتا وكوينسي جونز ، لنفترض انكم على صواب في القول ان بيضا ويهودا يسيطرون على مفاصل الثقافة السائدة. وما دمنا نلعب بموجب هذه القواعد يكون من واجبي ان اكشف المزيد عن مجموعة TRY ، ذلك المشروع المناهض للعنصرية. فان غالبية رؤساء الورشات كانوا اصحاب اسماء مسلمة. وربما ينبغي ان نستغرب لأن مناهضة العنصرية ترتدي شكل معاداة السامية عندما يكون مسلمون في موقع المسؤولية. أم ان تحديدي لمعالم شخصية هؤلاء الأفراد يضعني في مصاف العنصريين؟ ألا تتحدد شخصية المناهضين للعنصرية بتخيُّل بشرة بيضاء وقلنسوة يهودية وراء تنميطات وسائل الاعلام؟ هل هم أكثر أم اقل عنصرية مني ، أم انهم بكل بساطة على القدر نفسه من العنصرية؟ تستطيعون ان تروا ما تؤول اليه مثل هذه المنازلة من رتابة مملة.

الأجدى بكثير ان نسأل لماذا ان استجواب البعض (المسلمين على سبيل المثال) استجوابا مشروعا ، ينطوي على تهمة العنصرية في حين ان استجواب البعض الآخر (الاميركيين غير المسلمين على سبيل الماثل) استجوابا مشروعا ، لا يحمل معه هذه التهمة. فلا اميركا ذات لون واحد ولا الاسلام احادي اللون. ولا هي ولا هو "عرق" بالمعنى النوعي المتزمت للكلمة. فأين الإشكال؟ ثلاثة اشياء على الأقل.

اولا ، ان الاميركيين يعتبرون ان ما يحدِّد كيانهم هو فكرة ـ فكرة الحرية. ورغم ان بلدهم ليس منزَّها من العنصرية فان فكرة الحرية لا تمت بصلة الى العنصرية. ولهذا السبب ، من بين اسباب اخرى ، لن يكون من

المنطقي وصف مستجوبي اميركا بأنهم "عنصريون". ولأن تهمة العنصرية الماحقة لا تُلصق بمنتقدي اميركا فان نقدهم لها يبدو مباحا ، وهو مباح بالفعل ـ مثلما ينبغي ان يكون مباحا نقد الامة الاسلامية المتنوعة ديموغرافيا (سكانيا). والمسلمون الذين يوجهون تهمة العنصرية تلقائيا لمن يستجوب الاسلام هم انفسهم يكرسون الخرافة القائلة اننا جميعا نأتي من مكان واحد. ولا يمكن تحميل اليهود أو البيض مسؤولية هذا التنميط.

ثمة سبب ثان يسوغ استجواب الاميركيين غير المسلمين ـ والغربيين عموما ـ ولكنه لا يصح على المسلمين. فالغربيون ليس من عادتهم الاعتداء عليك جسديا لاختلافك مع الحكومة. والاميركيون لا يرحبون كلهم بالحقيقة الماثلة في ان مجلة نيويورك تايمز ماغازين سخرت من تقدير مكتب التحقيقات الفيدرالي لعدد المجندين في شبكة "القاعدة" العاملين في اميركا واصفة هذا التقدير بأنه "تخمين طائش بهذا القدر أو ذاك" (١٢). ولكن هل أُحرقت مكاتب المجلة ، كما حدث في نيجيريا عندما استثار معلق ، المسلمين الحاكمين عن غير قصد؟ وكانت قنوات كابل اميركية مختلفة بثت اعلانات تجارية تسأل ، "أي سيارة سيقود المسيح؟" غامزة من قناة الاوليغارشية النفطية. كما بثت هذه القنوات اتهام نلسن مانديلا لجورج دبليو بوش بوصفه "رئيسا غير قادر على التفكير السليم" (١٣). ولكن هل سُحبت تراخيص هذه القنوات أو تعرض صحافيوها الى الاعتداء؟ ومن باب المقارنة فان العربية السعودية والكويت والاردن طردت صحافيي قناة "الجزيرة" لانتقادهم انظمة الحكم في هذه البلدان.

ما يشهد على حجم النقد الذاتي الذي تحملته الولايات المتحدة ان جيللو بيافرا ، المغني الرئيسي في فرقة "دايد كنديز" Dead Kennedys

لموسيقى البانك إبان الثمانينات ، قام بعد ١١ سبتمبر (ايلول) بجولة في مدن اميركا الشمالية ردد خلالها اغنية صارخة عن بوش. وسخر بيافرا من خنَّة بوش وهو ينقل عن الرئيس اقوالا مليئة بالاخطاء النحوية ، ليدخل السرور المخلوط بالدهشة في نفوس مستمعيه.

ان الله نفسه لا ينجو من المداعبة الخشنة في بعض مناطق الولايات المتحدة. وقد تابعتُ ذات مرة رجلا في فينيس بيتش بولاية كاليفورنيا ، يغني نسخته الخاصة من نشيد "الله يبارك اميركا" بعد تحويرها. فهاكم استمتعوا بها:
الله يبارك سروالي الداخلي
سجلوا اني أُحب
الدخول في سروالي الداخلي
وان أُحسُ بسروالي الداخلي
بين ردفيَّ حين أركب ، أو أقود الدراجة.....(١٤)

صاحبنا قد يكون أحمق ولكن سرواله الداخلي لم يخضع لتفتيش ضباط غاضبين من مكتب التحقيقات الفيدرالي ولا ردفاه تعرضا لركلات الانجيليين المسيحيين. ليحاول واحدكم التصديح باغنية مرحة عن الله في بلد مسلم. فنحن نعرف الهستيريا التي تنفجر عندما تُروى نكات عن النبي محمد ـ فما بالكم بالله!

أعودُ الى الحديث عن اميركا فاقول ان رجال الرئيس ينقضُّون متى يستطيعون الانقضاض. اعتقالات اعتباطية ، عمليات تفتيش عشوائية ، مصادرات غير مبرَّرة ، هواتف ملغومة بأجهزة تنصت ، رسائل مفتوحة ، وثائق حكومية مصنَّفة: الولايات المتحدة ساحة لكل هذه التجاوزات. والجنود في قاعدة عسكرية بولاية كاليفورنيا يجوز لهم اطلاق النار

بهدف القتل إذا تجاوز الناشطون المناهضون للحرب الحدود المسموح بها. ولدى البنتاغون مكتب ارتباط لأغراض الترفيه يعقد صفقات مع هوليود من اجل تزيين صورة الجيش الاميركي على حساب الحقيقة التاريخية. وأمرت ولاية فلوريدا ، التي يحكمها شقيق جورج دبليو بوش الأصغر جب ، سائق سيارة مؤخرا بتسليم اللوحة التي تشير الى رخصة القيادة لأن الحروف المكتوبة عليها تعني كلمة "ملحد" ATHEIST . وان محطة "كلير تشانل" Clear Channel ، وهي اكبر شبكة اذاعية في اميركا مقرها بولاية تكساس ، الى جانب كونها من مؤازري الرئيس ماليا ، محضت دعمها للحرب على الارهاب بالتوقف عن بث نحو ١٦٠ اغنية ولحنا يمكن ان تجرح مشاعر الاميركيين بعد ما حدث في ١١ سبتمبير (ايلول). إذاً ، ان الرقابة البوليسية متفشية في ارض الحرية.

ولكن الشيء نفسه يمكن ان يُقال عن توثيق هذه الرقابة توثيقا يوميا. فأنا وانتم نعرف تفاهات اميركا لأننا نسمع عنها طوال الوقت (١٥). ومن الطبيعي ان نحمل على بلد ما عندما نكون عارفين بسوءاته ، ومن الطبيعي ان نذيع هذه السوءات عندما نعرف اننا لن نُعاقب على ذلك بقطع ألسُننا أو أذرعنا أو رؤوسنا. وينبغي ان يتساءل المسلمون إن كانت مثل هذه الترفيات (تُسمى في الغرب "حقوق") تسهم في ما يجعل من الطبيعي لنا ان نلوم اميركا واسرائيل دون ان تمتد تمحيصاتنا لتشمل البلدان الاسلامية. وغير المسلمين ينبغي ان يستفهموا لماذا لا يطرحون علينا هذا السؤال في احيان أكثر.

والآن ما يتعلق بالسبب الأخير وراء كوننا نعتبر من اللائق انتقاد الاميركيين وليس انتقاد المسلمين. فالولايات المتحدة لن تستمع الى تعداد يسرد عليها سلبياتها فحسب بل ان الولايات المتحدة ستقر بالمسؤولية عن البعض منها ايضا. وحتى عندما يتعلق الأمر بأقدس الأقداس عندهم ،

وهو المال ، فان الاميركيين يعمدون احيانا الى مراجعة أنفسهم بشفافية لتصحيح الحال. وطيلة صيف ٢٠٠٢ دأبت محطة "سي ان بي سي" CNBC ، وهي القناة المالية المفضلة في الولايات المتحدة ، على تغطية عمليات الاحتيال والتلاعب بالحسابات في شركة انرون العملاقة للطاقة. وتساءل احد البرامج المصوَّرة "اين حدث الخلل؟". وبعد مرور ستة أشهر اعلنت مجلة "تايم" اسماء شخصياتها لذلك العام: انهم اولئك الذين فضحوا اميركا الرأسمالية. وكانوا جميعهم من النساء. وكان لديهن جميعا نظام قضائي وسياسي يستطيعن الاعتماد عليه ، ابدى على ما يبدو اهتماما بما كن يريدَّن توصيله. أين في العالم الاسلامي تجدون نساء يجري الاحتفاء بهن لفضحهن الفساد؟ لا مكان. ليس بعد.

يتوقف علينا نحن في الغرب اسقاط التهم الرجعية بالعنصرية التي تُوجَّه ضد مَنْ يميطون اللثام عن سلبيات الاسلام ويقودون الحملة من اجل التغيير.

وإحداث التغيير يعني عدم تفسير القرآن تفسيرا حرفيا ، وكذلك عدم النظر الى التعدد الثقافي نظرة احادية جامدة. إذ لماذا ينبغي السكوت على ختان البنات بالإكراه؟ لماذا تدير الشرطة ظهرها عندما يهدد أب (أو أُم) بقتل ابنته التي تختار الزواج خارج اطار الدين؟ لماذا يفلت سائق سيارة اجرة مسلم يغتصب امرأة متخلفة عقليا ، بذريعة "الحساسية الثقافية"؟ وترديدا لرأي البروفيسور الالماني والمسلم المؤمن ، بسام طيبي ، لماذا ينبغي ان تكون حقوق الانسان **مُلك** غير المسلمين؟ (١٦)

وفيما ينحني الغربيون للتعدد الثقافي نتصرف نحن وكأن كل شيء مباح. فاننا ننظر الى استعدادنا للتفهم والمراعاة على انه دليل قوة بل وحتى شكل من أشكال التفوق الثقافي (رغم ان قلة منا سيعترف بهذا الجزء).

ولكن الاصوليين يعدُّون غرائزنا التي تجنح الى إشراك الآخرين دليل ضعف يجعلنا رخوين ومائعين وتائهين. والاصوليون يمقتون الضعف ، وهم يعتقدون ان الضعيف يستحق أن يُقهر. المفارقة ، إذاً ، اننا كلما زدنا حرصا على التهدئة والترضية ، زاد ازدراؤهم لهذا "الضعف" فينا. ولعل المفارقة التي لا مفارقة بعدها اننا لكي ندافع عن تنوعنا سيتعين علينا ان نكون أقل تسامحا. وسيتعين علينا ، على اقل تقدير ، أن نكون أشد يقظة.

واليقظة تتطلب ان نطرح سؤالا روحيا (ولكن ليس بالضرورة سؤالا دينيا): اية قيمة هادية يمكن للغالبية منا أن نعيش بها؟ ومن حشد الايديولوجيات والأديان التي يعج بها هذا العالم ، أي مصفاة تستخلص حق الجميع تقريبا في حرية التعبير؟ ان كلمة فضفاضة مثل "التسامح" أو تعبيرا زئبقيا مثل "الاحترام المتبادل" لن يصلح كقيمة هادية. إذ لماذا التسامح مع التعصب المصمم على ممارسة العنف؟ اين هو المتبادَل في هذا الشكل من أشكال "الاحترام المتبادَل"؟ أمين معلوف وهو روائي في فرنسا ، يشخِّص المسألة بكل دقة: "ان التقاليد لا تستحق الاحترام إلا بقدر ما تكون محتَرَمة ـ أي تماما بقدر ما هي نفسها تحترم الحقوق الأساسية للرجل والمرأة" (١٧). ونحن الغربيين المسلمين وغير المسلمين علينا ان نحدِّد القيمة التي تعكس هذا الموقف وننطلق من هذه النقطة لمراجعة الماضي. وكل ما لا يدفع المجتمع في اتجاه هذه القيمة ينبغي عدم التسامح معه. وكان الله يُحب المحسنين.

مثل هذه الشبكة الواسعة التي تُستخدم في مجرى عملية المراجعة ستصطاد تأويلات معينة للاسلام ، وليكن ذلك. وأنا بصدد استحضار مثال مثير لكنه مثال صادق على ما يمكن التسامح معه إذا أردنا صون حرية التعبير لأكبر عدد ممكن من الناس. ففي عام ١٩٩٩ اصدرت

"محكمة الشريعة في المملكة المتحدة" التي عينت نفسها بنفسها محكمةً كهذه ، حكما بالاعدام على الكاتب المسرحي تَرَنس ماكنولي. إذ ان مسرحيته "عيد الجسد" *Corpus Christi* صوَّرت المسيح على انه رجل مثلي. وتظاهر عدة مسيحيين ضد "عيد الجسد" امام مبنى المسرح خلال عرضها الأول في مدينة ادنبرة ممارسين حقهم في حرية التعبير. ومضى الشيخ عمر بن بكري محمد ، احد قضاة محكمة الشريعة ، ابعد من ذلك باستخدامه ورقة الشرف. وإذ شجب الشيخ عمر "كنيسة انجلترا" بسبب "اهمال شرف مريم العذراء وعيسى اليسوع" ، وقع فتوى ضد ماكنولي ثم قام بتوزيعها في لندن (١٨). أهذه حرية تعبير؟ نعم ، بمعنى ما. ولكن لو نُفذت الفتوى لأسفرت عن ازهاق روح ماكنولي قاضية على حريته في التعبير وليس محجِّمَةً اياها فحسب.

وللانصاف فان الفتوى اكدت ان ماكنولي ينبغي أن لا يُعدَم إلا في دولة اسلامية ، وانها أعطته مخرجا: يمكن للكاتب المسرحي ، بالاهتداء الى الاسلام ، ان يفلت من قطع رأسه. ولأن مثل هذه التوبة حل نصفي فانها تقضي رغم ذلك بموته ولكن "عائلته سترعاها الدولة الاسلامية التي تنفذ الحكم وهو يمكن أن يُدفَن في مقبرة مسلمة" (١٩). أبشروا يا جماعة الخير!

أعطوني سببا وجيها واحدا لماذا ينبغي ان يُسمَح للشيخ عمر بالبقاء في بريطانيا بعد أن افتى بموت انسان. يدَّعي المجلس الاسلامي في بريطانيا ان الشيخ عمر لا يمثل اكثر من الف مسلم من مجموع مليوني مسلم في بريطانيا. إذا كان هذا صحيحا فليس ثمة ما يستدعي توجس المسلمين في بريطانيا ـ بل المسلمين في الغرب بأكمله ـ من ملاحقته قضائيا وابعاده لأن كل اشكال الاسلام التي تحترم حرية عدم الايمان ، وتحترم حرية الفرد في السير بالطريق الذي يختاره ، ستبقى صامدة. اسلام الصحراء

وحده الذي لن يصمد ، وأليس حريا بنا ان نتنفس جميعا الصعداء لمثل هذا المصير؟

أقترحُ ان نتفق نحن في الغرب على الفردية بوصفها قيمة هادية. وعندما نحتفي بالفردية فاننا نسمح **لغالبية** البشر أن يكونوا ما يختارون ، سيان أن يكونوا معتنقي ديانة أو ارواحا حرة أو الاثنين. وعند كثير من الغربيين قد تبدو "الفردية" شديدة القرب من النزعة الفردية أو "الفردانية" الاميركية. وهي لا يتعين ان تكون ذلك. فان "الفردانية" ـ لا يهمني شيء سوى ذاتي ـ تختلف عن "الفردية" ـ أنا مَنْ أنا ومجتمعي يستفيد من هذا التفرد وهذه الخصوصية. وسؤالي لاوروبا غير المسلمة هو: هل تعتقدين ان مسلميك الستة عشر مليونا قادرون على المساهمة كأفراد؟ السؤال هو ليس ما إذا كانوا قادرين وانما ما إذا كنتِ أنتِ تؤمنين بأنهم قادرون.

يا أوروبا ، لماذا تترددين في تصور المسلمين مواطنين كاملين؟ ان كثيرا من العائلات المسلمة عاشت في المانيا منذ الحرب العالمية الثانية فلماذا يُشار اليها على ان افرادها مهاجرون من الجيل الثاني أو الجيل الثالث وليسوا المانا؟ لماذا لا تتخلصين من عقدة النقاء العرقي التي تستحوذ عليكِ ـ عقدة تدَّعين استنكارك لها عند اسرائيل رغم ان اسرائيل منحت جنسيتها للاجانب منذ زمن بعيد؟ أُناشدُكِ يا أوروبا ألا تبتكري حلفا غير مقدس بين القَبَلية الصحراوية وقَبَلياتِك. تخلصي من تحفظاتِكِ وتعلمي من النموذج التعددي لأميركا الشمالية حيث يمكن للمسلمين ان يصبحوا مواطنين مندمجين. هل تريدين للتعددية ان تعيد النظر بقدرتها على الاستيعاب ، فتسير أميركا على خطاها وتعيد النظر بتعدديتها هي؟ إنكِ ستفعلين ذلك نكاية بالاميركيين دون شك ، ولكنكِ ستخذلين ايضا أجدادك الليبراليين من ابن رشد الى اراسموس ومن كانط الى فولتير. (ولنكن

صريحين ، ان فولتير كان سيرفع نخبا لذلك اليانكي الفظ الذي حول نشيد "الله يبارك اميركا" الى اغنية عن سرواله الداخلي).

يا اوروبا ، هل سلَّمتِ بالاشاعة القائلة ان زمنكِ قد مضى ولا نصيب لك في المستقبل؟ لقد استشطتِ غضبا على الحرب الاميركية الاخيرة في العراق ، ولكن الهجرة القادمة من بلاد المسلمين ينبغي ان تكون قضية لا تقل استقطابا عندكِ. فان بقاءك كتلة اقتصادية متميزة يتوقف على المهاجرين على الأقل بقدر ما يتوقف عليه مستقبل اميركا الشمالية. وأنت لديكِ مصلحة ذاتية في مساعدة المسلمين العرب على التأقلم لقبول الديمقراطية قبل ان يتدفقوا بأعداد اكبر على مدننا. فلماذا لا تتحشدين ضد الانظمة العربية التي تسيطر فيها اقليات سنية على اغلبيات شيعية؟ فأنا ، مثلي مثل كثير من الاوروبيين ، عندي حساسية من الطائفية المذهبية ولكن اين موقفك المناهض للابارتهايد (بمعنى التمييز المذهبي) في هذه الحالات؟

ما الذي تقولينه لرامي خوري ، الصحافي الفلسطيني الذي يكتب ان لا وجود لمؤسسات مدنية مستقلة ذات مصداقية في غالبية دول الخليج وسوريا والعراق وليبيا ، وانها تعمل تحت رقابة شديدة من الدولة في السودان والجزائر وتونس واليمن؟ يا اوروبا ، ان اقتصاداتكِ تعاني من المشاكل حاليا. نعم ، اقتصاداتكِ تعاني الآن وبالطبع ينبغي ان تحاذري من العنصرية المعادية للعرب التي يمكن ان تذكيها الازمة الاقتصادية. ولكن احذري من العنصرية التي تأتي من الافراط في المراعاة والتعويض. فان وصف الصهاينة بأنهم امبرياليون اوروبيون أو نازيون ليس السبيل الى راحة ضميرك المثقل بل دعم حقوق الانسان هو السبيل الى ذلك. مَنْ ذا الذي يمنعكِ من تنظيم تظاهرات ضخمة في الشوارع ضد انتهاك الحريات الانسانية العامة؟

لعل لديكِ ما يغريك بأن تقولي لي انها ليست حريات كونية عامة. لعلكِ توصلتِ في ثورتكِ العارمة على العولمة ـ عملية يُفتَرَض بانها توحد انماط الحياة ـ الى ان "كونية الحريات" تعبير أنيق ملطَّف عن واحدية الثقافة. كوني واقعية. في ظل "واحدية" العولمة لا يجبرني احد على ارتياد تلك الأماكن المتوَّجة بالاطواق الذهبية (في اشارة الى مطاعم ماكدونالد المميزة بهذه اليافطة) تحت طائلة الاعدام. فان بمقدوري أن اختار **الامتناع** عن قراءة قائمة الوجبات في مطعم ماكدونالد. باستطاعتي ان اختار الطرب على انغام نصرت فاتح علي خان وان ارتدي قميصا عليه شعار يندد باستغلال العمال الى آخر قطرة من عرق جبينهم ، وان استقل القطار راحلة للمشاركة في هذا الاحتجاج أو ذاك دون ان يتعين عليَّ اولا ان اقنع والدي بالموافقة على سفري. اما في ظل الواحدية الناجمة عن "نزعة التأسيس" الاسلامية فلا استطيع الاختيار ، ولا انتم تستطيعون الاختيار. ومساواة شرور اسلام الصحراء بآثام العولمة خطأ يرتكبه المتخَمون بالامتيازات ، اولئك الذين لم يعرفوا قط أي شيء أسوأ من اهوال التسويق لبيعهم بضاعة ما.

يا اوروبا ، هل استبدت بكِ تعقيدات الثقافة بحيث ضاعت عليكِ يقينيات الحضارة؟ وهذه كلمة ملغومة ، كلمة "الحضارة". ولكن ، كما بينتُ ، فان المسلمين يشتركون في الحضارة الغربية ، وهم قاموا بدور القابلة المأذونة للنهضة الاوروبية ، موظفين طوال الوقت يهودا ومسيحيين وغيرهم من الذين بدورهم استعاروا على نطاق واسع من التقاليد الإغريقية والبيزنطية والثقافات المحيطة. ومسؤوليتنا العالمية الآن هي ليست تحديد هوية هذا وهوية ذاك بل ان ننقل الى الاجيال القادمة ما ندين به جميعا لبعضنا بعضا.

بهذه النية أُريد ان اختتم حيث ابتدأتُ: بتقدير ما فعله الغربي لي ـ بل

للكثير من المسلمين. فأنا مدينة للغرب برغبتي في المساعدة على اصلاح الاسلام. وبكل صدق ، يا شقيقاتي واشقائي في الاسلام ، فأنتم ايضا مدينون له.

هوامش الفصل الثامن

١ ـ مقابلة مع سلمان رشدي ، تورنتو ، ٢٠ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢. "انقر" هنا لقراءة النص الكامل.

٢ ـ خالد ابو الفضل (كلمة القاهام امام المجلس الكندي للنساء المسلمات) ، تورنتو ، ١٤ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢.

٣ ـ المقالة ذات العلاقة هي بقلم دانيل بايبس Daniel Pipes ولارس هيدغارد Lars Hedegaard بعنوان
“Muslim extremism: Denmark’s had enough,” *National Post*, August 7, 2002.

٤ - Yasmin Alibhai-Brown, *After Multiculturalism* (London, Foreign Policy Centre, 2000) p.7.

٥ - Sulayman S. Nyang, “Why the Public square?” www.projectmaps.com

٦ ـ انور ابراهيم ، "الحاجة الى حوار حضاري" ، محاضرة في جامعة جورجتاون ، واشنطن دي. سي ، ٦ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٤.

٧ ـ قمتُ بالدعاية لهذه الصحيفة بذكر اسمها ولكني سأُشير الى أي درجة ينحو ناشرها ظفار بنغاش باللائمة على الجميع باستثناء المسلمين عن ازمة الاسلام. ففي طبعة ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٢ من برنامج "حصانة دبلوماسية" الذي تبثه قناة تي في اونتاريو ، قال بنغاش "ان المستعمرين حرموا المسلمين من مصيرهم ، وان المسليمن يناضلون ضد ذلك".

سأل الصحافي الذي كان يجري القمابلة معه ، انه "لو لم توجد اسرائيل وكانت الشيشان مستقلة ، ولو كانت كشمير دولةمستقلة ، ولو حصلت اميركا على كل نفطها من اقليم البرتا بدلا من العربية السعودية واعادت قواتها الى بلدها ، هل تقول ان كل شيء سيكون على ما يُرام في العالم الاسلامي؟" فكان جواب بنغاش ، "بالتأكيد ، لن تكون عندهم مشكلة ، انهم ما زالوا لا يواجهون مشكلة".

٨ ـ عبد المعين موسى كما ينقل عنه ديفيد كورن

“ Capital Games,” *The Nation*, February 10, 2002, p. 2 of online version.

٩ - www.wluml.org , found under “Part One: The context of our Struggle”

١٠ ـ ماثيو أي. ليفيت Mathew A. Levitt شهادة امام لجنة النشاط المصرفي والاسكان والشؤون الحضرية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي (اللجنةالفرعية للتجارة الدولية والشؤون المالية) ، حول دور الجمعيات الخيرية والمنظمات غير الحكومية في تمويل النشاطات الارهابية ، ١ اغسطس (آب) ٢٠٠٢.

١١ ـ في كتابها "في عالم مشتعل" *World on Fire* (New York: Doubleday, 2003) تكتب الاكاديمية من جامعة يال ، ايمي تشوا Amy Chua انه "إذا كان الاميركيون اليهود يُعتبرون اقلية اثنية في الولايات المتحدة فهم لا يسيطرون قطعا على الاقتصاد الاميركي...وليس هناك يهودي بين أثرى عشرة اميركيين".

١٢ - “ Numbers in the News: Is there really an army of terrorists in our midst?” *New York Times Magazine*, February 26, 2002, p. 12.

١٣ - “ Mandela condemns US stance on Iraq,” www.bbc.co.k, January 30, 2003.

١٤ ـ هذا المشهد الادائي صوره السينمائي المستقل مايك داوني Mike Downie والبروفسيور في العلوم السياسية رون ديبرت Ron Diebert وبثه برنامج Big Ideas على قناة تي في اونتاريو TVOntario ، 24 نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٢. [انظر الفيديو كليب].

١٥ ـ مثال ساطع آخر على هذه النقطة يظهر في صفحة الشكر والتقدير من كتاب *The America the Rest of the World Knows* (Toronto: McClelland & Stewart, 2003) . فان مؤلف الكتاب الصحافي بيتر سكوين Peter Scowen الذي يعمل في صحيفة تورنتو ستار *Toronto Star* يحمل على اميركا بوصفها انتهازية وخادعة وعموما تنتهك مُثُلها ذاتها المحبة للحرية. ولكن سكوين في التعبير عن شكره يقول ، "بعنقي دين لقسم ارشيفات الأمن القومي الذي اجبرت جهوده التي لا تكل وزارات ووكالات مختلفة في حكوم الولايات المتحدة على تقديم وثائق قيمة للغاية على مضض وجعلها متاحة على شبكة الانترنت" (ص ٦). ان سكوين مثال ممتاز على شخص يستطيع ان ينتقد الولايات المتحدة بكل سهولة لأنها بلد يعري نفسه امام خصومه وليس فقط امام المعجبين به.

١٦ ـ للاطلاع على المزيد انظر عمل بسام طيبي:

Bssam Tibi, *The Challenge of Fundamentalism: Political Islam and the New World Disorder* (Berkley: University of California Press, 1998), p. 205.

١٧ - Amin Maaluf, *In the Name of Identity: Violence and the Need to belong* (New York: Arcade Publishing, 2001), p. 106.

١٨ - James Lyons, “Islamic court condemns author who

depicts Jesus as homosexual," *The Independent*, October 30, 1999, p. 1 of online version.

١٩ ـ جيمس ليونز ، المصدر السابق.

ردا على الشيخ عمر اصدرت مجموعتان للدفاع عن حقوق المثليين هما Lesbian Avengers و Outrage "فتوى شاذة" ضده. وقيل ان الفتوى حكمت على عمر بكري محمد "بتعذيبه من خلال اللواط به دون توقف لمدة الف عام". مسكين ذلك الشخص الذي سيتولى تعذيبه بهذه الطريقة.

الفصل التاسع

نشكر الله على الغرب

انها ساعة العصر من يوم الجمعة في جامعة تورنتو. شبان مسلمون يتقاطرون خارجين من قاعة المناضرات في هارت هاوس ، المركز الطلابي ذي الطراز الغوطي في حرم الجامعة. كانوا يصلُّون في البقعة نفسها التي شحذ فيها رؤساء حكومات ورؤساء جمهوريات محاجَّاتهم وتبادلوا الطرائف فيما بينهم. صور مؤطرة لزوار مشهورين عالميا تزيِّن الجدران. ولكن المرء لا يرى هذه الصور في أغلب اوقات العصر من يوم الجمعة لأنها تُغطَّى بمربعات من الخيش المخاط بإناقة. مركز هارت هاوس ثبَّت خطَّافات حائطية متينة على جانبي كل صورة من الصور ليمكن تعليق قماشة القنب فوق الوجوه ـ في بادرة احترام لمن يريدون التضرع الى الله لا لمخلوقات الله. يتساءل المرء ما إذا كان نظام طالبان فكَّر ذات يوم ، بأي حال من الاحوال ، في تغطية تماثيل بوذا بدلا من تفجيرها. كما يتساءل المرء ما إذا كان الطلاب المسلمون يعرفون ما يتمتعون به هنا.

ولا أعني بكلمة "هنا" مجرد مدينة تورنتو ذات الطابع المتميز بل خذوا مدينة هاليفاكس ايضا. فأنا لا أتوقع ان أرى إلا نوعين من الازياء هناك: الطرطان (نوع من القماش الصوفي المخطط) الذي يرتديه الرجال من العاملين في الفنادق السياحية والبذلات العسكرية للجنود المتمركزين في القاعدة القريبة. وذات يوم ممطر من ايام الجمعة في هاليفاكس لمحتُ رجلا يرتدي لباس العربي الصحراوي بكامل قيافته: عباءة بيضاء فضفاضة وعقال ونعل وحتى عصا معقوفة تُستخدم للإتكاء عليها اثناء المشي. وبسبب تأخره عن صلاة الجمعة كان الرجل يؤشر بيده لإيقاف

سيارة اجرة فيما هو يتكلم على هاتفه الجوال. قاطعتُه لأسأله السؤال البديهي في هذه الأحوال. قال لي ابراهيم (نعم ابراهيم آخر) انه يرتدي حلته الاسلامية كل يوم جمعة ، وهو يفعل ذلك منذ عشر سنوات. استنطقتُه بالسؤال ، "هل تعرَّضتَ الى مضايقات؟" ولا حتى مرة واحدة ، بل على العكس تماما: في جامعة دالهوسي حيث يبيع ابراهيم سندويشات السجق الساخنة يطلقون عليه بتحبب لقب "عراب السجق" (١). (سندويش السجق يُسمى في الغرب الناطق بالانجليزية هوتدوغ hotdog وكلمة عراب الانجليزية هي غودفاذر godfather ويبدو ان حس الفكاهة عند الكنديين ابتدع تعبير "دوغفاذر" dogfather الطريف الذي يجمع بين الكلمتين ـ المترجم).

لاحقا ، في مطار هاليفاكس ، جلَستْ امرأة مسلمة قبالتي في الصالون. كانت ملفَّعة بالسواد ، في كل شيء حتى قفازها الجلدي. ورغم الحركة النشيطة في الصالون فانه لم يكون ضاجا بالزوار. كان الرواد يتمهلون في احتساء القهوة للتمتع بمذاقها قبل ابتلاعها. ولكني مع ذلك كنتُ الوحيدة التي أُراقب تلك المرأة. لم يكن الأمر وكأنهم يحاولون ان لايبدوا متطفلين. كل ما هنالك ان احدا لم يشعر انها تتطفل عليه. قبل التوجه الى البوابة نهضتْ المرأة وعدَّلت عباءتها. ومع ذلك لم توجَّه أي نظرات صوبها. وعندما غادرتْ الصالون رأيتُ رأسين يرتفعان لبرهة ثم يعودان الى حل الكلمات المتقاطعة.

مثل هذه القصص تتعارض مع رد الفعل المبالغ بتصويره ضد المسلمين. لا أنكر ان الغضب تفجر منذ ١١ سبتمبر (اليول) ضد البعض من ذوي "السحنات العربية" (بينهم يهود اسرائيليون) (٢). والذين تعرضوا الى استفزازات عليهم ان يرفعوا صوتهم. فأنا بالتأكيد اتصلتُ بوسائل الاعلام خلال حرب الخليج عام ١٩٩١ عندما ساقني حارس الى خارج

احد المباني الحكومية من دون سبب واضح. ولكن ما يندر التدقيق فيه وقياسه وترويجه هو معكوس "معاداة المسلمين" ـ مظاهر اللياقة العفوية تجاه المسلمين.

في شمال اميركا تبدَّت هذه اللياقة بأشكال لا تُعد ولا تُحصى. فبعد ١١ سبتمبر (ايلول) مباشرة اتصل رجال دين مسيحيون ويهود بزعماء مسلمين واقاموا صلوات متعددة الأديان وعقدوا مؤتمرات صحافية مشتركة ونظموا حملات لجمع التبرعات بمشاركة ممثلي هذه الاديان لدفع رسوم المحامين المطلوبة من المسلمين الذين وكَّلوهم للدفاع عن انفسهم ضد عسف السلطات. وفي ليلة الاعتداءات الارهابية ذاتها عندما عقدت الصدمة ألسِنة الغالبية منا ، تلقيتُ مكالمة هاتفية من كاهن كان من ابرز رجال الدين في تورنتو. أراد ان يطمَئن على سلامتي وان يعرف كيف يستطيع المساعدة على التصدي للكراهية التي قد أُواجهها الآن. وخلال الايام الثلاثة التالية تلقيتُ من تعابير الاهتمام والرعاية التي ابداها اصدقاء يهود اكثر من أي احد آخر. وكشفت احاديثي الخاصة مع مسلمين شباب عن الكثير من الشيء نفسه: معلمون ، جيران ، زملاء في العمل ، ومستخدمو غرف الدردشة على شبكة الانترنت كلهم كانوا قد هيأوا انفسهم لمواجهة أي عقول ضيقة الافق.

حاولتُ الابلاغ عن مظاهر اللياقة واللطف هذه الى الشرطة ، والى منظمة مناهضة للعنصرية والى خبراء في جمع الاحصائيات والى مؤسسة الارسال الوطنية. الثلاثة الاوائل لم تكن لديهم فكرة عما ينبغي عمله بالأنباء الطيبة التي نقلتُها اليهم. ومؤسسة الارسال؟ الشخص الذي اتصلتُ به هناك ـ رجل قوقازي ، إن كان لذلك من أهمية ـ أجاب ان إيراد هذه الالتفافات الكريمة قد يُعتبر نفيا عنصريا للأحقاد التي يعانيها كثير من المسلمين. وسأل ، "بماذا سنرد على ذلك؟" حاولوا الرد بالآتي:

إذا كانت معاني الاسلام الخفية تستحق تسليط الضوء عليها فكذلك تستحق معاني الغرب.

اننا لا نتبادل الاستبعاد بين بعضنا بعضا ، بين المسلمين والغرب ، وحتى الاميركيون يؤكدون لنا هذه الحقيقة. فان لدى جورجتاون ، وهي جامعة يسوعية مرموقة في واشنطن دي. سي ، إماماً. ولدى القوات المسلحة الاميركية أئمة. وفي اكتوبر (تشرين الأول) عام ٢٠٠٢ اعاد بريد الولايات المتحدة اصدار طابع من الدرجة الاولى لإحياء مناسبة العيد الذي يحتفل به المسلمون في سائر ارجاء العالم. ونقلت صحيفة "عرب نيوز" عن عزيزالي جعفر قوله "ان هذه لحظة تفتخر بها الخدمة البريدية والجالية المسلمة والاميركيون عموما" (٣). وجعفر هو نائب رئيس دائرة البريد للشؤون العامة والاتصالات. طابع العيد قد يكون رمزية مُغرضة ولكن ان يكون مسلم مسؤولا تنفيذيا كبيرا في مؤسسة اميركية حيوية فليس في هذا أي إغراض.

الجمعية الاسلامية في اميركا الشمالية (آي اس ان أي) تشهد على الحراك الذي يتمتع به المسلمون في هذه المنطقة من العالم. فالجمعية تعلن "ان لدى المسلمين الاميركيين بوصفهم مواطنين فرصا كثيرة للدراسة والعمل. وتمتد هذه الفرص من التعيينات السياسية التي يقررها رئيس الولايات المتحدة الى الوظائف في قطاع الخدمة العامة والتدريبات والزمالات في البيت الابيض ووزارة الخارجية" (٤). وكان نجيب حلبي ، والد الملكة نور ملكة الاردن ، رئيس ادارة الطيران الفيدرالية في زمن الرئيس كندي. وتشير الملكة نور في مذكراتها الى ان الرئيس شخصيا طلب من حلبي ان يتولى هذا المنصب (٥). يا له من تناقض مع طريقة العربية السعودية في تعاملها مع "الأغراب" العرقيين.

كيف يتمكن المعارضون لاسلام الصحراء من كسب رزقهم بعد نفيهم من بلدانهم؟ كثير من المغتربين والمبعدين يزاولون التدريس والكتابة بحرية في الكليات الاميركية. سألتُ عمتي ، "هل من الصعب ان يكون المرء مسلما اميركيا اليوم؟" عمتي تعيش في ولاية تكساس ، موطن جورج دبليو بوش.

هزَّت عمتي كتفها قائلة ، "كلا ، ليس إذا كان لديك شيء من الثقة. كل ما عليكِ ان تفعليه هو أن لا تختفي". في ١١ سبتمبر (ايلول) كانت عمتي تعمل معلمة في مدرسة اسلامية في هوستن. سألتُ عن رد الفعل الذي واجهته المدرسة من اهل المنطقة. تحدثت عمتي عن رسائل رحيمة واتصالات هاتفية وبطاقات وزهور ارسلها تكساسيون من عامة الناس. ويتفق ما تتذكره عن ذلك الوقت مع ما سمَعَته صحيفة لوس انجيليس تايمز من المركز الاسلامي لجنوب كاليفورنيا. إذ قال مدير المركز للشؤون الدينية "نحن مُغمَرون" (٦) ـ وكان يقصد ان المسلمين غُمروا بمشاعر التعاطف الحارة معهم. وفي اعقاب ١١ سبتمبر (ايلول) زار صحافي مدنا ريفية اميركية ترفع الاعلام تعبيرا عن الروح الوطنية ، ولمس اهتماما مماثلا بالمسلمين. وكتب لي لاحقا ، "آمل أن يسجل أحد ذات يوم الموجة العارمة من الانفتاح والكرم والذكاء التي انطلقت في اميركا على امتداد نحو شهرين بعد الاعتداءات" (٧). لهذا الصديق ميول يسارية ولكنه ، مَثَله مثلي أنا ، لا يفهم لماذا يكون من العنصرية في شيء الاعتراف بما موجود من مشاعر انسانية نبيلة في ارض الله الواسعة.

الصفة التي افرح بها أكثر من سواها هي حب الاستطلاع. وقد قالت الناشطة المسلمة سارة الطنطاوي لصحيفة لوس انجيليس تايمز ، "أنا سوداوية ولكني مفعمة بالأمل نتيجة الجدية والصدق اللذين يبديهما الناس

في محاولتهم معرفة الاسلام" (٨). وبعد ١١ سبتمبر (ايلول) اصبحت ثلاث طبعات من القرآن على قائمة اكثر الكتب مبيعا في موقع شركة امزون لبيع الكتب على الانترنت amazon.com .
وقررت جامعة نورث كارولاينا إلزام الطلاب الجدد بقراءة كتاب عن القرآن. ورغم ان هذا القرار اسفر عن رفع دعوى قانونية باءت بالفشل فان تعليقا لا يقل مغزى على المجتمع الاميركي صدر عن رئيسة الاتحاد الطلابي للجامعة البالغة من العمر ٢١ عاما. إذ قالت جينفر دوم ، "شعوري هو ، إذا كنتَ غير مستعد لقراءة افكار ليست افكارك وقد تختلف معها ، فانك لا تنتمي الى مؤسسة للتعليم العالي".

روح الاستطلاع هذه هي الهواء الذي اشعر بالامتنان لاميركا الشمالية عليه. ففي كثير من بقاع العالم الاسلامي ، إذا كان المرء أكثر مما مقرر له ان يكون ، تكون قيمته اقل. وفي كثير من اميركا الشمالية يتمتع المسلمون بالحرية في ان يكونوا ذوي ابعاد متعددة. وهذه هي حال أناس من شتى الاعراق. وكان من ضحايا ١١ سبتمبر (ايلول) في نيويورك الأب ميكال جادج ، وهو قس كاثوليكي مثلي نعاه الاطفائيون الذين رعاهم طيلة سنوات. تعددية البشر ، تعددية الافكار ـ ولكم ان تجدوا العلاقة بين الاثنين. أنا وجدتُها ، وهذه العلاقة انقذت إيماني بالاسلام ، حتى الآن.

لو نشأتُ في بلد مسلم لصرتُ على الارجح ملحدة في قرارة نفسي. ولأني اعيش في هذا الركن من العالم حيث استطيع ان أفكر وأختلف واغور اعمق في أي موضوع ، فقد تعلمتُ لماذا ينبغي ان لا أفقد الأمل بالاسلام بعد.

بعد هذا القدر من الاستطلاع ، يقودني تفسيري الخاص للقرآن الى ثلاث

رسائل تتكرر باستمرار. أولا ، ان الله وحده يعلم حقيقة كل شيء علم اليقين. وثانيا ، ان الله وحده يحاسب غير المؤمنين ، وذلك أمر منطقي إذا اتفقنا على ان الله وحده يعرف ما هو الايمان الحقيقي. (ونظرا لتقلب أمزجة القرآن من موقف الى نقيضه فان العلي القدير وحده الذي يعرف كيف يوفق بين هذه المتناقضات). وعلى البشر ان يحذّروا من الممارسات المنكَرَة ولكن هذا هو كل ما يستطيعون ان يفعلوه لتشجيع التقوى. وثالثا ، ان انسانيتنا في المحصلة النهائية تجعلنا احرارا في التعامل مع مشيئة الله ـ من دون قسر على إتباع نهج مفروض. والقرآن يقول في سورة البقرة "لا إكراه في الدين" (٩) وهذا ما تردده سورة "الكافرون" في الآية القائلة "لكم دينكم ولي ديني" (١٠) ، وما بينهما الآية التي تقول "...ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما أتاكم..." (١١) أليست هذه هي الحقيقة.

تفسيري يلقي ضوء على السبب في أني ، كمسلمة ، لا أستطيع السكوت على ما في الاسلام من عنصريين أكانوا متطرفين من امثال اسامة بن لادن أو ينتمون الى الاسلام السائد من امثال معلمي في المدرسة الدينية الاستاذ خاكي. فهم بعد توصلهم الى خلاصاتهم الخاصة بهم "من دون اكراه" ينبرون لمنع الآخرين من عمل ما عملوه هم انفسهم. وعند هذه النقطة تتحول تعاليم القرآن بالنهي عن الممارسات المنافية للدين الى سلطة لا يقرها القرآن لترويع الآخرين وتخويفهم. بحسب قراءتي أنا ينبغي ان لا نتمتع بحرية الاستطلاع والاكتشاف فحسب بل علينا ان نتوثق من توافر هذه الحرية لكل **الآخرين** ايضا. وأي شيء أقل من ذلك يطعن في حكم الله بوصفه صاحب الكلمة الأخيرة. ومثل هذا الاجتهاد الفردي المستقل موقف منطقي وصائب من حيث الامكان ومنسجم كل الانسجام مع المُثُل التي احملها كمواطنة غربية.

اني لا أُشير الى النزعة الاستهلاكية. وإذا كنتم تظنون ان المُثُل الغربية لا يمكن إلا ان تحيلنا عبيدا مخبولين لآخر الصرعات فقولوا لي لماذا لم أُعالج عذاباتي الروحية بالتسوُّق (إلا في حالة واحدة ، كانت لشراء نسخة بالانجليزية من القرآن). فالقناعة الآنية ما كانت لتقنعني خلال اللحظة الحاسمة التي سألني فيها مديري كيف استطيع التوفيق بين ديني الاسلامي وجلد شابة مغتَصبَة في نيجيريا. وكوني انسانة أُثمِّن حرية الفكر قبلتُ بحقه في السؤال. أما كنتم تقبلون؟ أم كنتم سترفعون دعوى عليه بتهمة المضايقة والتحرش؟ هل كان يُسكتني أم يشير الى إيمانه بقدرتي على حل المعضلة بإعمال الفكر؟ وفي قبول التحدي الذي واجهني به هل كنتُ امبريالية متخفية أكره ذاتي أم نصيرة للحياة المجرَّبة؟ كمسلمة كيف كنتُ سأنشا لو أصريتُ على "حقي" في ان اكون متحررة من التفكير؟

أنتقل الآن الى سؤال اطرحه على الانسانيين العلمانيين منكم. اني احترم خياركم في القيام بقفزة الى مضمار عقيدتكم الخاصة ـ عدم الايمان ـ ولكن ماذا كنتُ سأجني لو تخليتُ عن ايماني قبل الاوان؟ لقد الزمني الدين بأن لا انحني لأحد إلا لله الساكن متململا في ضميري. وأكثر من ذلك ان الدين علَّمني ان لا اخلطُ بين التسلط والسلطة. وقد تعيشون لتسمعوا المزيد عن ذلك لأن الذين يشجبون الدين عموما على انه "لاعقلاني" يغفلون احيانا ان العقلانية يمكن ان تغدو ارثوذكسية بذاتها.

تسليمة نسرين ، الطبيبة فضلا عن كونها ناشطة نسوية ، قالت لي انه "ليست هناك آخرة. وإذا متِّ فانك ميتة. وتلك هي النهاية. الخاتمة" (١٢).

أجبتُ ، "من المنظور العلمي المحض لا شك في ذلك على الاطلاق.

ولكن مَنْ القائل ان المنظور العلمي متفوق على أي منظور آخر؟"

"لأنه المنظور الصحيح".

"الستِ تناضلين من اجل الارثوذكسية؟"

"اني اناضل من اجل الحقيقة. فالنساء المسحوقات يلجأن الى الدين بحثا عن السلوى والدين موجود لهذا الغرض. انه للضعفاء والعاجزين والجهلة والمغفلين. ولكن لماذا ينبغي ان نكون ضعفاء وعاجزين اصلا؟

"أو لا تعرفين يا تسليمة ، يمكن لمنتقديك ان يقولوا انكِ تقعين في المطب نفسه الذي تدَّعين انهم ، ان المتدينين يقعون فيه. فانكِ تؤمنين بسمو العلم فوق كل ما عداه".

ضحكتْ قائلة ، "لستُ من المؤمنين بسمو العلم على كل شيء سواه. فأنا أُريد الحقيقة. ليس الحقيقة المطلقة التي هي حقيقة الله بل الحقيقة بمعناها المتعارف عليه".

"لكنكِ لا تؤمنين بالله".

بعد مطارحات اخرى بانت حقيقتها المطلقة حين قالت ، "لا أُريد الغاء الدين إلا لأن الدين ضد الانسانية. لو لم يكن الدين ضد الانسانية لما كانت عندي مشكلة معه". حسنا ، ان هذا موقف معقول بما فيه الكفاية.

ما ليس معقولا بالقدر نفسه هو الافتراض ان الدين لا بد ان يكون "ضد الانسانية" بلا هوادة. فان مايكل مور ، أشد انصار سلطة الشعب

استعراضا وأعلاهم صوتا في اميركا ، تعلَّم العدالة من الديانة الكاثوليكية ، كما يقول صديقه الحميم جيف غيبس. وطبقا لما يقوله جيمي كارتر فان رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن والرئيس المصري انور السادات تصافحا مصافحة يعود الفضل فيها بدرجة ليست قليلة الى قيمهما اليهودية والاسلامية. وان متطرفا هندوسيا اغتال مهاتما غاندي مع ان غاندي صاغ مفاهيمه التي هزت الدنيا في المقاومة اللاعنفية ، أو "ساتياغراها" *satyagraha* ، من الديانتين الهندوسية واليانية. وفي الواقع اني لم اسمع قط انسانيا علمانيا ملتزما يشجب الدلاي لاما لاعتناقه الدين ـ والدلاي لاما شخص ورث موقعه هذا بسبب اصله ونَسَبه لا أكثر.

الدلاي لاما ومارتن لوثر كنغ وديسموند توتو ومالكوم أكس ـ كلهم يمكن أن تُغفَر لهم "ديانتهم" بسبب ما حققوه من خلال الدين. وهم جميعا انتشلوا انفسهم ـ وجماعاتهم ـ من انماط الخنوع التي تقترن بصورة الضحية. وللمسلمين في انحاء العالم نستطيع نحن في الغرب ان نكون بشائر هذا التحول. ونحن نستطيع ان نكون ذلك لا بمجرد ان نُدين الاسلاميين الفاشيين وانما بأن نرفض ان نصبح صنميين اسلاميين ، اولئك الذين يفاقمون عقدة الدونية عند المسلمين بترك أعباء التغيير على كاهل الاخرين. اننا بحاجة الى اقتلاع ذهنية الضحية التي في نفوسنا.

لن يكون ذلك سهلا. وسأُوضح ما اعنيه من خلال فئة اخرى من "الضحايا" الممتازين ، هم الاميركيون السود الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى. ففي صيف ٢٠٠١ زرتُ ومعي ميشيل مدينة اتلانتا بولاية جورجيا. وذات يوم من ايام السبت طفنا في مركز جيمي كارتر الرئاسي ، الذي يحمل اسم زعيم جعل الحقوق المدنية حجر الزاوية في برنامج سياسته الداخلية. وباستثنائي أنا واثنين من العمال ، كان جميع مَنْ في

المركز من البيض. لم يمر اسود واحد خلال زيارتنا التي استمرت ثلاث ساعات. بعد ذلك توجهنا الى ضريح مارتن لوثر كنغ فوجدناه مَعْلَمَا يغص بالزوار من الاميركيين السود وبعض البيض. تساءلتُ كم عدد الذين يزورون مركز كارتر ايضا وأجريتُ تحرياتي الخاصة.

ما من احد ابدى اهتماما بمعرفة شيء عن مركز كارتر. وقد ردَّ زوجان بحدة ، "لماذا نضيع وقتنا في ضريح رجل ابيض؟" ام م م ، لأنكم بتكريم المحترم كنغ يُفترض أنكم تُحَيِّون فضيلة انتهاء التمييز العرقي؟ ولأنه ليس لون بشرة الانسان بل مضمون شخصيته هو الذي كان أثمن شيء بنظر صاحب الرؤية الذي تلتقطون الآن الصور الفوتوغرافية عند قبره وتنعمون بما نلتوه اخيرا من حرية في ظله؟

اني افهم احباط الاميركيين السود ازاء مفهوم الحرية ذاته. وهو احباط له ما يبرره. فخلال زيارتي لمدينة اتلانتا ذكرت صحيفتها ان محافظات عدة في ولاية جورجيا تدفع رسوما ثابتة لمحامين "تعاقديين". وكان هؤلاء المحامون يعملون لا للدفاع عن موكليهم الذين غالبيتهم من الفقراء والسود وانما للتسريع بإصدار الاحكام عليهم ليمكن اخضاع الوجبة التالية من المتهمين الى هذه العملية المهينة لغرض التعجيل بغلق ملفات القضايا المتراكمة. ولكن غالبية الذين كانوا يزورون نصب كنغ ذلك اليوم لم يكونوا من المسحوقين ماديا بل كانوا يستعرضون ملابسهم الفاخرة التي تحمل علامية "نايكي" الشهيرة واحدث ما توصلت اليه التكنولوجيا من كاميرات رقمية وسيارات رباعية الدفع. والأشخاص الذين تحدثتُ اليهم بدوا لامبالين بما حققوه من مكانة اجتماعية مع الارتقاء الى الطبقة الوسطى ـ ولا بالرئيس الذين ساعدهم على بلوغ هذه المكانة. وكشف مزيد من الاحاديث انهم اختاروا البقاء أسرى الإشفاق على الذات مثلهم مثل كثير من المسلمين في الغرب.

على المسلمين ان يحذروا حذرا مضاعفا من السلبية. إذ بسبب إتكالنا المفرط على الله ، نقلل نحن ايضا في احيان كثيرة من اهمية الارادة الشخصية الواعية. "إن شاء الله" ، هي العبارة التي نزفرها بالسليقة. كلا ، "نحن" الذين يجب ان نشاء. وعلينا ان نكون شركاء الله في الرحلة الى العدالة. البعض منكم قد يسأل ، "ولكن مَنْ نحن؟" فالراسخ في أذهاننا ان "الله اكبر!" ولم افقه معنى هذه العبارة إلا بعدما ثقَّفتُ نفسي بنفسي. الله أكبر ـ انه أكبر من مخلوقاته. نعم ، ولكن هذا ليس اعلانا عن ضآلتنا. ومن حيث الجوهر فان صرخة "الله اكبر!" تذكير بأن نقرن عزيمتنا الذاتية بالتواضع. أقرُ بأنني لا استطيع ان أكون نرجسية روحية. فهل يمكن قول الشيء نفسه عن اولئك الذين يطلقون فتاواهم على العقل؟ والذين يستمعون الى مطلقي الفتاوى منا؟

خلال زمن حياتي انتقل الارهابيون من ازهاق ارواح تعدُّ على اصابع اليد الى ازهاقها بالمئات ، بل بالآلاف ، واحتمال ازهاقها بمئات الآلاف. وفي الفترة نفسها تقريبا استنكر الفاتيكان رسميا معاداة السامية والعمليات الاستشهادية محاولا في الوقت نفسه ، بصورة علنية أكثر من أي وقت مضى بفضل الكاثوليك المنشقين ، ان يعالج قضية اعتداء قساوسة جنسيا على اطفال ونساء. وقد كتبتُ هذه الرسالة المفتوحة مدركة هاتين الحقيقتين. فالاصلاح الاسلامي الليبرالي يمكن ان يحدث ـ ليس لدى المسلمين "بابا" عليهم اقناعه بالاصلاح ـ ولكنها قضية حياة أو موت.

يوسي كلاين هاليفي ، وهو صحافي اسرائيلي ويهودي مؤمن وصديق طيب ، يعتقد اني كنتُ قاسية عليكم بلا داع. وهو يذكّرني بأن "الاسلام واحد من ديانات العالم الكبرى ـ وهذه ليست مجرد عبارة تُقال" (١٣). نشر يوسي كتابا بعنوان "على باب جنة عدن" *At the Entrance to the Garden of Eden* يتناول فيه محاولته الصلاة مع المسلمين

والمسيحيين في ارض القدس. ومن بين جميع المسلمين الذين فاتحهم كان الصوفيون وحدهم الذين رحبوا به للسجود بجانبهم. وانها لخسارة يومية ان يكون الصوفيون "هامشيين على نحو لا معقول" في الاسلام ، على حد تعبير يوسي نفسه (١٤).

مع ذلك يناشدني يوسي ان اضع الأمور في نصابها الصحيح. وهو يقول "ان الاديان تمر بأوقات عصيبة. فكري في الديانتين التوحيديتين الأخريين بعد الف واربعمائة عام على ظهورهما: المسيحية في فترة محاكم التفتيش والمجازر ، واليهودية في زمن القضاة البدائي". ولكن شباب الاسلام النسبي كديانة لا يبرئ مسلمي اليوم البالغين من شر اعمالنا ـ وخاصة تقليدنا المستمر لخروقات قروسطوية. ويوسي نفسه يروي قصة الفلسطيني الذي ابدى استعداده للتعايش عن طيب خاطر مع اليهود على ان يخضعوا لحكم اسلامي ـ يعتقد هذا العربي الدارس في بوسطن ان الحكم الاسلامي هو النظام الطبيعي. وهذا ، على ما أظن ، تحامل يستحوذ على العقلية الاسلامية السائدة.

يوسي يختم ما لديه بنصيحة أخ اكبر وأرصن: "سردُكِ بحاجة الى مزيد من الحب ، ليس للملالي وانما لبلايين الارواح طيلة قرون من الزمان سجدت على بُسُط صغيرة مطرزة للصلاة ونذرت حياتها التعيسة الضئيلة الى المجد في الأعالي". اعذروني لإفساد اللحظة ولكن لماذا ينبغي ان يكون هناك هذا العدد الهائل من الأرواح "التعيسة" والضئيلة" ، لا سيما في ظل الله الرحمن الرحيم؟ وأرجوكم ان لا تقولوا لي ان هذه الأشياء تحدث حين تكون الأديان في موقف دفاعي لأنه حتى عندما دخل الاسلام عصره الذهبي كانت الارواح صغيرة والاكاذيب كبيرة. تذكَّروا ان الخليفة المأمون تبجح بحرية الارادة ولكنه كان يجلد الناس لاختلافهم مع تفسيره للاسلام. لم يتغيرالكثير على هذا الصعيد اليس كذلك؟

وهكذا أصل الى خضتي الأخيرة للاسلام بانصاف. وما إذا كنتُ سأُخلّفه وراءي فان هذا عائد لي وحدي. ولكنه بمعنى آخر عائد لنا نحن. ما أريد رؤيته هو رغبة في الاصلاح.

• هل سنصحو من طقوسنا ونلهب مخيلتنا لتحرير المسلمين في انحاء العالم من الخوف والجوع والامية؟
• هل سنتجاوز الخرافة القائلة اننا لا نستطيع ان نستجوب القرآن؟ فنحن ، بالسؤال صراحة من أين تأتي آياته ، ولماذا هي متناقضة ، وكيف يمكن تفسيرها تفسيرا مختلفا ، لا نخرق شيئا سوى التوتاليتارية القَبَلية.
• إذا كان تحليلي خاطئا هل بإمكانكم **أنتم** ان تفسروا لماذا لا يتمخض أي دين آخر عن مثل هذا العدد من البشاعات الارهابية والانتهاكات ضد حقوق الانسان باسم الله؟ وهل تستطيعون ان تفسروا ذلك من دون توجيه اصابع الاتهام الى كل الآخرين باستثناء المسلمين؟

كاتبوني على الموقع www.irshadmanji.com . فأنا اتطلع الى مناقشة صادقة.

المؤمنة (حتى الآن)
إرشاد

حاشية: هناك نكتة رائعة عن قس وحاخام وملا. يلتقي الثلاثة في مؤتمر حول الدين ، ثم يجلسون مع بعضهم بعضا يتبادلون اطراف الحديث عن دياناتهم. ينتقل الحديث الى موضوع المحرمات.

يقول القس للحاخام والملا ، "انتما يا سادة لا يُعقل ان تقولا لي انكما لم تأكلا قط لحم الخنزير".
"بالمرة" ، يؤكد الحاخام.

"قطعا لا" ، يصر الملا.
ولكن القس يبقى في شك. "هيا ، افصحا ، ولا مرة واحدة؟ ربما في سورة تمرد عندما كنتما شبابا؟"

يعترف الحاخام قائلا ، "حسنا ، عندما كنتُ شابا قضمت ذات مرة قطعة من لحم الخنزير المقدَّد".

ويقول الملا ضاحكا ، "اني اعترف. ففي نوبة من طيش الشباب جرَّبتُ شرحة من لحم الخنزير مع ضلعها..."

ثم ينتقل الحديث الى الشعائر الدينية التي يمارسها القس.

ويقول الملا ، "لا يمكنك ان تقول لي انك لم تمارس الجنس ذات يوم".

يحتج القس قائلا ، "طبعا لا. فقد أديتُ قَسَم العفة".

الملا والحاخام يديران عيونهم في مآقيها.

يقول الحاخام مداعبا ، "ربما بعد بضعة كؤوس".

ويتساءل الملا ، "ربما في لحظة غواية اعترى الضعف ايمانك".

يعترف القس قائلا ، "طيب طيب. مرة واحدة. عندما كنتُ ثملا في مدرسة دينية كانت لي علاقات جنسية مع امراءة".

يقول الحاخام والملا ، "هذا ألذ من لحم الخنزير ، أليس كذلك".

هوامش الفصل التاسع

١ ـ ابراهيم ، حديث في هاليفاكس ، ٢٧ سبتمبر (ايلول) ٢٠٠٢.

٢ - Josh Tyrangiel, “Israeli Jews in the Dragnet,” *Time Canada*, December 10, 2001. P.41.

٣ - David Hassan, “US to reissue Eid Stamp on Oct. 10,” *Arab News*, September 17, 2002, p. 1 of online version.

٤ - WWW.isna.net

٥ - *Queen Noor, leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life* (New York: Miramax Books, 2003),p. 18.

٦ ـ محمود عبد الباسط كما ينقل عنه سولومون مور

Solomon Moore, “After the Attack: Expressions of Support Surprising to Muslims,” *Los Angeles Times*, September 26, 2003.

٧ ـ دوغ سوندرز Doug Saunders في مراسلة بالبريد الالكتروني.

وقد مضى الى الاعتراف بأن "اجراءات حماية الامن الداخلي والاعتقالات وعمليات الابعاد الجماعية وما الى ذلك اسفرت عن استهداف ثقافات اثنية كاملة في الولايات المتحدة وتجريمها جماعيا. وما يثير الاهتمام اني لا اعتقد ان هذا قد تحول الى حملة شعبية لتصوير الاميركيين المسلمين بصورة الأشرار مثلما اقترن توقيف اليابانيين برد فعل عنصري حقيقي ضد الاسيويين بين السكان عموما. واحسبُ ان هذا ربما يعود في جزء منه الى ان الاميركيين شعب شديد التدين وان ايمانهم المسيحي العميق جدا يجعل ممارسات الاسلام ومعتقداته تبدو معقولة تماما ، اكثر مما يجعلها تبدو في اوروبا على سبيل المثال".

٨ ـ سارة الطنطاوي كما ينقل عنها سولومون مور

Solomon Moore, “After the Attack: Expressions of Support Surprising to Muslims,” *Los Angeles Times*, September 26, 2001.

٩ ـ القرآن ، ٢: ٢٥٦.

١٠ ـ القرآن ، ١٠٩: ٦.

١١ ـ القرآن ، ٥: ٤٩. وثمة آية مماثلة في ١٦: ٩٣ تقول "ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة..."

١٢ ـ مقابلة مع تسليمة نسرين ، تورنتو ، ٢٨ اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٢ [اقرأ النص الكامل]

١٣ ـ يوسي كلاين هاليفي في مراسلة بالبريد الالكتروني ، ٢٦ فبراير (شباط) ٢٠٠٣.

١٤ - Yossi Klein Halevi, *At the Entrance to the Garden of Eden: A Jew’s Search for God with Christians and Jews in the Holy Land* (New York: William morrow, 2001), p. 105.

١٥ ، نعوم كوهين ، كوميدي ومنسق برنامج هزلي عن يهود تورنتو ومسلميها. للاطلاع على المزيد عن ذلك انظر الموقع www.mideastoptimist.com

مراجع اخرى للقراءة

اردتُ لكتاب "المشكلة في الاسلام" ان يكون آنيا كالمحادثة فاخترتُان لا يكون هناك انقطاع في انسيابية هذه الرسالة المفتوحة بإيراد المصادر والهوامش في المتن. ولكني في الترجمة العربية للكتاب قررتُ ايراد الهوامش في نهاية كل فصل نظرا لنشر فصول الكتاب تباعا على الانترنت .

في هذه الاثناء هناك عيِّنة من المصادر والمراجع التي اوصي بقراءتها علما بأني اختلف اختلافا عميقا مع بعض المؤلفين الذين اوصي بقراءتهم. ولكني من المؤمنين بأن تنوع الآراء شيء ايجابي بحد ذاته. وهذه القائمة لا تجمع كل ما استندتُ اليه في بحثي. وموقعي على الانترنت يتضمن الكثير من المصادر الاخرى بينها مقابلات وخطابات وفيديو كليبات.

من الكتب والمقالات الأساسية

- *The Koran*, N.J. Dawood, trans. London: Penguin Classics, 1956 and updated 1999.
- Ajami, Fouad. *Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey*: New York: Pantheon Books, 1998.
- Ali, Tariq. *Shadows of the Pomegranate Tree*. London: Chatto, 1992.
- Ibid. *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity*. London: Verso, 1002.
- Alibhai-Brown, Yasmin. *After Multiculturalism*. London: The Foreign Policy Centre, 2000.
- Armstrong, Karen *The Battle for God: A History of Fundamentalis*. New York: Ballantine, 2000.
- Ibid. *Islam: A Short History*. London: Wiedenfeld & Nicolson, 2000.
- Ibid. "Was it Inevitable?" in James F. Hoge Jr. and Gideon Rose, eds. *How Did This Happen? Terrorism and the New War*. New York: Public Affairs/Council on Foreign Relations, 2001: pp. 53-70.
- Armstrong, Sally. *Veiled Threat: The Hidden Power of the Women of Afghanistan*. Toronto: Penguin, 2002.
- Asfour, Gaber. "Osama Bin Laden: Financier of Intolerant 'Desert' Islam," *New Perspectives Quarterly* 18, no. 1 (Winter 2002): pp.41-43.
- Barber, Benjamin R. *Jihad vs McWorld: How the Planet is both Falling Apart and Coming*

Together and What this Means for Democracy. New York: Times Books, 1995.
- Barlas, Asma. "Believing Women" in *Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qu'ran*. Austin: University of Texas Press, 2002.
- Buckman, (Dr.) Robert. *Can We Be Good Without God? Behaviour, Belonging and the Need to Believe*. Toronto: Penguin, 2000.
- Cohen, Mark. *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1994.
- Counts, Alex. *Give Us Credit: How Muhammad Yunus' Micro-Lending Revolution is Empowering Women from Bangladesh to Chicago*. New York: Times Books, 1996.
- Duran, Khalid. *Children of Abraham: An Introduction to Islam for Jews*. Hoboken, N.J.: Ktav Publishing House/American Jewish Committee, 2001.
- El-Fadl, Khaled Abou. *Speaking in God's Name: Islamic Law, Authority and Women*. Oxford, UK: Oneworld Publications, 2001.
- Ibid. With Tariq Ali, Milton Viorst, John Esposito, et al. *The Place of Tolerance in Islam*. Boston: Beacon Press, 2002. Edited by Joshua Cohen and Ian Lague for Boston Review.
- Fakhry, Majid. *Averroes (Ibn Rushd): His Life, Works and Influence*. Oxford: Oneworld, 2001.
- Feiler, Bruce. *Abraham: A Journey to the Heart of Three Faiths*. New York: William Morrow, 2002.
- Firestone, Reuven *Children of Abraham: An Introduction to Judaism for Muslims*. Hoboken, N.J.: Ktav Publishing House/American Jewish Committee, 2001.
- Friedman, Thomas L. *The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization*. New York: Farrar, Straus Giroux, 1999.
- Georgetown University Center for Muslim-Christian Understanding, papers (eg. "The Need for Civilizational Dialogue" and "Islamists and the Challenge of Pluralism").
- Al-Ghazaly, (Sheikh) Muhammad. *The Future of Islam Outside its Land* (available at www.ghazaly.net).
- Halevi, Yossi Klein. *At the Entrance to the Garden of Eden: A Jew's Search for God with Christians and Muslims in the Holy Land*. New York: William Morrow, 2001.
- Hartman, (Rabbi) David. *A Heart of Many Rooms: Celebrating the Many Voices within Judaism*. Woodstock, Vt: Jewish Lights Publishing, 1999.
- Hofmann, Murad Wilfried. *Islam: The Alternative*. Reading, UK: Garnet, 1993.
- Ibid. *Islam 2000*. Beltsville, Md.: Amana, 1997.
- Ibid. *Religion on the Rise: Islam in the Third Millennium*. Beltsville, Md.: Amana, 2001.
- Hourani, Albert *A History of the Arab Peoples*. New York: Warner Books, 1991.
- Huntington, Samuel. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. New York: Simon & Schuster, 1996.
- Ibn Rushd. *The Books of the Decisive Treatise Determining the Connection between the Law and Wisdom*. Provo, Utah: Brigham Young University Press, 2001.
- Ignatieff, Michael. *Blood and Belonging: Journeys into the New Nationalism*. Toronto: Penguin, 1994.
- Kepel, Gilles. *Jihad: The Trail of Political Islam*. Cambridge: Harvard University Press, 2002.
- Kuala Lumpur International Forum on Islam 2002, proceedings.
- Lester, Toby. "What is the Koran?" *The Atlantic Monthly* (January 1999): pp. 43-56.
- Lewis, Bernard. *The Middle East: 2000 Years of History from the Rise of Christianity to the Present Da*y. London: Weidenfeld & Nicolson, 1995.
- Ibid. *Semites and Anti-Semites: An Inquiry into Conflict and Prejudice*. New York: Norton,

1986.
- Ibid. *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response*. Oxford, New York: Oxford University Press, 2002.
- Maalouf, Amin. *In the Name of Identity: Violence and the Need to Belong*. New York: Arcade Publishing, 2001.
- Mackey, Sandra *Passion & Politics: The Turbulent World of the Arabs*. New York: Plume, 1994.
- Ibid. *The Saudis: Inside the Desert Kingdom*. New York: W.W. Norton, 2002.
- Mahbubani, Kishore. *Can Asians Think?* Toronto: Key Porter, 2001.
- Maimonides. *The Guide for the Perplexed*. Culver City, California: Labyrinthos, 1989.
- Makiya, Kanan *Cruelty and Silence: War, Tyranny, Uprising, and the Arab World*. New York: W.W. Norton, 1993.
- Menocal, Maria Rosa. *The Ornament of the World: How Muslims, Jews and Muslims Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*. Boston: Little, Brown, 2002.
- Morris, Benny. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-199*9. New York: Knopf, 1999.
- Naipaul, V.S. *Beyond Belief: Islamic Excursions Among the Converted Peoples*. New York: Random House, 1998.
- Ibid. "Our Universal Civilization," *The Writer and The World: Essays*. New York: Knopf, 2002.
- Nasrin, Taslima *Meyebela: My Bengali Girlhood*. South Royalton, Vt: Steerforth Press, 2002.
- Ibid. *Shame: A Novel*. Amherst, New York: Prometheus, 1997.
- Pipes, Daniel. *The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy*. New York: St. Martin's Press, 1996.
- Ramadan, Tariq. *To be a European Muslim*. Markfield, Leicester, UK: The Islamic Foundation, 1999.
- Raphael, George. "A is for Arabs," *salon.com* (January 8, 2002 – archived).
- Rubin, Barry and Judith Colp Rubin, eds. *Anti-American Terrorism: A Documentary Reader*. Oxford, New York: Oxford University Press, 2002.
- Rushdie, Salman. *Step Across This Line: Collected Nonfiction 1992-200*2. New York: Random House, 2002.
- Sachedina, Abdulaziz. *The Islamic Roots of Democratic Pluralism*. Oxford, New York: Oxford University Press, 2001.
- Sacks, (Rabbi) Jonathan. *The Dignity of Difference: How to Avoid the Clash of Civilizations*. London, New York: Continuum, 2002.
- Said, Edward. *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*. New York: Pantheon, 1981.
- Ibid. *Orientalism*. New York: Vintage Books, 1979.
- Salem, Ali. *A Drive to Israel: An Egyptian Meets his Neighbors*. Tel Aviv: Moshe Dayan Center for Middle Eastern and African Studies, 2001.
- Sampson, Cynthia and Douglas Johnston, eds. *Religion, The Missing Dimension of Statecraft*. Oxford, New York: Oxford University Press/Center for Strategic and International Studies, 1994.
- Sardar, Ziauddin. "Islam: Resistance and Reform," *New Internationalist* (May 2002): pp. 9-10.
- Shehadeh, Raja. *Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine*. South Royalton, Vt: Steerforth Press, 2002.

- Taha, Mahmoud Mohamed. *The Second Message of Islam*. Syracuse, New York: Syracuse University Press, 1987.
- Tibi, Bassam. *The Challenge of Fundamentalism: Political Islam and the New World Disorder*. Berkeley: University of California Press, 1998.
- United Nations Arab Human Development Report 2002
- Wadud, Amina. *Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspectiv*e. Oxford, New York: Oxford University Press, 1999.
- Warraq, Ibn. *Why I am Not a Muslim*. Amherst, New York: Prometheus Books, 1995.
- Wolfe, Michael and producers of Beliefnet, eds. *Taking Back Islam: American Muslims Reclaim Their Faith*. Emmaus, Pa.: Rodale/Beliefnet, 2002.
- World Bank Research Report: *Engendering Development 2001*.
- Ye'or, Bat *Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide*. Madison, N.J.: Farleigh Dickinson University Press, 2002.
- Zachary, Pascal. *The Global Me: New Cosmopolitans and the Competitive Edge – Picking Globalism's Winners and Losers*. New York: Public Affairs, 2000.
- Zakaria, Fareed *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad*. New York: W.W. Norton, 2003.

شكر وتقدير

انى البس خاتم منقوش بكلمه "الله". و انا البس هذا الخاتم فى إصبعى الزواج لاننى احس بالتعهد العميق مع الله. لذا سابدأ بشكر الله.

آن كولينز من دار راندوم هاوس Random House تأتي ايضا على رأس القائمة ، اولا لشجاعتها في نشر هذه الرسالة ـ الكتاب. ولكن هذا ليس كل شيء. فالأمانة التي تحدثتُ بها عن الاسلام قابَلَتها آن بأمانة مماثلة في كل ما يتعلق بالمخطوطة. وآن بوصفها حاضنة تحتاج الى ممارسة ، ولكن بوصفها محررة وناشرة ما كان لي ان اطمح بأفضل منها.

وأخيرا بودي ان اشكر والدتي على تحليها بالصلابة. فهي على الرغم من كونها مسلمة مؤمنة لم تطلب مني قط العدول عن تأليف هذا الكتاب. ولكنها حذرتني من إغضاب الله. وفي عصر ذات يوم فيما كنا أنا وهي نحضر مجلس العزاء بوفاة قريب قالت لي أن اتوجه بالسلام الى إمامها الذي حضر جوا للمناسبة. مددتُ له يدي تحيةً. لم يرفض الإمام ملامسة يدي فحسب بل رفض حتى الاعتراف بوجودها. وعندما سألتُه عن السبب تذرع بوجود "أحكام". اقترحتُ ان الانسانية ينبغي ان تكون لها اولوية اعلى من الالتزام بـ "أحكام". وشهقت امي لدى سماعها ذلك محذرة ، "رجائي انكِ لم تكوني فظة معه!" أماه ، سواء أكنتُ "فظة" معه أو لم أكن في الصفحات السابقة ـ وأنت وحدك قادرة على الحكم بنفسك ـ فاني اطلبُ منكِ شيئا واحدا: ارجوك ان لا تخلطي بين إغضاب أئمة وإغضاب الله.